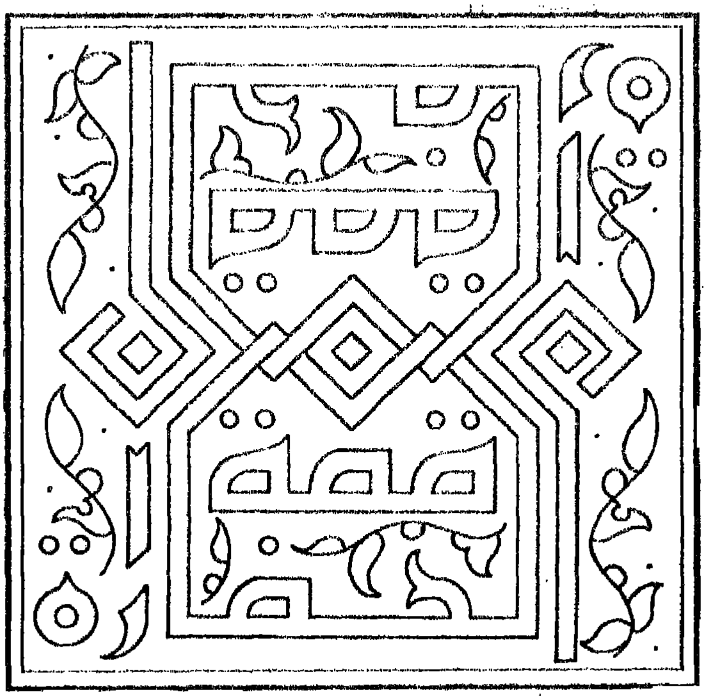
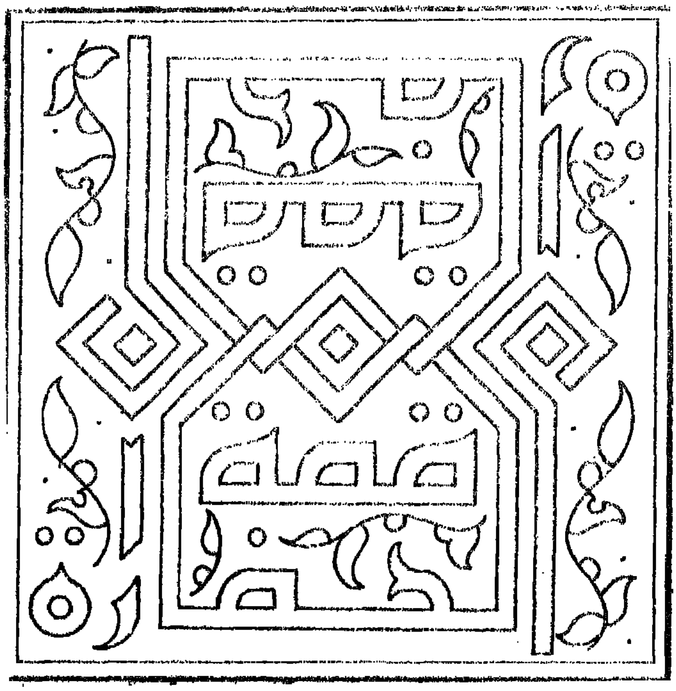
ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة

عصر فولتير





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الدائم بالصراع بين الدين والفلسفة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد التاسع

٣٥

تونس
بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ : ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: داجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

إلى حفيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفَيْن اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحورى - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا المتترة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وامريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الأخلاق والأدب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الأساسي رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تاثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالاضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الأخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترة ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وايطاليا ، والبرتغال ، وأسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الاخلاق المسيحية . وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة » وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو والثورة » التى تلقى نظرة محيطة على المجلدات العشرة كلها ، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف « التاريخ المتكامل » . ذلك أن الاحداث والاشخاص تسير جنبا الى جنب خلال الزمن دون اعتبار لأيها كانت الاسباب وأيها النتائج ، والتاريخ يتكلم فى الاحداث ، ولكن خلال الافراد . وليس هذا المجلد سيرة لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجوالة الثائرة نسيجا يربط بين الامم والاجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الاعلام دلالة وأكثرهم ايضاحا فى الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لاعماله ، وأبقى تأثيرا فيهم اليوم ؟ يقول جيورج براندیس « ان فولتير خلاصة قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى للقرن الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

مقدمة

الفصل الأول

فرنسا : الوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسـمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من الباستيل فى ١٧١٨ يدعى فرانسوا مارى آرويه . وقد ولد بباريس فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، واصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل الذى يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ، وعرف المسرحى بيير كورنيى ، ووصفه بانه « اثقل من لقى من الناس ظلا (١) » . وأما أمه ، مارى مارجريت دومار ، فكان يجـرى فى عروقها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف فى « البرلمان » وأخت المراقب العام للحرس الملكى ، ومن طريقهما استطاعت الوصول الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكاؤهـا المرح من بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى انها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه فى الأربعين وهو لم يجاوز السابعة . وكان اكبر ابنائها الخمسة ارمان ، الذى كان غيورا على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء فرانسوا مارى ، فكان معتلا فى عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب كان يخلع على أى كنسي علمانى ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن. وقد أصبح كثير من هؤلاء الاباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا فى المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من الفوا المشـاركة المسافرة فى

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشـــتهى متسترا وان حافظ على مظهر لقبه . مثال ذلك الأبيه دشاتو نوف ، آخر عشـــاق نينون دلانكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه وثنية نينون وارتيابية مونتينى . وفى رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبى ملحمة هازلة تدعى « الملحمـــة الموسوية » كانت تتداول فى مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعـــة يتذرع بها الحـــكام لاخضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الأبيـــه » فى زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشـهيرة يومهـــا (١٧٠٤) فى الرابعـــة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر فى تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقـد طاب لها أن تذكرنى فى وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لأشترى بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة فى موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطىء باريس الأيسر ، التى اشتهرت بانها أفضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميـــذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الارستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالألفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا فى الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا ســـيما المسرحيـــة ، ومثل فى مسرحيات عرضـــت هنـــاك ، وكتب هو نفســه تمثيليـــة وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقـــدما فى دراســـته ، وظفـــر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفزعهـــم . فلقـــد أعرب عن عـــدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبأ أحد معلميه فى حزن بأن هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال هرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالجميل

دافئين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهـودا مضنية لم ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد أشربونى ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من شىء سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على كل من أخذوا عنه العلم . فان احدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ... وقد أسـعدنى الحظ بتلقى العلم على أكثر من أب يسوعى جملته أخلاق الأب بوريه .. فما الذى رأيته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب الحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونهـا لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه أصر على أن يدرس القانون ، محذرا اياه من احتراف الأدب الذى هو كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سـنين « يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنـة المحاماة الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجـدوى التى ارادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شـعارى هو : التركيز على صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا يجتمعون فى التامبل ـ وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل (الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء اديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ، ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير كونتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحيـاة مرحة .. .. وكان الأبيه دشوليو يجهر بان الخمر والنساء أطيب النعم التى جادت بها على الانسان طبيعة حكيمـة خيرة (٧) . وقـد لاءم فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء السمار المعربدين حتى العاشرة مساء ، وكانت تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسية فى غرام أوليمب دنوابيه ، وكيف لاحقها باشعاره ، وقطع لها العهد بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبى ، لأنه لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير آرويه الأب بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بانه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور اليه . واذ كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت عليه بأن من الخير له أن يصالح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقيم معه ، فوافق . اما بامبيت فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية . لقد كان انسانا مرهف الشعور كأى شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تآلف بين عقلين . لقد فاضت طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة والعشرين يقول « ان الصداقة أثمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى أننى لم أخلق قط للغرام . فاننى أجد فى الحب شيئا سخيفا نوعا ما .. وقد قررت أن أطلقه الى الابد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوروبا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة "ملك ونهاية عصر : "ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر ـ عصر القرن العظيم ـ بدأ بامجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ، وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب وافقاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ ـ الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جـــده ، وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقى على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهـم الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البـــالغ آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتى بلغ ثمنهـــا ٩٠٠ر٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحثه على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشـــعراء (ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفية تمهيدا للملك وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امـرأة لا عيب فى جســـمها ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهـــة حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس ١٧١٥) تركت لدوق مين الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ، وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيا فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيســا للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الأخ الخنثوى للملك الشيخ من زوجة ثانية — هى شاررلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نيط باب دينى تصفه « مذكرات » سان ـ سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بانه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان ـ ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه باداء الاعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان ـ لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر راسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان ـ لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو ـ الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه احس ان تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد اخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وافلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . اما سان ـ سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء . لقد كان ـ فى كلمتين مالوفتين ـ وغدا اصيلا . اصطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل ـ آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والملق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كانه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الاوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود ... كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله افسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها ... شرير ... خائن ، عاق ، خبير باخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان ـ سيمون وثيق الصلة باسرة فيليب ، وعلينا الا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الأبيه كان دارسا كفئا ، ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موفقا ، وان فيليب لخبرته بالرجل ظل وفيا له الى النهاية .

أما التلميذ ، الذى ربما كان نسبه من ناحية الأب قد افسده ، فقد تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . ابهج معلمه بذاكرته القوية ، وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهمه وتذوقه للأدب والفن . واتاه دبوا بفونتنيل ليعلمه اصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه اصول الكيمياء ، وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك انجلترة ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صورا لا باس بها ، ويعزف على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقة خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة التنوع ، وملاهيه تستاثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الأيمان الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) » وفى هذا ، كما فى اباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرنا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهواياته الشخصية ؛ على انه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب عطوف ، رءوف (كما قال سان - سيمون (١٣)) اكثر وفاء لأصدقائه منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته امه اجابها « من السادسة صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا انى الهو بعد ذلك لما اطقته ، ولمت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الأول عذر فى اسرافه فى الجنس . ذلك انه شغف حبا بالآنسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قــوية . وأطـــاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيرى حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق فى ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هى دوقة بيرى المستقبلة ، التى أصبحت أغلى حب له. وأمر مأساة فى حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، الا أن يستمتع بحياته فى السلم ويخاطر بها فى الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضـــد الحلف الأعظم (١٦٩٢ ــ ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة فى حـــرب الوراثة الأســـبانية (١٧٠٢ ــ ١٣) . فلما نجا من الموت كافأ نفسه بوليمة من البغايا . وكان فى آثامه كلها ، وفى غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف فى السلوك وتهذيب وأدب فى الحــديث يذكــر الناس بشـــباب « الملك الشمس » الحالم .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش الا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، اما بالموت واما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت المالك ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقته . فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسنيون الذين قاســـوا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك أصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنســـا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذى جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك انجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » ــ

أى الأسر النبيلة التي أنزلت عن سلطانها القـديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عالة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بانها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة. وحث سان - سيمون فيليب على التخلى عن تبطله وفجـوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحـدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك وشانه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعـدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بآمال رد امتيازاته السـابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتمـاع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قـال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى ماليـة الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، واعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليـل الحكيمة ، وهانذا التمسـها سـلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق واغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبايع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وانه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولا عن شخص الملك الصبى ، وانه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفأ مين ساخطا عاجـزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانيـة أعوام ، وكان يومهـا فى الثانيـة والاربعين .

٣ ـ ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ ـ ٢٠

كانت مهمته الأولى اعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة . لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر٢ جنيه ، أضيف اليه دين قصير الأجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على الدولة » ـ وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى ايرادات الحكومة عام ١٧١٥ لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليونا . وكان أكثر الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدما (٤٧) .

واشار سان ـ سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرأيين باجراءات اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٠٠٠ر٢٥ مقاتل ، واعفى الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، واعفى آباء الأطفال الثمانية اعفاء دائما . وخفضت ضرائب « التاى » ، والجابيل ، والرءوس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفت مئات من شاغلى الوظائف الحكومية الزائدين عن الحاجة ـ ومنهم ٤٠٠ر٢ فى باريس وحدها . وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول امامها كل الماليين ، والتجار ، واصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه فى انهم غشوا الحكومة . وهنا اقام نواى ، الذى ألف الاجراءات العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرأفة كل من يكشف عن زملائه من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التى تسترد بفضل مساعدتهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ، وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد مدى الحياة عقابا لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات امام جمهور مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يئسوا من تبرئة انفسهم . على أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن أكثر المذنبين اشتروا الاعفاء من الفحص او الادانة برشوة موظفى الغرفة ، او اصدقاء الوصي ، أو خليلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حدا كان افراد الحاشية

يسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن احد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرهـــا ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبـلغ ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تاخرت كثيرا ، لأنى ابرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة ندر أن تتحلى بها الحكومات ، أن «الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال الخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحــو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقــد ولد لمصرفى من أدنبره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لنـــدن ، وشهد افتتاح بنك انجلترة فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على راسه حكما بالاعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى ســـوق النقد الأجنبى ، وأعانته قدرته على حســـاب ارتباطـــات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى امستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة . وفى امستردام على الأخص اخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الأرصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتهما . وساءل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفـــكر فى وضع « نظامه » — وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثلى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمـــال عــلى اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجـــارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الاعمال ، وتزيد الاعمـــال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصـدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو امكن اقناع الشعب ـ عن طريق المدفوعات من الفوائد ـ بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لأضيفت هـــذه المدخـــرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب اورليان وصيا ، عرض لو أن ينقـــذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساءل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحـــين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب واهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعا أهليا . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، واقرض القروض ، وأصدر أوراق نقد ـ من فئات عشرة ومائة والف فرنك ـ سرعان ما أصبحت وسيطا مفضلا فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقـــود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، أول طـــرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبـــول أوراق المصرف سدادا للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من افكاره اشد مغامرة . ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغـــرب » لاستغلال حوض المسسبى باكمله ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠,٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر الســـهم منهـــا ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عاليا ، ولكن يجوز دفع ثلاثة ارباعه سندات حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعليـــة .

وبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التى أتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما فى مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - فى تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشترى الاحتكار الملكى للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التى تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فألف منها « شركة جزر الهند » التى ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدا لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية فى التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية فى الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكى » ، واعترف بأوراقه أوراقا نقدية قانونية ، وأعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . وأصدر لو اصدارا جديدا من الاسهم فى شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب. وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة فى تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة فى موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٥٠٠٠ر٥ جنيه ، أى بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس فى ١٧١٨ الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك التصرف فى حياتها الاقتصادية لرجل بريطانى . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكى الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى بإعطائه حصة فى شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٠٠٠ر٥ جنيه فى تعهدات الحكومة ، وخيل اليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا فى مشروعاته المنوعة . ثم عرض قدرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر بإعطائه منحة للوصي قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماستهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها ؛ وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل شارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذى اختار « النظام » فيه مكانه ، مدى عامين المركز المالى الرئيسى لباريس (أشبه بوول ستريت فى

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميــع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلار » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة باصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل احيانا كل ساعة، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذ كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لاول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان اساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتمسين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رايته يعبنى يخترق ابهاء الباليه ـ رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف ـ وماريشالات فرنسا ، واساقفة الكنيسة (٢٣)». وقبلت احدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار افكاره الظـاهر افســده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصي أطغاه ، والواقع انه ربع للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يسـتغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان ـ سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبـا

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى مائدة طعامه ، ولا فى أثاثه ، ما يصدم الناس. وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية .. .. أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لانه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، واظهر نحو جماهير الشعب عطفا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ — أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) — وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ — ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، واحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وافريقيا ، وامريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فاصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . واقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر اركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على ان المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحى . فلقد كان شطر كبير من وادى المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة اقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروست) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون اسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . واوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . اما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الردىء ،والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) اقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب او الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم ان لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبأ هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين ان اسهم الشركة قد بلغت قمتها ، اما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات او الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تاخروا فى بيع اسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع اكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون اسهما بعشرين مليون جنيه ، وامير كونديه باربعة عشر مليونا ، وتطلب الامر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وافرغ مضارب بروسي ما يملكه منها ، ثم مضي بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن اسهمهم ليشتروا أرضا او بيوتا أو حليا او اشياء اخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما الماليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسال الذهب خارج فرنسا . وحاول لو ان يقف تدفق الذهب من الخزانة ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعادن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لمندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان ــ سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم ــ بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة ــ ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٫٠٠٠ جنيه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارتفعت مائة فى المائة ، والاجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديسترى كميات ضخمة من البن والكاكاو . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا ــ ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . ففى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهبا أو فضة . وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضي ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولا عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام ». وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمت مركبته تهشيما فى فناء الباليه ــ رويال ــ واعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بانه كان ضحية الخدع المالية ، وبان الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت أسهم شركة المسسبى الى ٢٫٠٠٠ جنيه بعد أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٫٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبأ - سرى من فم الى فم - بأن الوصي سحب من المصرف الملكى ابان ازدهاره اوراقا بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب احد صيارفة المصرف الى بروسيا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت اسهم شركة المسسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من اكتوبر غادر لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ، وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ، فلم ياخذ الآن معه سوى الفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى بروكسل تلقى من بطرس الاكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادىء التى اقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسي مؤقتا خربا فى ظاهر الامر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة محجمة ، والتجارة الخارجية اصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط هذه الفوضي . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، اما الجمهور الذى استنفد سورة غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئا بقى بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفاقت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستانفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة ـ وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد الماليين وازدادوا قوة على قوة . وكسب النبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لانهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاحا عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسال عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجو الاخلاقى للمجتمع الفرنسي . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسي بقدر اتاح للوصي على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ ـ الوصي

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتينى ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركه فرساى وسكنى الباليه ـ رويال ، فى قلب باريس ومعمعائها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعـلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة فى المزيد من التيسير والخلوة رتب الا يسكن الملك الصبى فرساى بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبـدلا من ان يدس له فليب السم كما ارجفت الشائعات ، عامله ارق معاملة ، وابدى نحـــوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التى اغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد ان دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عـن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا اولئـك الذين عرف عنهـم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجـال قد سجنوا بمقتضي اوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، واكثرهم جانسنيون لم تكن تهمتهم سوى الانشـــقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم انفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك ان رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط او ينبأ بسبب سجنه ، فلما افرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انسـانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس ان يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتمسه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . واغضي عن البروتستنت المتسترين ، وعين عـددا منهم فى وظائف ادارية . واراد ان يجدد مرسوم نانت الســـمح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسـامح ، كذلك ثناه عن ذلك وزيره دوبوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى انكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيريا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، اما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولهـــا فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للايمان المسيحى .

وكان فيليب ـ من الناحية السياسية ـ حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى أن يرى فيها ارهاصا بجمعية ١٧٨٩ التاسيسية (٣٦) . وامتلأت مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته أبيقوريا ـ فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان ـ سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفي بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته ... وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم ـ وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطيق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان ـ الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به ـ أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور ـ وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضي القضاة البالغ عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيبين فى عباءاتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى او بالتآمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان ـ سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، وكانت أسمى اللحظات فى « مذكراته » .

على أن دوقة مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الظرفاء الذين راحوا يخزون الوصي بأهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، اللهم الا « الفليبيات » وأهاجى « الأشياء التى شاهدتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الأسبانى ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسبانى ، والكردينال ملشيور دبولنياك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسبانى ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وافرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق انه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلقه الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من الطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساى ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قصرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها ابطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فسرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضي غير المزروعة . واسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للماثورات والآداب البحتة ، والأكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وانشا فى اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيأ لهم غرفا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنهم المختلفة . ولم تؤت تدابيره واصلاحاته ثمـارها كاملة من جـــراء كابوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسي فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوثه وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجـــال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . أقول دكلوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادىء (٤٣) » . واذ كان قد اكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافتقد الحب أو السلوى فى زوجته ، فانه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيــه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعربدين الذين كان يصفـــهم بكلمـــة noués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغـــالى ويزودونهـا بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليـــه ـ رويال ، أو فى فللته فى سان ـ كلو ، ومعظمهم من شـباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب ـ فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفـــان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثارة الانثى لذكاء الرجل . يقول سان ـ سيمون ، ربما فى شيء من التلوين المنافق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخـــلاق كل انســـان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضي والحاضر ، وكل قـــديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكامنه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الأحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون باقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بافحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثملوا بالخمر ، مضوا الى فراشهم، ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصحت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه احداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعدات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة اخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى اصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديدات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسه بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الأوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات او المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو ان يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ انني لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه ان زال .

هذا العربيد ذاته كان يحب امه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع انه لم يحب زوجته ، فانه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب ابناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان امسكته متلبسا بين احضان امراة ، وافقت على ان ترضي عن خياناته شريطة أن يغضي عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بان يحمى الواحد صاحبه (٤٧) »

هذه الحفيدة ـ حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » ـ وسليلة أسرة بافارية ورثت الجنون فى دمها ، وجدت الان ثبات الذهن واستقرار الخـــلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها واخطائها من حدة طبع عاتت ارعب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحتفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيـــانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تسـتضيف سلسلة من العشـــاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتهـــا النابية ، وعجبهـــا وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيهـــا ، وانه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكاءه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنها فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس ـ التى لا قلب لها ولا حرمة ـ بسفاح القربى، لا بل زادت بانه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . واغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقتها « شلة » مدام مين (٥٠). وقد رفضها سان ـ سيمون ، وهو اقرب الناس الى الموقف ، لانهـــا افتراءات قاسية وضيعة . أما فليب ذاته فلم يعبأ بنفيها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢)، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستأثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحـــد ـ هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض اتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فأصـابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاها اياه طبيبها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتهـــا عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان ـ دنى بايداع جثمانهــا فى المدافن الملكية فى كنيسة ديرهم • أما الام فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الآب فقد دفن نفسه فى فراغ السلطة •

٥ ـ المجتمع فى عهد الوصــاية

كان ازدياد الثروة فى فرنسا فى الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حيــاة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسنية ـ كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا فى الأخلاق رمز له لويس الرابع عشر فى شباب حكمه • وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما احدثته الكوارث الحربية من تاثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض احرار الفـكر الرقــابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس • ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة فى موجــة من الزندقة والاستغراق فى اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تســلط البيورتان (١٦٤٢ ـ ٦٠) • وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحــرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكيت (٥٤) » •

كانت المسيحية آخذة فى الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمن طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه • ففى ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين فى باريس (٥٥) ، وقال ماسيون فى ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضفى على أصحابه مظهر التميز والفخار، انه فضيلة توصل الى العظماء ••• وتجلب للمغمورين شرف الألفــة بامير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد أن فى باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسيحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفى التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد ، الذي كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شأنهما شأن التامبل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

واذا كان المروق عن الدين قد شارك في اطلاق الإستهتار الخلقي في الطبقة العليا ، فان الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على احـــداث الفوضى الخلقية بين دهماء باريس . وقد حسب العالم لاكروا ان « الاشخاص الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين اغنيائها . وأفرخت الجريمة في شتى أشكالها ، من النشالين فى باريس الى قطاع الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تســتطع ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها احيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩). وفى ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل فى القبض على كارتوتن، قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزى) وحاصرت خمسمائة من رجال عصابته التى جعلت السفر خطرا حتى على الملوك . ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين والطبقات الوسطى .

أما فى طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المـدن الطليقين ، ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخليلات ، فقد بدا أن المبادىء الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية الا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الآحاد . فاذا وفدت الزوجات على باريس أو فرساى تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق، الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجهــا جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك نافست النساء الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفــاظ عـلى الأسرة ، وأملاكها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عـــرف العصر والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فنادرا ما كان

الزواج يقود الى الحب أو الحب الى الزواج ، وحتى فى الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين يتالقان كانهما استثناء جرىء للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال ذلك دوق ودوقة سان – سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل – ايل . وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات الى جدات هادئات مثاليات وانكفأ بعضهن ، بعد ان بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، الى أديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن اجرأ نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التى انطلقت فجأة من الدير وهى فى الثانية والثلاثين الى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية . وكان لها أعذارها : فابوها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينوبل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذى يتلهف على أن يباع . وكانت اختها الاكبر منها ، مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيرا فى فوضى علاقاتها الغرامية ، وقد قالت فى اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لى ذلك فاصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقى بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو كلودين الأكبر منها قسيسا ، وشق طريقه الى قبعة الكردينالية والى منصب رئيس اساقفة ليون متوسلا الى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب فادخل كلودين ديرا فى منفلورى ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاما فى حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفى ١٧١٣ ، حين بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت فى حجرة الشفالييه ديتوش ، وهو ضابط فى المدفعية ، اصحبت بمعونته (١٧١٧) ام الفيلسوف دالمبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ، فتركته على سلم كنيسة سان – جاك – لرون بباريس . وانتقلت الى ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ، وبعد أن جلست الى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت بين احضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت أن تحوّل قبلاتها الى وظيفة كهنوتية ذات ايراد لأخيها المحبوب ، واجاب فليب انه لا يحب الغوانى اللاتى يتحدثن فى شئون العمل فى

الفراش (٦٣) » ويأمر بان توصد ابوابه فى وجهها . ثم نهضت من كبوتها تلك وغزت قلب ديوا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفى وسط هذا التقلب الاخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الالقاب ، والذكاء ، والجمال ، فى الصالونات . وكان اكثر المجتمعات تهذيبا فى العاصمة يلتئم شمله فى مبنى الأوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان يحضر الساسة والماليون والشعراء ـ فونتنيل فى ستيناته الصامتة ، وفولتير فى عشريناته المندفعة . وكانت جماعة اكثر جذلا تجتمع فى الأوتيل دبويون ، الذى خلده لساج فى لحظة غضب ، ذلك انه دعى هناك ليقرأ مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فوبخته الدوقة فى خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فاجاب « ساجعلكم تكسبون ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون مدام دمين فى سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت فى ١٧٥٥) تصف المهازل ، والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى أدارته آن تيريز دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الاوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة الاهلية) . وقد واصلت هذه المراة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية الصاخب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد اولعت ، كالمركيزة دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت احيانا (كما يقول فولتير) تتكلم فوق ما يفقهه راسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقبا نبيلا ، ويحرك مشاعر اى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ، وفى كل اربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات والمؤلفون يقرءون ما يزمعون اصداره من كتب ، والشهرة الادبية

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيفة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللائى يجعلن تاريخ فرنسا اكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ ـ فاتو والفنون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق. فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ ـ ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مباهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنائس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ ـ ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها اكثر رقة وصقلا . وبهذا الباروك يتحول الى الروكوك* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه اناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابث الذى لا يمكن التنبؤ به . واصبح الولع بالصقل البديع ، والالوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، واخفيت الاركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساى الاولمبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والاغراء العاطفى . وتجنب الاثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة اكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحبيبين اللذين يكرهان عاطف البعد . وارسى شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز اثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

---

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocaille وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات او تجميلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى الروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساى الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الاكثر خفـــة ، ووجــه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه وبتفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سـخى فى البـــذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصـــوير التقليدية — مواضيع الدين أو الاساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصـغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الاصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلى المرصعة بالجواهر ، والآنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الاشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسهن روبنز أو تتزيانو رداء الطبيعة أو يرفلن فى أرواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه — رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خليلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منهـا لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخـــور بأن أتلقى نصـــيحتك وأنتفـــع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حــررهم الوصى ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طريب خاطـر للطلب عـلى الصور التى تعكس فهم الوصى للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهـــد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لأثاث الوصـــاية وسجفها ، والحفلات المرحة فى غابة بولونيا ، والالعاب والتنكريات فى قصر سو ، والاخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلّت الاساطير الوثنية محل قصص القديسـين القاتمة المتجهمة ، وسمحت الاشكال العجيبة المستوردة من الصـــين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقـــاله بأن

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرعويات الحالمة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محل صور مآثر الملوك وجلائل اعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساى بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه ـ رويال نساء فى أثواب طويلة فضفاضة ساحرة . أما نيكولا دلارجلييير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة أخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خيلائه وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان ـ سولبيبس بروح الخشوع والورع ، ثم أشاع الدفء فى صالون هرقول بفرساى باجساد شهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية ، اسلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته أول الأمر التاثيرات الفلمنكية ـ صور روبنز ، وأوستاد ، وتنييه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمسك رمقه يقضي لاصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا ـ وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطلاته لرسم الأشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدى ـ ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتنون على البانتوميم (التمثيل الايمائى) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على اية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها مارى مديتشي ، ووجد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسي . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمتها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية الحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الابحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة بيرى بزخرفة قصرها الريفى « لامويت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين أخر . وقدّم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو المأكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالترف ، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورا فى حانوت ، وفوق النزعة

الواقعية العرضية القت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذ بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل المروض العصبى الحيى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح ـ يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها احلامه وامانيه ـ مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، واغنية للفرح الملهوف . واذ كان اضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فانه حتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فاضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته امام خلفيات حالمة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمايلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تمثال وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعل باعطافهن الدافئة اقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتموج . فالقى على ثيابهن كل سحر الوانه ، وكانه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، واعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجـال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا ٠ هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الأكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيـدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها. ٠ وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا اغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة ـ واستجابت باريس باختيـارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباهج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلخ شبابه ٠ وغدا بلقبه الرسمى « مصـــور الاعيــاد المرحة » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حالمة فى ريف هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد ٠ على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا انهن خبرن شيئا من الألم ، او ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن ٠ تلك هى ميزة فاتو ـ الترجمة المرهفة للحظـات الكمال التى لا بد ان تنقضي ٠

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته ٠ وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لأن الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تمييز فى رسم العيون والوقفة والمروحة المعابثة لم تكشف عنهـــا قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) ٠ واغرمت نساء باريس غراما شـديدا بأنفسهن كما راينها فى أشواق الفنان الميت ٠ واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها باسلوب فاتو (الا فاتو) ، ومشت واتكات باسـلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خيــاله والوانه ٠ ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « ارابسك » الركوك الرشيق ٠ وتلقف الفنانون امثال لانكريه وباتير تخصص فاتو ، وصوروا المهرجانات الريفية ، واحاديث الغزل ، وحفلات الموســيقى فى المنتزهات وحفـــلات الرقص على الخضرة ،

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة السنة التالية كان ذكرى لفاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التأثريون فى أسلوبه ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ ـ المؤلفون

زكا الأدب فى ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهينة اللينة وما ساده من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها . وأفاقت المسارح والأوبرا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتنون ، وكان فليب ، أو بعض أهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الأوبرا ، أو الأوبرا ـ الهزلية ، أو « المسرح الفرنسي » ، أو مسرح الايطاليين . واحتفظ المسرح الفرنسي بتمثيليات كورنيى ، وراسين ، وموليير ، ولكنه فتح أبوابه لتمثيليات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا أعظم كتاب هذا العصر محافظين شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان الان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ، ينتمى روحا واسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وفد على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليسوعيين فى فان ، فدرس فيها القانون ـ وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد أن قضي فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة زوجته وأبنائه بتاليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا أن رئيسا دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم بعض التمثيليات عن الاسبانية ، والتتمة التى كتبها افيلانيدا لرواية « دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الأعرج » لفيليت دى جويفارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧) التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى باريس ، ويرفع أسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطان الغافلين . والحصيلة فضح مرح لمكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ورذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجا بزوجها فى الفراش مع خادمهالخاص فتحل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخـــادم يعتـــدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد أبهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عـدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باريان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت ــ بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها اسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتهـا ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى موليير بهزلية تهجـــو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبأ « توركاريه » هذه ســـلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتُهم قصة ــ ولعلها اســـطورة ــ وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠٫٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرّتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بهـــا الناس . يقول الخادم فرونتان « عجبا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغتاح تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمـــال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفـــق لساج ، فى اشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتللانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك ــ باسلوب روايات التشرد ــ خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة ــ عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهـم

وأساليبهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسبانى ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل ان التحق بالقصر كانت طبيعتى مترفقة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبى اقسي من اى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الاحاسيس الرومانسية للصداقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض ان يعينهما. ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته باطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » احب الروايات للقراء الفرنسيين ، الى أن تحدت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . واحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شيخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الاربعين ، ولكن كان فى قدرته ان يسمع ببوق ، فيا له من رجل محظوظ يستطيع ان يصم اذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء اقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان ـ سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط انه كان واحدا من « أدواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يغتفر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الأبناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فـــوق « الأدواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمى الىّ نبأ موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامي للملك الجديد .. ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان، وذكرته بوعد قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رءوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كثب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها في ١٦٩٤ — من زاوية طبقته — منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافـق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبثه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى احكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارســـتقراطية ، ولكن مجـلداته العشرين سجلّ مفصّل نفيس لكاتب ذى عين لماحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتنون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان — سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان — سيمون يقرب فى هذا من بوربين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضي قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ ـ الكردينال العجيب

لو صدقنا سان ـ سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادىء شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة أخرى الى سان ـ سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من اكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسة ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض ابدا ، زيفه مكتوب على قسمات وجهه ، ... ما من شيء فى رأيه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للايمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع .. .. والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب انه لم يستطع ، وفيه هذه النقائض ، ان يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بان يؤدى بالمؤلف القاسي الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بان دكلو يتفق مع سان ـ سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على أية حال لابد انه أوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه أدار الشئون الخارجية ادارة لا باس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيرا لفرنسا . ذلك ان حزب الأحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش اسبانيا ، وخيل اليه ان ابرام اتفاق مع انجلترة سيزيح العقبات عن طريقه . فلو ان انجلترة ، وأسبانيا ، والنمسا

والاراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد ، لطوقت فرنسا بالأعداء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس الرابع عشر وانتصاراتهما • ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب اتفاقا مع انجلترة والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٧ • وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا؛ فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد سيطرة انجلترة على البحار • كذلك كان نعمة للملكيــــة الهانوفــرية الجديدة غير الآمنة في انجلترة ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالا تبذل مزيدا من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزى

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة فاشترك البيرونى ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلامار ودوقة مين للاطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا • واكتشف دبوا المؤامرة ، واقنع الوصي على كره منه بان يحذو حذو انجلترة في اعلانها الحرب على أسبانيا (١٧١٨) • وانهت معاهدة لاهاى (١٧٢٠) هذا الصراع • ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب • وعقدت الزيجات عــلى جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في حفل لاحراق المهرطقين (٩٠) • ولما كانت الأميرة الاسبانية ماريا آنا فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلابد أن ينقضي زمن قبــل أن ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فاذا حدث أن مات الملك الصبى خلال هذه الفترة ، فان الوصي يصبح ملكا على فرنســا ، ويصبح دبوا وزيره الدائم •

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة • ففى ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفــارقات التــاريخ طلب ملك بروتستنتى هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البـابا بان يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذى شرفه قبيل ذلك فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماســيون في الاحتفالات التى اضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من

الفرنسيين جماع الرذائل . اما دبوا فلمس بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المـــال الفرنسي ليُجلِس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليـــه بقبعـــة حمراء (اى قبعـــة الكردينال) . وأوفى انوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، واصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢١) ، وبعد سنة عين وزيرا أول للملكة براتب قدره ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ جنيه . واذ كان يتقاضى ايرادا قدره ١٢٠٠٠٠ر١٢٠ جنيه من منصب رئيس الاساقفة ، و ٢٠٤٠٠٠ر٢٠٤ من سبعة اديرة ، و ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدّره سيمون بمبلغ ٩٦٠٠٠٠ر٩٦٠ ، فقـــد بلغ ايراده الســـنوى الآن نحـــو ١٥٠٠٠٠٠ر١ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته ــ التى كانت لا تزال على قيد الحياة ــ ما يبعثـه اليهـــا من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن ادركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثـة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساى ، طلب الى فليب ان يواصـل حكمه للمملكة ، وظل دبوا اكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى اول اغسطس ان انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجاة وهو مثقل بامواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة اجله هو ايضا انتهت . ذلك انه بعد ان اتخم بالنساء ، وتخدّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقـــد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وانذره الاطباء بان اسلوب حياته سيقضى عليه ، ولكنه لم يكترث ، فلقد اترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعا خليلته مؤقتا . وكان يومها فى التاسعة والاربعين .

على ان فليب اورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرذائله رذائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيرا فاسقا ، ولكنه لم يكن انانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيما ، شجاعا ، لطيفا . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلىّ ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أى انضباط . انه لمنظر محزن حقا – منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأى ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصّب الملك العظيم ، ثم يترك الأهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيعُ الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الأخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لأنه شرّف رجالا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسي بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتيابية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الأبيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر ، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسي حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيتيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ – فولتير والباستيل : ١٥١٧ – ٢٦

فى مذاكرات سان – سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا أثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثّق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه ابياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكادميا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك .. .. شخصية فى دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بانه « نحيل ، طويل ، لالحم فيه ولا أرداف (٩٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (او مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتالق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمع فى قصر سو على الأخمس ، فانه اثلج صدر دوقة مين بهجـــوه للوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرابط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بانه كان خيرا له ان يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموّه . واسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن اخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الانكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على اصحاب الأقلام . اما الوصي فكان فى وسعه ان يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لانهـــا كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخريات الموجهة لابنته ، لانها كانت صادقة فى اغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ اصدر أمـــرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » — وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمدابغها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بان يغير المنفى من تل الى صلى — سير — لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنئذ ، سليل الوزير الاكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث ان وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براءته ويلتمس اطـلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى ارجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاءة حينا ، وفى سطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما — حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدات كل جملة فيه بكلمـــة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رايت الباستيل والف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان ورعايا اوفياء . رأيت الناس اشقياء يرسفون فى عبودية قاسية . رايت الجند يهلكون جوعا ، وعطشا ... وسخطا ، رايت شيطانا فى زى امراة ... يحكم المملكة ... رايت البور - رويال وقد هدم ... رايت - وهذا ينتظم كل ما رايت - يسوعيا يعبد ... رايت كل هذه الشرور ، وانا لم اجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام دمانتنون ، ولابد ان كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شاك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب فى قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب الحقيقى فهو أ. ل. لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لانه تركه يتحمل تبعة كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت آرويه على القصيدة ، والحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم يصدق أحد انكاره تاليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن قصيدة « رايت » المذكورة ، ومطلعها Puero regnante [illegible] .. يقول كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، .. .. وثقة الشعب تنتهك (افلاس مصرف لو) .. .. والبلاد يضحى بها طمعا فى تاج ، وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » . وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بان « يقبض على السيد آرويه ويودع الباستيل » . وفوجىء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له بان ياخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه خيانتهما فى تفلسف - « علينا ان نحتمل هذه التواقه (٩٨) » وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه ابياتا تبين موهبة الثائر الشاب فى قرض الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما اعمق فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان) فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الاخطاء الرقيقة ، كل اولئــك ربط بين قلوبنا الثلاثة . الا ما كان اسعدنا ، اذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين .كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير فى المستقبل ، رغباتنا كلها تحــدّها مباهجنا الراهنة — فاى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا افضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وابت ان تدخل فولتير بيتها حين اتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى ان « كل الماسات واللآلىء التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتهـــا فى الايام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها اصر وهو فى الثالثة والثمـانين على زيارة المركيزة الارملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه ايضا ارق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجنا لا يطاق . فقد سمح له بان يرسل فى طلب الكتب ، والاثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقية النوم ، والعطر ، وان يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مامور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الالياذة من الكتب التى ارسل فى طلبها ، وساءل نفسه : لم لا ينافس هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الاساطير ؟ ان فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المغامــرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لانه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الاول من ملحمته بين سطور الكتب المطبوعة .

وافرج عنه فى ١١ ابريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاتنيه القريبة من سو كتب الى الوصي رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانت قناة الوصي ثانية ، وفى ١٢ اكتوبر اصدر اذنا « للسـيد آرويه دفولتير بالمجىء الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباستيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى anagram أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune) باعتبار الـ U هى حرف V والـ I هى حرف J ـ أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن احد أبناء عمومته ، ولم يرث معها اى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقرية ، ووقع ـ كما فى اهداء تمثيليته الاولى ـ بهذا الاسم « آرويه دفولتير ») ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية ـ أوديب ـ حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين ألا يكتفى بتحدى كورنيى ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس ايضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق.م. اضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته ـ وهى بالضبط التهمة التى سجن بسببها آرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيليته اثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجرأته المألوفه الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه اذن باهدائها لأمه . واعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس ـ انصار الوصي ، وانصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر احد الفريقين ، واخرى تسر الفريق الاخر . فارضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وارضي اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى ـ لجران ؛ أما احرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الانشـودة التى تتردد فى حياة فولتير • « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هى التى تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفى النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع • وتقول رواية قديمة ان والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية فى أولى ليالى عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيىء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية •

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسـة وأربعين يوما • واطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيى ، وان أبدى لفولتير ان بعض ابياتها « بالغة الشـدة تضطرم نارا » • وأجاب الفتى المندفع بتورية فطنـة : « لكى اهـذب نفسي سـاقرأ رعوياتك (١٠٤) » واصرت باريس على ان ترى فى أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفى جوكستا شخص ابنته • وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال • أما الوصي فامر باخراجها فى مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف فى بلاطه •

وبعد بضعة اشهر نشر شاعر افاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippigues الفليبيات » ، وهى هجائيات اتهمت فليب بانه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش • واشتبه الكثيرون فى فولتير مؤلفا للقصائد ، فاكد براءته ، ولكنه كان قد كذب فى حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه الان احد الا المؤلف • وبراه فليب لعـدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينـا عن نعيم باريس • فعاد الى شاتو صلى (مايو ١٧١٩) • وبعد سنة سـمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان •

واذ كان مؤمنا بان المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاءه الحاد فى فهم مشكلات المالية وحيلها • وسعى لمصـادقة المصرفيين ، واجيز بمكافأة سخية للمعونة التى قدمها لاخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) » • وكان بطلنا من استغلاليى الحرب • وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، واقرض النقود بالربا • وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٢٥٠ر٤ فرنكا • وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٠٠٠ر٢ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا • وعما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا ألا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين •

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية — آرتمير — (١٥ فبراير ١٧٢٠) • فجرى من مقصورته الى خشبة المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » • واستعاد الشاعر كبرياءه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة • وكان حيثما ذهب يقرأ جزءا منها • وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتهما ، لاسورس قرب أورليان ، فاكدا له أن ملحمته تبز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » • وتظاهر بانه يشك فى صدق هذا الزعم •

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالربوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا • وخامرته الظنون بأن انجلترة سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة • ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للربوبيين الانجليز • وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى درويلموند بأن يصحبها الى الأرضي المنخفضة • وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين • وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى •

اما فولتير ، الذى قلما كان يطيق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى اننى. لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسته يواصلان رحلتهما الى هولندة كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسألته عن آرائه . واذ كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحى مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن انت تودين ايتها الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بأمرك فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق امام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدراء أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد أن أحب الله ، والتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر « على صورته » ليجعلهم حقراء ، واعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بآلام رهيبة ... أبدية » . وما ان خلقنا حتى فكر فى اهلاكنا . فامر المياه بان تغرق الأرض . وارسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لنا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكانه ينتظر بروح الثار ان يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست أتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبده ، وساشينه بمثل هذه الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره ، وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد اقام تعليمه على وهم وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى ان نستقر على راى فى الدين واثقة كل الثقة بان الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبـك ، لن يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضـــع ، والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى (قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمع روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون وطريق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتمــاع للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت اعظم ممثلات العصر آدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة «ماريان» ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركيز دميزون اســتدعى الدكتور جريفيه من باريس « وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) » ولعله كان لهذه الاكواب المائتين الفضل فى « انقاذ حيــاتى » . ولم يتماثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع انه بعد هذا كان يعــالج نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحياها ذلك البدن الهش الذى غرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الآكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة . لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمى . واتخذت الملحمة مذبحة القديس برتلميو نصاً لها ، وتتبعت الجرائم الدينية خلال العصــور ؛ الامهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الاله ملخ ، واغا ممنون يتهيأ لتقديم ابنته قربانا للآلهة التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؟ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى نافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انتقدت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل ان تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من ان تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمةلروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل — فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية — كل أولئك ضحى بمفاتن الابتكار والأصالة ، ومع ان الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد اخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامره ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدا ان المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانيادة ، وذهب فردريك الأكبر الى « ان أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندة وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلتره . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينا بالشهرة والمال دون ان يكدرهما مكدر . فقد اعترف به الناس اعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحته بألف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب اكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويفاخر بهذه الحياة . وراح يتحدث فى ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود . وحدث ذات ليلة وهو فى الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان ــ شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فساله فى خيــلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه ــ ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا فى الكوميدى ــ فرانسيز ، وأعاد روهان سؤاله . ويختلف الرواة فى الجــواب الذى أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعــرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع الســيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستــل ســيفه . وكانت آدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلهــا تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى فى بيت الدوق صــلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق . وحــذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا راسه ، فعسي أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساى ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه . فى تلك الليــلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفســه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة المسجين اثنت بالاجماع ... على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلتره مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا امر ان يوصله الى كاليه . واعطاه اعضاء الحكومة خطابات تعـريف وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى كاليه استضافه اصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلترا

١٧١٤ ـ ٥٦

الفصل الثانى

الشــــعب
١٧١٤ ـ ٥٦

كانت انجلتره التى وجدها فولتير أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيدة التجارة ، واذن فسيدة المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليهـــا الكثلكـة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لجيب البرلمان المنتفخ . تلك هى انجلتره التى احرزت قبل ذلك التفرق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وانجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت تقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سترقب بعد قليل فى قلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . انها انجلتره التى احبها الفنان هوجارث وشجبها بقوة فى محفوراته ، انجلتره التى وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيهـا ضوءه كل موسيقار من آل باخ اذ غدا أعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات .. هذه البقعة المباركة .. فى انجلتره هذه (١) » ـ بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ ـ التمهيد للثورة الصناعية
١ ـ المؤيــــدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلتره فى ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبيـــة الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول أبقارا سمانا ، والفلاحين يضجون فى ألعابهم الريفية ، وكبار المــلاك فى الريف ينظمـــون شــئون

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الاقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا اعفوا من مضايقات هذا الريف ، وملله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلتره سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ الف سنة . كل قرية — بل كل بيت تقريبا — وحدة مكتفيــة بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتقطع اخشابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل اسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانهـــا ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدها وهلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخيط وتدبغ الجلد وترقع الأحذية ، وتصنع اكثر انيتها وادواتها والاتها . وهكذا وجد الأب والأم والأبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى امسيات الشتاء الطويلة ايضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تمريض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجعة . وهى تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والطيور . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعاونين والأسرة كائن حى اقتصادى كما انها كائن حى اجتماعى ، وبهذا توافر لها مبرر قوى واساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون احرارا فى الابقاء على اساليبهم القديمة فى الحقول لقنعوا بما فى بيوتهم من حيوية منوعة . لقد تذكروا اياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطلقوا قطعانهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، وبأن يصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثر عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سور المـــلاك معظم الاراضي المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح انه لم يكن هناك اثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، برأسمال أكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترة فى ١٦٨٨ نحـــو ١٨٠,٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلترة عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحـــد منهم ٢٠٠,٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحة الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فانه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالمـلاك الســمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حــوله من ارض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلى مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحســنة . والمزارع يصـــبح مستأجرا او « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلترة عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحى المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، واحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسورى الأراضي ان التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه ان يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب انهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الاقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموســعة . فاستصلح حافز الكسب الأراضي البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الالات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واضيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المســاحة المزروعــة فى انجلترة وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفيــة واللفت الأصـفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة • ثم جاء بالاغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الارض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الارض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية • وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ • واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الارستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخصيا بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماد (٤) •

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وارباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المسرفة ، ـ فالمزارعون ينثرون تسعة او عشرة أرطال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الارض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقى اكتظاظا يمنع الزرع من ان يزكو (٥) » • ودرس اساليب الزراعة اثناء رحلاته فى فرنسا وايطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج • وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا • ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال انابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار • ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبذورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش • وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احداث ما سمى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن ان تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر • ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من ان تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية •

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصـيب من الثروة النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضئيل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفليان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هـو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمـال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لابد منه ، ولو وزع الربح الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد الزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الابرشية . وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ ـ ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان قرنا قاسيا .

ب ـ الصـناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الاوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » بيوركشير ١٠٠٫٠٠٠ قطعة قماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠٫٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، والى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فظل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى الواقع مصانع وليدة ، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليشاركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على الات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنا . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضى قرنا تقريبا (١٧٣٠ — ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمله تغيير بطىء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي حادا بالدرجة التى أوحت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قديمة قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتى كثيرة كثرة الشعراء ، والرأسماليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرأ فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ — ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحله المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولمبس — هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا أساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضي الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترة ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت ـ أى الشيت ـ الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورتانية ـ التى ستدعمها بعد قليل حركة المثوديين ـ فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاءل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترة الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر(٩) . واقتضي الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فأكثر ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدّنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج باشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الان أغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا . وزعم « دَد » دَدلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك ـ اى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى انجلترة وفى ١٧٢٨ انشيء أول مصنع انجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاخراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

جـ ـ الاختـــراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للانظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتـــاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصدرها ، خشـــية أن تهددهم بالتعطل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحـــرى كان آخـــذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تتهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الاجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جـــون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هـــذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النساج باستثناءات صغيرة ـ اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبى النول بيد ، ويلقفه باليد الاخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكولتشستر اتهمه النساجون بانه يحـــاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعــه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضي كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الأهالى هاجـــوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى فى النهاية (١٢)» ووجد كى قبولا أكثر فى فرنسا ، التى تبنت حكومتها اختراعه وكافاته بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم اســـتعماله الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط باسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغــزل الى سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التى تمجد الماضي . فى ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتى ، آلة غزل يبدو انها مبنية على أسس اقترحها جون ثيات ، وهى مجموعة من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا باى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله باقل جهد . وباع بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ، واقام كيف خمس الات بمصنع نورثامبتن فى ١٧٤٢ — وهو الأول فى سلسلة طويلة من مصانع الغزل فى انجلترة القديمة والجديدة .

اما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الألات القــوية ، وتطلبت الاحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال وصبر النساء . وأقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففى مائة قطر كان الدولاب المائى العظيم ، الذى يدور على مهل مع جريان الانهار ، يسير منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافيخ ، والبكر ، والمطـــارق ، لا بل الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصـــدر الاهم للطاقة الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ، وما التركيبات الهيدروليكية فى زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ، ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا فى بلاد الجنوب الهادئة الريح ، ولكن فى العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية فى ادارة طواحين هواء توجه « قلوعها » الى « عين الريح » بونش فى اســـفلها يدار باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التى لا يركن اليها ، اوجهـــا فى الأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر ، ثم بدات اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية • وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مرورا بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالومون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكرستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة • وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة • وقد ظلت النموذج الأساسي للطلمبات مدى ثلاثة أرباع القرن •

د ــ راس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا • والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترة اليزابيث وفرنسة كولبير • غير أن « نظام » المصانع ــ اذا عرفناه بانه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع ــ لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر • ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٫٠٠٠ دولاب • وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن •

وشراء الآلات وايواؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال • كذلك كان الراسمالى ــ مقدم رأس المال أو مديره ــ ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفيـــة بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هيىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبيـــة المطالب المتزايدة للجيوش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الراسمالى اقـدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمـله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدّد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدّل اجوره أو نوعية ناتجـــه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل اصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم ســمث كثيرا - التـــكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » اجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فاذا كان عاملا فى منجم فمتوسط اجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، واذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النساج يتقاضي حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . اما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، واما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الأسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هـــذه الأجور احيانا علاوة للخبز والجعة اثناء العمل ، وكان معظم عمــال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة اصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون اكثر من هذه الأجور ، لأنهم ادمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور • وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « ان تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » • وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من الحماقة شفاؤها (١٧) » اما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهوّن من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) • وشكا اصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكسبية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء • ورغبة فى حماية انفسهم من هذه المخالفات واشباهها كان اصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه فى الطوارىء أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) • فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين •

ونشات فى المدن ببطء برولتاريا تابعة • وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ • ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم انفسهم ، ولجاوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، واصبحت اتحادات هؤلاء العمال ـ لا الطوائف الحرفية ـ هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترة فى نهاية القرن الثامن عشر • وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلوسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الادنى القانونى للأجر، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) • لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم التدخل "Laissez - Faire"

هـ ـ النقـل والتجـارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت انجلترة تتمتع بميزة ساحلها البحرى وأنهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخـل ، فأتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، واخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخـراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الاقدام أن ينحـولوا الى الحقـول أو الغـابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لاغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبـات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين واوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحـلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post – houses فى جميع أرجاء أوربا الغربية . ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لانه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد او تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام امكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشسترفيلد (١٧٤٩) يشكو الحـال « ان رسائلنا على أحسن تقدير تنقـل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضـيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المألوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان اكثـر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو اربعة ولها سـائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون ٠ وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترة ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام ٠

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوقة بدائية على نحو جدير بالتصوير ٠ فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياد الحمل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت الى بيت ٠ أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى عرض فى الفترينات » ٠ وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والبدال سمى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة. gross ; فالبدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شىء من السكر الى المسامير ٠ وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات من بضائعهم ٠ ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربردج ٠ فى هذه الأسواق ، فى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن الأسعار والنوعيات والكوارث ٠

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار ٠ وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكمية فى النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور الانجليزية من ٣١٧٫٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١٫٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١٫٤٠٥٫٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) ٠ وضاعفت لفربول حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة ٠ واقبلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميل التى تخلب الألباب ٠ وبلغت

ارباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميها خمسة عشر دوقا أو ايرلا ، واثنتى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية فى انجلترة الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى ان انجلترة استطاعت ان تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم اصحاب السفن لفربول ، وساد اصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٫٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه فى وانستد من اشهر مشاهد انجلتره . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم اقطار أوربا ترى املاك الأسرة - أى الأملاك الوراثية - التى تميزها الألقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى أهم أسباب التمايز . أما فى انجلتره فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الأغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (أى حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المال

كان المصرفيون الأوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التى يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال فى وقت واحد ، فقد كان فى استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة . وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك فى توسيع الاقتصاد الأوربى . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبانى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفى حتى عبر حدود معادية .

وتألفت فى انجلترة شركات محاصة كما حدث فى هولنده وايطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا أسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وامكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست فى لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) فى ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا فى المضاربة بأسهم الشركات ، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون فى أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديفو فى ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشترى ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رءوسهم ، ويلمحوا بأن هناك أخبارا سيئة من الهند .. وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق .. وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشترى ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة فى المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه .. فى الشراء ، ولكن فى

تكتم وتحوط ، حتى يشترى - بعد ان باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة فى المائة - اسهما بمائة الف جنيه ، باقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا أكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) » .

ولم تكد تفتتح أسواق الاوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى انجلترة ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تاثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد اسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الاسبانية فى امريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الاوراق الحكومية ليستبدلوا بها اسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بان مرسوم احتكارها يعد بارباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترة ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولهما الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم اسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ١٢٣٫٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولاثنتين من خليلات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال ان المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بارباح من اموال لن تفى بالغرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بأن المشروع سيفشل ، وانه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسـهم الشركة . ولـكن مجلس العموم أبى الاستماع الى تحذيره . وفى ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفى ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيـه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفى ٢١ أبريل أعلنت ، وهى منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التى أصبحت الآن ملكا للشركة ، انها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة فى المائة ، واستغلت الحماسة التى اثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الأسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها فى ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها فى ٢ يونيو ، وفى يوليو بيع اصـدار جديد بسعر ١٠٠٠ جنيه للسهم . وتهافت المجتمـع الراقى كله على الاكتتاب . الأدواق والقساوسة والسياسيون والموسـيقون والشـعراء ، فاصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا فى شارع كانكمبوا بباريس فى الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم فى الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعـات ، وفى كل ليلة يحسب الرجال والنساء اى ثراء أصابوا ، وما كان يمكن ان يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتروا فى تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الأسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصـدرتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشييد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحـــركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من أسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى الف اكتتاب كل منها بجنيهين قبل ان ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصــغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب. وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمــان بذلك - وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة. وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضييقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو « فقاعة المسسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جــون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال اغسطس كله توالى هبوط الأســـهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيها ، ثم الى ١٣٥ جنيها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وافلست المصارف التى كانت قد اقرضت المال بضمان شهادات اســـهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع ارجــاء انجلتره بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشـــعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمــان للانعقاد . وفر امين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من الســجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلتره . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤٫٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض اعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاط المديرون المذنبون فى زكيبة ويلقوا احياء فى التيمــز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الاعضاء بعضهم بعضا للمبــارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديرون ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ، وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين — منهم ادورد جبون ، جد المورخ — فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد اشار بالاعتدال فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع مصرف انجلتره وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من الاحتياطيات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة حتى عام ١٨٥٣ .

٢ — مظاهر الحياة فى لندن

يقدر الاحصائيون الأجرباء سكان أوربا بنحو ١٠٠ مليون نسمة فى ١٦٥٠ ، و١٤٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان فرنسا بعشرين مليونا ، والمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركية أوربا ، والسويد ، والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى أوربا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على « اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن علينا الا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلتره وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا اربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غذت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥ر٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت »(٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥ر٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة اضعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى اكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث أكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط ان تبحر مصعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيأ لنقل البضائع من السفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطىء النهر انيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحللات ملبسا وخلقا ، القذرات مظهرا ولفظا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غدوا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور او غيرها من البلاد — وظل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر . وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع انها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضأ الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر الف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان اكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية وتصرف المطر . ولم يكن هناك افاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج باصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقعقع حوافرها على احجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون — وكثير منهم نساء — يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنو الشوارع يصيحون بالأغانى الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمّل من الناس فى صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدأ تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه المجارية . وأخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا امام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام الا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيطهرها منظفو المداخـن ، الذين يتسـلقونها بضغط كيعانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسي لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى احياء فقيرة مزدحمـة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حيين من أحياء لندن ـ هما وابنج ولايمهاوس ـ كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعثا فى الشوارع لا تسترهم غير أسـمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشـالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رءوسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهـراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيثون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقترفون اخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالتكم (٤٢) » • وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطر الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكانه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » •

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئا أكثر كثيرا من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط • ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والاحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادى ، ودكاكين الحرفيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويح فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكسبية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والاوبرا ــ عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠ر٠٠٠ نفس •

٣ ــ المدارس

كانت الحياة فى انجلترة كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) • وكان كثير من الأطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للأحداث • ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن اهمال المولدات والأمهات •

فاذا كان الأبوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا • وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨ر٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا • يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) • أما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم • وأما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى »(٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادىء القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم • وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا •

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادىء القراءه والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوضيع فى السلم الاجتماعى • وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء • وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ابتون ، ووستمنستر ، ووينشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى — حيث يستطيع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفاخرون بها فى المستقبل • واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة — من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين — هؤلاء انشأوا اكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة – وهو تعليم انسب لأبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون الى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون scrvritors أو sizars) مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والافكار . وأبدت كمبردج استعدادا اكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشسترفيلد بأنها « غارقة فى احلك الظلمات » . أما اكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وباسرة ستيوارت الساقطة ، ولم تسمح لملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم سمث ، الذى كان يطلب العلم باكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها الا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة . وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكن يتلقين تعليما اوليا فى مدارس القرية أو المدارس الخيرية – فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، واشغال الابرة ، والغزل ، وقليلا من الحساب ، وكثيرا من الدين . وتلقى بعضهن التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدي مارى « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ، والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن اى اسراف فيه من جانبنا يغتفر لنا اكثر مما يغتفر اقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم ... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من المراة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بان الرجال كانوا يبقون النساء فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . واذا كان لنا أن نحكم من دخول محظيات الملك ، فان النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ ـ الأخـــلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا فى ذلك العهد مما هى اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حـــد لم يكد يعرف ثانية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبى عدد المومسات بخمسين الف فى لندن ، يوجدن فى حانات المدينة ، وفى الفنـــادق الصغيرة على الطرق ، وفى حدائق المدينة ، وفى المراقص العـــامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن فى شارع اكستر وحى ســـتراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمترددين من الزبائن . وفى « درورى لين » (شارع المسارح بلندن) ـ كما تغنى الشاعر جـــون جـــاى فى تمثيليته « تريفيا » : هى التى تمشي فى الليل بخطى وئيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنشليف ، وسيماء المومس ... وباصوات التمـــلق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا امسكت احداهن وهى تتحرش برجل ، زج بها فى السجن وضربت بالسوط ووضعت فى المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » فى عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الام نيدهام فى المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهـــور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشـــهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم أو يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، أو يخرجهن صاحبهن بكفـــالة ، واحس بعض حفظة القانون ـ ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » ســـابقات لهم ـ بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجـــال .

واغلب الظن أنه لم يات الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرذيلة علانيـة ، ولكنهـم احتقروا الفضيلة سرا .. وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذى عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن واكثرها شعبية .

والف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهـم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبا القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمـة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليـو روت الجريدة أدانة « روبرت هـويل ويورك هورنر بفتحهمـا بيـوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرذيلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى ادينت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون ... حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لنـدن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الاقل فى روايات رتشردسن وفيـلدنج ، ولكن معظـم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الاشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقـة والديهـم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترة ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرين قانونا اكثـر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الاماكن فى شـارع فليت او على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحدون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر اصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر اى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس انجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترة (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثالا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجريف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاى » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسال زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ .. كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجل اخر (٥٥) » . على انه يمكن القول عموما بان أخلاق النساء كانت فى انجلترة خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقران فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمر وجوههن خفرا مغريا ، وان يغشي عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الليدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد القيا بنا فى مرتبة أحط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحماقتها أن ينكرا ذلك انما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بانه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء هى انجلترة قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، وندر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبطل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد تشسترفيلد يقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجالا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعبأون بانذار ينبئهم بان المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة★ . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتبة بسرقة أرباب عملهم ، طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان أكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيها (البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ، باعتبارها أسلم والطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ، وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمور فى كل مكان ، وكان ٣٥٠ر١ بيتا من بين ٠٦٦ر٧ فى ابرشية هوبورن تبيع الخمر . وأغضي ملاك الأراضي — والبرلمان اذن — عن تجارة الوسكى ، لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض المنزرعة فى انجلترة تقريبا يزرع شعيرا . وأخذ الوسكى يحل عند علية القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو وأوبورتو ، وادخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة مخمورا . وكان بولنبروك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ، أما روبرت ولبول فقد علمه السكر ابوه ، الذى عقد النية على الا يراه مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمور المقطرة فى بريطانيا من ٠٠٠ر٥٢٧ جالون فى ١٦٨٤ الى ٠٠٠ر٣٩٤ر٥ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل ان الأطباء انذروا الحكومة بان شرب الجن قد زاد معدل الوفيات بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة لافتات تعهدوا فيها لزبائنهم بان يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب • ففرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسما على الجن قدره عشرون شلنا للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيها فى العام نظير الترخيص ببيعه • وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة • وأفضى الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجار به سرا • وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفا ، وعدد الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة • فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين جنيها ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واغتبط الشعب وراح يشرب ما شاء • وفى ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للالغاء أمام القضاء) الى تحسين خفيف (٦١) • وأثار الفيلسوف باركلى الموقف بتنديده بالطبقات العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيىء ، وبانذاره اياهم بأن « أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعا (٦٢) » •

كذلك كان المستوى الخلقى منحطا فى ميدان المال والأعمال ، فجنى بعضهم أموالا طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد أو بيعهم • وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ، ومن خلط الخبز بالشب والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة السن بالكيماويات الخطرة على الصحة والحياة • فلما بذلت محاولات للحد من هذه الاعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق « كل انسان •• فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » •

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لاكراه الرجال على الخدمات العسكرية • فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعدا) « كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة • وكان أيسر هذه الوسائل اسكار الضحية ، اذ كان فى الامكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ اقدامهم البر ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى .. دون اى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) » . ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن .. فالسجين يحظى بمكان وطعام احسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان اكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعلا الباقين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدهم اعتدادا بانفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزنوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين . وبمقتضي معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت اسبانيا عقد « الأزينتو »، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٫٨٠٠ عبد ، من فرنسا الى انجلترة . ومن بين ٧٤٫٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٫٠٠٠ ، والهولنديون ٤٫٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٫٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٫٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٫٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على اقل تقدير ، حملوا اكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزنوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الآبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة .. للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاء مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الأخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشترى كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته اقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافىء لسلطانهم الاقتصادى ، يشترون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٫٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسي العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر — حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء — وان كانت سيئة الادارة — للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيهم ؛ وهناك جمعيات — تسمى « أندية الصندوق » — للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترة مثلا رائعا — هو الأول فى التاريخ الحديث — للبر الدولى حين اكتتبت بمائة الف جنيه للبرتغال ، حليفتها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ — ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة . وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلىء البدن ، أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الاطفال الذين يلقون فى العراء او تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم او اسم أب يطلق عليهم ، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس بانشاء مستشفى للقطاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنه « المسيا » التى عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلاته موسيقية غلت عشرة آلاف جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة فسيحة من المبانى والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ — الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترة فى القرن الثامن عشر سلالة صلبة تمرست بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صعب عسير الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريفين اقتتلا بغير سلاح حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح مميتة ؛ وأن جنديا استاذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مثخن بالجراح امام الضابط نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بانه جلد ٢٦٫٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ، ثم جلد أربعة آلاف اخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وأفاق منها وهو مبتهج ، وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علناً مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب ٠ مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضي على المرأة التى تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) ٠ أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا ٠ وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير ٠ وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت ٠ على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم باعدامه ، واذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته ٠

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبى الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغانى الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكبث فى « أوبرا الشحاذ » ٠ وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات ٠ فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيربن ، وجوناثان وايلد ـ هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة ٠ أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قربها كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه ٠ وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالربح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته ٠ أما تيربن فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيربن الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك ٠ كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون ٠ ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بان يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليلات ويعيش فى ترف قرابة خمسة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبث بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مئات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن اكثرها فى « حقل الاربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر أن كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، واغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة انها تشجع على التادب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبارز الا فى الاصابات المميتة ، واذا استطاع الخصم الحى أن يثبت انه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى اكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والأوبرات ، وهناك يلتقون باشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسي (ان جاز لنا أن نسميه كذلك) لأكثر من مائة الف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى واشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، اشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى يأتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٫٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢٫٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتور جونسن فى رجل برح الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على راى كوك الذى ذهب الى أن « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان اى ملك ، ولعـــله كان يثنى على « الهابياس كوربس » ، ومحاكمـة المتهمـين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالأمر الهين حقا ان يحرم اعتقال اى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، او سجنه دون محاكمة ، او عقابه دون ادانة من محلفين من نظـــرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وان يكون فى استطاعته ان يجتمع مع زملائه شريطة الا يخل بالنظام ، وان من حقه ان يقول ما يشاء ، الا ان يكون ذلك تحريضا ، او قذفا ، او فحشا ، او تجديفا . ولكن مشرعى انجلترة كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار امام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن ان تستانف قراراتهم امام قضاة يقضون فى وستمنستر او يسافرون ستة اشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاه يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصرت على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، او الفصل فى صحة الزيجات ، او تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يراسها قاضي القضـــاة . اما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة امام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد اعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكمت دوقـــة كنجـــزتن امام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وادينت بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، اطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحـــاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن أشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بان يوكل محاميا اذا كان ميسور الحـــال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفـــع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ، وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقـوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدع الأنوف أو يصلم الآذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديدو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عـربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الأجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهـــره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحـــديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمـــان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت . ففى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وحرق الممتلكات عمدا ، وهتك العـــرض ، واللواط ، والقرصـــنة ، والتهريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من اربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتهـــا ، واطلاق النـــار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشـتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الارانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات ـ هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى ايام جورج الاول والثانى والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة ـ والسبب ـ لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليـــوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، او تحـــديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا باقل من المبلغ الذى يجعـــل السرقة جناية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفـــو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

اما عقاب الجرائم الاقل خطرا فكان السجن ، او المشهرة ، او الجلد ، أو الاشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضي قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهـــم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » واسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهـــاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حينا . وقدر احد هؤلاء المتعهدين بانه يخسر سبع شحنته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لان السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجين الجديد يكبـــل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . أما فراشه فمن القش . وأما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استثنينا سجن نيوجيت ، وجدنا أنه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الاوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «حمى السجن» ـ وهى فى الغالب التيفوس أو الجدرى . وذهب جونسن الى أن ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » . وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى « الأولد بيلي » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى أفشوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضي بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دائنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته — وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام أفضل ، وبحريات أرحب ، وبالائتناس بزوجته ، لا بل بقضاء أجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضآلة جرايته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونسن أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلتره وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونسن ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تسوية السرقة بالقتل ... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت أقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الأنبل لجون بول . ففى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلتره انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد اقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على راسها - للتحقيق فى احوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلتره لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون ان ينتظر مجىء جون هوارد والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوجلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلتره . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلتره والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . وأصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بوب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوجلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة او فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث او عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنداما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رءوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها ان تبهر الناظر أكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بألوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلت منها دلاية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها باهدابه تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم وبثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها • أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية • واقتضي الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب • على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفا • فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما أحتوت سيفا • وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر • واقتضي الركوب فى الحدائق العامة او خلال الصيد بالكلاب ارتداء ازياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون • وفريق آخر سمى « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلانا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير •

أما النساء فكن اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية • وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خاطفا عن كعوب متلالئة واقدام رشيقة • وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع أحفز لخيال الشعراء • وضاع بعض ما لشعر المراة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق راسها علوا اقتضي حمايتها من أن تحرقها الثريات • واخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريرى المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح باى تردد من جانب الذكور المحدقين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرح على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء — أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج — ابتداء من هذا القانون وبعده — اى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور او الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضي القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهن باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضي على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه — أكثرها احجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه ان يخلع كل ملبس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه اى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفضه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باعتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل اسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرابزينات المتينة ، والمدفات من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشي بالشعر ، وتنجد بالجلد . اما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » النقيل ، تنشابك فيه النقوش ويتلالا بالتغشية بالذهب . وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحدّ ، وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الاثاث فى البيوت الانجليزبة .

وكانت البيوت ندفا بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان . واصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهددها دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولندبين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦ بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعننى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح . وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة . وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس بستحمون بالوقوف فى حوض ورش الماء على اجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة . والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الاغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدءون عندها الشراب والتدخين وشرب الانخاب وقص الحكايات . وكان الغداء وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعـــام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ؛ والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختـــام لمنجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بامان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشـــطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عـن الكتب فكل ما أعرف من كتب هـم الرجـــال والورق (٨٨) » . وكان الأساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من اتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندر أن مضى يوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق أدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وفق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك نسناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربى الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترة من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية ـ لا سيما فرساى ـ ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة او نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لهـا الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هـــذه الألفـــاظ الثـــلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسياجات المقلمـــة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج تصمم على هذا النحو ، ونستطيع أن نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الأوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما اديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بادب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الاقل جزءا من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التاثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين اكثر من اديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباس كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم . وكان تشارلز بردجمان قد بداها على تصميم نظامى ، فاعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فاصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلتره وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية او القطا او الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن او الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة ـ بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايير معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون ـ الى عام ١٧٤٣ ـ بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم ادخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى انها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول . وكان من الملاهى التى اعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ ـ ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت احب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة اخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى احد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن ان يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا او يشاركوا فى الحفلات التنكرية ، ويجلسوا تحت اغصان مضاءة بالمصابيح ، أو يرشفوا الشاى ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتمسوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى اسمى فى وسط قوم من طبقة اوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان ابوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والأكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . واخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرء

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

اما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا أساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوقة) ذكرى سوقهم ببذاءتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات اقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وانخابهم . ولم تكن السيدات انفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحة .

اما فى مشارب القهوة والاندية فاللغة اكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقصاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون بيباتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للاصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الاخلاقيين امثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة اخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبان يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق او السعوط ، الذى ورد ذكره اول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يطهر المسالك الانفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويهدىء الاعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امراة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقة

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينـــا ، ورسام المنمنمات ، أرق ما جاد به فنهم ٠

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت منتديات للسمر ٠ فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وادارتها عـلى زبائنها ، ووفرت الاقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها ٠ وتطورت بعض مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هـذه الفترة الى اندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمناى عن عيون الرقباء ٠ وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الاندية مماثلا لما كان عليه عدد مشارب القهوة فى بدايته ٠ ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار) بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » ـ نظم بلندن فى ١٧١٧ ٠ وشجعت الاندية الشرب والقمار والدس السـياسي ، ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث ٠ أما النصف الآخر من هذا الفن فكان مفقودا ، لان الأندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد الأدب الأرفع والفكاهة الارق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما هناك ٠ فلقد كانت انجلتره بلد الرجال ، اما النساء فلم يكن لهن فى حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلمـــا حاولت الليدى مارى مونتاجيو ان تقيم صالونا نظر القوم اليها كانها مخلوق غريب الأطوار لا يعرف اين مكانه (٩٥) ٠

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا أن يستخدمن مهاراتهن فى الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن٠ وكانت نهاية الاسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم ان ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت ان يغامر بالمرور وسط الاتباع ، والسقاة ، والخـــدم ، والقهرمانات ، والبـــوابين ، والخادمات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين عند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيـــل خارجا فى عبوس وتجهم ٠ وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمـــردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر افضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادمات حلى سيداتهن أو ملابسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه الميـــاه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . اما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للألعاب، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشسترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحـــر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهـــر منتجعـــات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صـــيادى الســـمك المتواضعة .

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وســـط أرقى البريطانيين من ذوى الأسقام ، يشرب الرواد ـ ويســتحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخمـــوا بالغـــذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضـــخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . واعاد جون وود وابنه بنـــاء المدينـــة بالطـــراز الكلاسيكى كما سنرى . وفى ١٧٠٥ ، اصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر الســـيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى ان يجعل المبارزات ـ فى باث ـ عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بان يلبسوا الأحذية المكشـــوفة بدلا من الطويلة . وكان دو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهباء ، ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شـــان الطـــرق والمبانى ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار ابتكر العاب حظ جديدة تتفادى القوانين . وأخيرا وفد على باث جورج الثانى ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينـا بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن ايرل تشسترفيلد الذى كان يعشق المدينة كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البـلاطات بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع انك ستلتقى فيها بارتباطات دون صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونبالة دون فضيلة ، ومظاهر تنقـّـذ وحقائق تضحىّ ؛ آداب حسنة مشفوعة باخلاق سـيئة ، وكل الرذائل والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ ـ تشسترفيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرهف الحس . فقد تمثلت فيه خصائص ارستقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا . ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات طبقته ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرهف مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب ستانهوب ، ايرل تشسترفيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة جورج سافيل ، مركيز هاليفاكس ، المساير الماكـر للعهـــود الملكيـــة السابقة . ماتت امه فى طفولته ، واهمـــله ابوه ، فكفلتـــه مركيزة هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معـلم خاص ، فاصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجهما جزءا من عقله . وانفق سنة فى كمبردج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى لاهاى قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عينات من النساء تجربة

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيى فى الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالنى الناس واحدا منهم ، وقد حيانى العديدون منهم بأسمى تحيـــة يمكن ـ فى اعتقادهم ـ أن يحيوا بها انسانا ، وهى : « سيدى ، انك على شاكلتنا تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، عالى الصـــوت ، آمر ناه ، اغنى وأرقص اثناء سيرى ، وأهم من هذا كله أننى انفق مبلغا باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلتره عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى اصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهوب ، الوزير الاثير لدى جورج الأول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ، فظل احد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الاحرار فى مجلس العموم. فلما أصبح ايرل تشسترفيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيمـــا بعد انه « مجلس ذوى الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاى سفيرا (١٧٢٨) قام بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا اكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ انجبت له خليلة تدعى الآنسة بوشيه ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الأول غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تاتيـــه بمهر ملكى ، ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبيذ . وقد عاون على هزيمة القانون ، وما لبث ان طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافـح ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما قفل الى انجلتره واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصـحيفة جـــديدة تدعى « انجلتره القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين الف جنيه . وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الاحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاى ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلترة فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ارلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضاها فى ارلندة انجح سنى حياته . فقد انشا المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة ويلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له انهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلترة من اسكتلنده ، وتوقعت انجلترة ثورة فى ارلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشسترفيلد .

ورد الى انجلترة وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرقة واللباقة اقترف غلطة مدمرة . ذلك أنه تودد الى خليلة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفأ كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلط عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، أن أجعلك اكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط تعليم فليب ، لا ليجعله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتأ يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الأنيق من النـــوع الانسانى • وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينـه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تأدب مقيّد أو مزعج دائمـا •• فالرجـــل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص عـلى الا تكون تحياته مزعجة • وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم • وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب • وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » •

وعليه فحين بلغ فليب الرابعـة عشرة أرســله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنهى فضائله أيضا • وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحـياة أن أراد ان ينفع حكومته • والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنـون الأدب عن طـــريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل - الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون - من الكتب الى البشر • قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم ••• فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتيوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » •

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووســائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هـــذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حـذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موســيقيا (١٠٢) • وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوربية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينهـــا ودساتيرها ، مالياتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروبير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، في السياسة على الاقل ، ان انت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسيء الظن باى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهواءنا هى خليلاتنا ، اما العقل فهو الحليلة على أحسن تقدير ، يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يعبأ به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى احكم الحكماء واقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك ارهف واحوط . وادرس انساب اهم الأسر ، لأن البشر اكثر افتخارا بانسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) . وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتأثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن أزواجهم .

اما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والنضج . واكتفى بالاصرار على ان تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن يأتمن معه . وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه الا يقبل اى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« اكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون باسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق انك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك .. فاذا لم تلق منها اذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، ان فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم افضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سافضي اليك ببعض الأسرار التى سيفيدك جدا ان تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص اشد الحرص على اخفائها وعلى الا تبدو

ملما بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا اطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة .. والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلاطفهن ، ويتملقهن .. ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الامور ولا يأتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بأنه يفعل الاثنين، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) .. وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراهة ، ويقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يتلمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح انهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضفين عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الأيرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحمق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا علـى الاقل كيف نقعد ، او نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة ٠ واذ كان الايرل أرستقراطيا ، فقد سمى السلوك المهـذب « تربيـة طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب علـى انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات ٠ « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم ادنى منه دون صلف ، والى من هم اعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة ٠

« لا تستطيع ان تحسب ، وانا واثق انك لا تحسب ، انك ارقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، او الخـادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك ان تغتبط ، وبحق ، لما حبـاك به الحظ دون غيرك ٠ فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئـك الذين قضي القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيـان دون موجب بأى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان ٠ واقول لك عن نفسي اننى اشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحـو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى اوجده الحظ بيننا ، ربمـا دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » ٠

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتأثر بعشرائنا ٠

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحة من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر ٠ اما عن نفسي فلقـد ألفت أن أرانى وأنا جالس الى (الكاتب) اديسـون او (الشاعر) بوب فى صحبة اشخاص يعلون عنى علو جميع ملوك اوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » ٠

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ ، فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ... وان شئت أن تقنع غيرك فليبدُ عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك كما تودع ساعتك جيبا خاصا فلا تبرزه .. لمجرد الاعلان عن نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك ما استطعت (١١٥) .

« وامسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب الثقافة والحكمة ، ولو ذممته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك أن تقرأ تواريخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك انك توافق على تلك الأفكار الأباحية التى تهاجم الأديان على السواء ، أو انك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة . وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ، لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه، فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من ضمان واحد . لذلك فاينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن يسخرون بالدين كله اعلانا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدعْ كلمة أو نظرة تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا فلتفصح رزانتك الصامتة عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين اول مراحل الثورة الاجتماعية ، « اتنبأ انه قبل ان ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان احوال فرنسا .. .. تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر ... والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الامور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الاعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن اخلاقياته . اما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الادباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . ورأوه يقامر مقامرة المستهترين أو الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بانها تغرس فى النفس « اخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من احكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى اخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتادب ، وعلينا أن نتذكر انه كان يهيىء ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير ان الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما اخبرتك فى رسائلى الماضية (وهو حق بكل تاكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) » . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتن عن الفوضي الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فان نتائج تلك الرذيلة انما هى فقدان المرء انفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السـلاح تصيبه فى حالات غير قليلة(١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، واذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادىء الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما امتدح سياسيى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قـوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفـكر الذى يثقله . وقد آثر الألفاظ الانجلو - سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربيـة (١٢٤) » . ووصفها سانت - بوف بانها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحـه البليـدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هـذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأى رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أرطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كمـا قال له أبوه المغلوب على أمـره

« تلك القوة التى تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتألق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الأيرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الأبوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى ساحبك حبا جما ما دمت تستاهله ، ولكن لن احبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشسترفيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠).

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد ان اقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على ارجلى الثلاث ، ولكن يعزينى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وسأختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بأن « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بان الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) اجلب للذة من الآذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وانها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى.

الفصل الثالث

الحكام

١ ـ جورج الأول : ١٧١٤ ـ ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيتبين ذلك عما قليل فولتير ومونتسيكو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه فى ألمانيا ، ملكا يقضي الأجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى ألمانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك ـ لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ ـ ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف او الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الأول ، ارنست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترة . وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناءة هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك ان زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، واغلب الظن انه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وابطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن . وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترة .

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارنبده باسم جورج الأول • وفى سبتمبر وصل الى انجلتره ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى • وجلب معه ابنه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمـــان ، وخليلتين ، شارلوت فون كيلمانريجى ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجتن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيســة كندال ، وربما تزوجها • ولعل انجلترة كانت متقبلة هـــذا الترتيب باعتباره متفقا واخلافيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تبيع نفــوذها بأثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الفساد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاضي هو نفسه اتعابا لقـــاء توصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارع الطويل عسكرى السمت ، « رجلا بسيطا فظا » • لا يكترث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد اثبت بسالته فى اكثر من ساحة قتال • وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل ابله أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بانه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو انهم تركوه يفعل ذلك (٣) » • وما كان احد يتوقـــع ان هذا الرجـــل سيشعر بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب • فلقد استاجرته اولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة اخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هيمنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو ايضا ؛ ولم يستطع أن يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية • واعتقـــد انهم ادنى من عشرائه الهانوفريين • فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهـرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهـــد ليوجـــه الأموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة •

وضاعف من محنته كره ابنه له لأنه اعتبره قاتلا • ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتشاجر مع وزراء الملك ، وأفصح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على اقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكى عن أبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشسترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومه مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبى التورى (المحافظين) والهويجز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والقضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون ». وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات — وهم لم يتجاوزوا ١٦٠٫٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) — وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزكيه المالك الرئيسي للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تاييدهم اما للنبلاء أصحاب الالقاب ، واما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية» فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الاحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الاحرار ، وهكذا أرسي نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رآسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن اول قوانينه واكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره ـ الذى اتهمه المحافظون من قبل ـ لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش . وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهيم ، وهناك عانى آلام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الأمة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحـــكم الذى اصدره عليه بولنبروك ـ « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له اخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملتـــه ، وهى ســـارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد انفقت اثنتين وعشرين سنة تقدس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها اجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك ان تطرح ملك الدنيا باسرها تحت قدمى ، لما استطعت ابدا أن تقتسم قلبا ويدا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين اعادت قراءتها شعرت « باننى لم استطع ان أحرقها » ، فتركتها لتعيش (٩) . ولابد انه كان هناك خير كثير فى امراة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امراة عصية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك انه بعد ان طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الأسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لازدرائه اللاهوت المسيحى ـ بعد هذا كله فر الى فرنســـا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، واصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترة ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليــه بالاعدام .

وأوشكت حركة رد الاستيوارتيين ان تطيح بعرش جورج الأول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحـلاف غاصبون ؛ وعامة الناس فى انجلترة ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقـون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بأنها أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحـاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى ـ كل اولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشـاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على انجلترة .

وكان جميس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وأن عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد ربى فى فرنسا ، واشربه المذهب الكاثوليكى معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته فى انجلتره اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخيين (أتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجـل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بانه يؤثر أن يكون كاثوليكيا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البرىء من الايمان والمبادىء ، فقد حكم على جيمس بانه أصلح للرهبنـة منـه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه مكافاة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطىء تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الأحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك ان جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشـئون اسكتلنده فى السنوات الأخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى انجلترة ، ثم أبحر الى اسكتلندة واستنفر الاسكتلنديين لينضووا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجـل وستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الأعدام عقابا للخيانة

والمصادرة الملكية لجميع العصاة . وعبأت ثلاثة عشر الف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم امرت دوق آرجيل قائد حاميتى ادنبره وستيرلنج بان يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عند شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع اى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية اخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير وتحمى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوقها جيش حكومى واكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الاحداث قبل أن يقلع من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد انذره بان ثورة استيوارتية لن تنشب فى انجلترة . ولكن المطالب بالعرش دفعته للمضي فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠٫٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين الفا من الفاتيكان . فلما رسا على ارض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحفل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتئابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يضف شيئا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبتسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . اضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملاريا ، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فامرهم بالتقهقر الى مونتروز ، ويحرق جميع المدن والقرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل آرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر اولئك الذين تضررت املاكهم . فلما اقترب جيش آرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وابحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، واعدم سبعة وخمسون ، وتقرر اعدام اثنى عشر نبيلا اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، اذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الأمل فى ان يرسل فليب اورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترة ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا ٠ ومن ثم أقام حينا فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما ٠

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة ٠ وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشترى أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » ٠ واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترة ، فانه اتصل اتصالا كاد يكون شريفا بمارى ديشان دمارسيى ، وهى مركيزة فيليت الأرملة ٠ وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين٠ وكانت ككثيرات جدا من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبه اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس ٠ وهناك زاره فولتير كما سبق القول (١٧٢١) ٠ قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » ٠

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برءوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا ٠ وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بألا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين ٠ ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين للاستيوارتيين ٠ وتفاديا لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين ٠ قال ألمع حفدة ملبره « كان هذا أجرا وأكمل تأكيد لسيادة البرلمان عرفته انجلترة الى ذلك الحين (١٣) » ٠ وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضا من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلا أن الهانوفريين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكوا ٠

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا انهى التاييد الفرنسي لمطالب أسرة ستيوارت ، والتاييد الانجليزى لاسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الاول ان يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ ارسلت اليه زوجته التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدته ان يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله . وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبا بان جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . ففى ١٧٢٧ بدات صحة الملك تتدهور . وفى يونيو غادر انجلترة ليزور بلده الحبيب هانوفر . وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة تركتها له زوجته وهى فى النزع . فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا شديدا ، وما لبث أن قضي نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ - جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى اصدرته العناية الالهية وامهلت تنفيذه امهالا غير معقول . وحين قدم رئيس اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم أمرها لانها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترة ، وزعم آخرون انها تركت لحفيده فردريك لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التاريخ يجهل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، ففى الخامسة والعشرين أبلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) ؛ وفى الستين سيقود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) . وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصيح غاضبا ، ويغدق على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدى الغباء » و « المهرجين(١٦) » ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التى فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول فى جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام فى ربوعه . وكان كابيه كثير التردد على هانوفر ، الأمر الذى أبهج كل من يعنيهم الأمر . ثم تشاجر كابيه مع أمير ويلز (ولى العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابيه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصرى ، ولكنه على عكس ابيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - آنزباخ ، قد نشأت فى بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستنت، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الرومانى المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما جميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفية مخلصة له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف فى معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراما كفى لتركها تحكم انجلترة (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد التى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، ، وبعض لطائف فى السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها أن تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى فى وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدءوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وادركوا آخر الأمر أى تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة صالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترة فى دهشة أن هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدرى . وانتشلت ابنة لملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طوال نزوات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . وأيدت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين فى الخلود(٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء(٢٣) . قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى .. انها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسي الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، ساتخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ار قط امراة تستحق ان تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ ـ روبرت ولبـــول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترة عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولىّ » أو القديس ، ولعله كان افسد وزير عرفته انجلترة فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففى ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد ٠

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء فى أسرة نورفوكية عريقة ، وفى اينن التى زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته ٠ ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء فى التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة ٠ وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا فى حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية ٠ وفى ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به فى برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبلدا فى الأنوف ثم يلبث أن افرج عنه ، واعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥)٠ وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة فى ١٧١٧ ٠ وفى ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترة الى حالة الاستقرار المالى ٠ فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترة ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٧ جنيه (٢٧) ٠ وكافأ المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة ٠

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة ٠ ذلك أن الملك الجديد كان قد اقسم ليكونن خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة ٠ ولكن سرعان ما أظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به ٠ فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حجتها بوعده الملك والملكة براتب أكبر ٠ وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه ٠ وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى ألفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روءساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تانق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنــه هوراس أن فيه قصورا لانه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظلمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبــول لم يعــرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جــون بول ، اللهــم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكد ويكدح اذا دعاه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه آثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

أما الاخلاق فلم يكد يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم ان تطلبوه باسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضي هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكترث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجــد المناصــب السياسية المجــزية لولده هوراس وغيره من ذوى قربــاه . وانفــق

٢٠٠ر٠٠٠جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠ر٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشترى اعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش ، وهنرى الرابع ليسكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الحجج الأكثر لينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحيم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والأصوات ومحررى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠ر٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتالف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشرّ نائما . واذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بانه لم يكن محبا للثار ولا حقودا ، وانه كان أجدر بالثقة ، لا بل اكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا(٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجلترا فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الأعيان ملاك الأرض وطبقة

رجال الاعمال . فحاول ان يخفض الضرائب على الارض ، وايد العقوبات الصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب فى الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض فى القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة فى المدن ؛ والظاهر انه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . واذا استثنينا تلك المنح والرسوم فانه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سمث بزمن طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير فى سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الامريكية ، وكان رايه أن الاقتصاد الانجليزى يزكو فى ظل اقل القليل من التشريع الحكومى . وقد برر الزمن رأيه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت ايرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة انجبته البلاد (٣٤) » .

على ان مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بافدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربى التبغ والنبيذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات باكثر من نصيبها فى الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهى شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت او بيعت فى انجلترة . وخول لموظفى الضرائب (« رجال الانتاج ») ان يفتشوا اى بيت فى اى وقت ، وكان الاشخاص الذين يتضح انهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة او السجن . وهب الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ او النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما او استهلاكهما . وندد خصوم ولبول فى مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد اخبر أعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون ياسا فى أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الاكبر - أو لعلهم املوا أن يحلوا محله فى الاشراف على

المال العام • وراجت النشرات من آلاف النسخ تسب الوزير بلغـة سوقية مفعمة بالحماسة • وتقاطرت الحشود حول وستمنستر هول ، وأحرقوا دمى تصور ولبول فى عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الامة الى شفا الثورة • وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الأسرة المالكة الجديدة • وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هـذه اللحظة أضمحل سلطانه • وتكتل خصومه ليجهزوا عليه •

٤ ـ بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين • فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليـل تنتشي بمغامرة « الامير الجميل الشاب تشارلى Bonnie Prince Charlie " و « شلة » اخـرى راحت ترقص حـول فردريك لويس ، امير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه • وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير ـ سويفت ، وبوب ، وفيلدنج ، وآربتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضـحوا أخـلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن • اما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه اصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء واثاروا ثائرة البرلمان فى عزمهـم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة • وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبت الصاعد ، باصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هوادة بقلمه القتال •

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترة واستعادة أملاكه ، ولكنه ابعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه • على أن هذا لم ينتقص من سلطانه • ففى بيته بلنـدن التقت صفوة انجلترة ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه • هناك ، وفى بيته الريفى ، راح يتراشق بالسخريات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

بوب ، وبالأغانى الشعبية مع جاى ؛ وهناك ناضـــل ليوحـــد بين المحافظين الجياع وبين الأحرار الذين لم يظفروا بما يشـــبعهم من الرتما ، فى معارضة متكتلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة ـ سميت أولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم «الفنان» ـ راحت تكيل اللطمات ، اسبوعا بعد اسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو اراد أن يصنعه. وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسي شـهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ ـ ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » ـ الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن اعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قراتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان ادبه الجم (وهـــو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشـــيئته او عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضـة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك اســـتقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراســة التـــاريخ وفائدته » (الذى الفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بأنه معمل هائل اجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال ... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التـــاريخ (٣٧) » . وينبغى « ان نعكف عليه بروح فلسفية » والا يقتصر همنا على فهم الاســـباب والآثار والنتائج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قليلا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء .. ولقـــد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بآخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جـــديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتينى وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبنى عوالم جديدة ، ولا ... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترة في ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان المقال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنروبك أن انجلترة قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يقبض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على انها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحريات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليد المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تاثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادىء الأحرار ويتالف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الاحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التى احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتطهر حكومة انجلترة . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الأب والابن . وأوحى بالمحافظة الليبرالية التى دان بها بنيامين دزرايلى ، الذى اشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزى » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذى أرسى باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الأساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) » . لقد كان تاثير بولنبروك ودزرايلى هو الذى صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترة اليوم .

٥ ــ كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التى اتسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى ــ الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادىء مماثلة ــ على الاحتفاظ أطول ما يستطاع بالسلام الذى أرسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء اوراتيو . ولكن احتفاظ انجلترة بجبل طارق ، وتنافس انجلترة وأسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضي الزمن . وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك أسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترة ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضي هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترة الى الحرب ، فهى تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » ذلك الامتياز الذى منحته اسبانيا لانجلترة ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الأسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجـارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدير الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه فى أحد هذه التفاتيش (١٧٣١) فقد احدى أذنيـه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليـا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجـارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجـــار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . وأثارت ثائرة الشـــعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الأمر يشاد بهم وطنيين بواسل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه فى زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بلتنى ، وبت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترة★ . وفى لحن عسكرى معـارض نددت جماهير الشـــعب الأســبانى بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره أسبانيا نبيلا على جدع انفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقـــولا . فنشر لاكوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطابا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه أخبره سرا بأن أسبانيا ترحب بتســوية النزاع بعـــد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية ـ فى تحد لهذه الصـــورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له أذنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذنى جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى صلم الأذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) .

الجماهيرية الصاخبة ــ اتفاقية الباردو مع اسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩) وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسبانى المعاهدة ، ولكن انجلترة باكملها تقريبا اعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى بمدريد وكيلا للشركة ايضا . يضاف الى هذا أن « الأزينتــو » الذى سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترة بامداد أمريكا الأســبانية بالعبيــد الزنوج انتهى أجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم الغى الامر بعد أن اشتبه خطا فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب، التى أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ اكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترة الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذى كان لا يزال ينعت ولبول بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرع فى انجلترة طولا وعرضا . وكتب الآن جيمس طومسن اغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا » التى اقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ، فعندها تكمم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد ان وزارة ولبول كانت استثناء للقاعدة . فلقد احس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة للجيوش الزاحفة أو للاساطيل التى تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارتة تبعة الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان احد أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ اقترح صموئيل ســانديز عــلى البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه لم يهزم الا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وافسح له فى الوزارة عاما آخر ، غير انه ادرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب أبنه يقول « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة ٠٠ لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذى كان على المائدة ينسي دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) » • وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشان ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال • واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب ايرل اكسفورد ، وبوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات ، وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه •

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم • وودعت انجلترة السلام ، وانطلقت لتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » •

٦ ــ ارلنده : ١٧١٤ ــ ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر • فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شّرعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا • فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيهم معاملة العبيد • يقول تشسترفيلد « ان الفقراء فى ارلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » • ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى ارلنده أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » • وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترة ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستاجرون الارلنديون (٥٣) • أما المستاجرون ــ الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمقتونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم ــ فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الاحايين ، وذهب سويفت الى أن « المستأجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما المـلاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعيذون على همجية بيئتهم وعدائها بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمبارزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطانى مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق أى صناعة تنافس انجلترة . وقد رأينا فى غير هذا الموضع كيف قضى قانون صدر فى ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى اى بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت الصادرات الارلنـدية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترة(٥٥)، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترة، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترة لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر او الضان او الخنزير ، حتى الزبد او الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمسـتعمرات الانجليزية ، فاشترط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربيـــة للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترة ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويفت « ان مزايا الموانىء والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة، ليست اكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنزانة (٥٦)».

وأرهقت القوانين التى شرعتهـــا انجلترة لرعاياها الارلنـــديين البروتستنت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضـموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا فى العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز باصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المألوف ، فقد منحت دوقة كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٫٠٠٠ جنيه ؛ ولكى يجمع وليم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ٨٠٠ر١٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها • ولما كانت حملة عملة ارلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٠٠٠ر٤٠٠ جنيه ، فقد احتج الارلنديون بانه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيهـا ايجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى ارلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة • ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٠٠٠ر٤٠ جنيه وقدمت تقريرا من اسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها افضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهود السابقة •

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويفت ، الناظر الانجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م• ب• درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روحه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لانها محاولة لغش الشعب الارلندى • وزعم أن العملة التى أرسلت الى نيوتن لاختبارها سكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من انصاف بنسات وود تساوى اقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بان قدروا أن ارلنده ستخسر ٤٨٠ر٦٠ جنيهـا بالاصـدار الذى اقترح اولا (٥٧) • وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوى للحكم الانجليزى كله فى ارلنده ، ووضع هذا المبدأ « ان كل حكم بغير رضى المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » • واستجاب الارلنديون ، بما فيهم اغلبية البروتستنت لهذه النغمة الجريئة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع اغانى شعبية تحض على مقاومة انجلترة • ووجدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر امام قلم واحد ، وهى التى تحدت شعبا باكمله قرونا طوالا • وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب ، ولكن احدا لم يجرؤ على اتخاذ اجراء ضد الناظر العابس وان عرفه المئات منهم • كذلك لم يجرؤ أى ارلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة • وسلم ولبول بالهزيمة ، والغى الاصدار ، وعوض

وود بمبلغ ٢٤٫٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى انفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت ٠

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنيان السياسة الارلندية ٠ ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستنت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترة ٠ وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده ٠ فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترة ، كقانون هابياس كوربس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلندة ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترة ، فلم يكن لها وجود فى ارلندة ٠ ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبيهما واعضائهما ٠ وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الاساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى ٠

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك٠ واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسطا من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة ٠ ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) ٠ وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة ٠ وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستنت ٠ ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستنتية (٦١) ٠ وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة واقسم يمين التخلى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت ٠ اما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن ٠ ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلندة ١٫٤٤٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ارلندة .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا او أمريكا اكثر الكاثوليك كفاية وجرأة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاغنام ، انتقاما كاثوليكيا - على ما يبدو - من الملاك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندة والمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكانى فى ارلندة علماء أفذاذ (كالأسقف آشر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من اشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضوى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٫٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار — « فالشيوخ والمرضي يموتون وينتنون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » — على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسي الذى أصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ — ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . ففى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٫٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٫٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما سلبته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢٫٣٧٠٫٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم سلاح الغزاة وجشعهم .

٧ — اسكتلندة : ١٧١٤ — ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا أشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترة . وكان اهل سهولها سلالة أنجلو — سكسونية ، ينتمون اساسا الى الأصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت،

في قبضة أهلها الشديدى المراس . وأما دينها ، شانه شان الانجليكانية ، فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتى ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعـــد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان فى انتخاب البرلمان الذى أصبح الآن يسمى البرلمان البريطانى (أى الانجليزى ـ الويلزى ـ الاسكتلندى) ، وأذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية فى اسكتلندة أن تنشىء مدرسة لأطفالها ، ووفرت اربع جامعات بها افضل ما وجد فى الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هـــذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى» دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية ـ أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضي تحقيقه الكفـــاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكله . فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتبــاعه المقطعين ، والأرض تفلحهــا طبقــة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليــم . ولكن الاتحاد السياسي مع انجلترة اخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئــة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفــوذ الأرض ؛ فتبنـــوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصــحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدّون الزعامة القومية التى احتكرها الأرجيليون ، والأثوليون ، والهاملتونيون ، والماربون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات الســلطة الاقطاعيـــة الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اســكتلندة الاقتصـــادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحــــاد المستعمرات الانجليزية للتجــارة الاســـكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجــــار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيـــات ، وزاد السكان من ٠٠٠ر٠٠٠ر١ فى ١٧٠٠ الى ٠٠ ر٦٥٢ر١ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين الفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول ٠

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب ٠ ففى كل أحد يمشي الناس ـ احيـــانا ميلين او ثلاثة ـ ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطـــلا صارما ، ويســـتمعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأهوال الجحيم ٠ وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية ٠ وقدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة ّمرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلندة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته ٠ وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والســحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة ٠ وأدان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح ٠ واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان أخذت أحكام الاعدام بسببها تقل ٠ ففى ١٧٢٧ أدينت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرّت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥)٠ فلما الغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب الســحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) ٠

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات ٠ فوفـد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة ـ من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى ســبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكيبة من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج ـ كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشسن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ ـ ٤٦) ، نحّى الجدل الدجماطيقى ، وأرسي علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الاريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء ـ وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم ألوهيته ، لم يكن معادلا لله الآب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكوّنت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية ـ مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » ـ تبشر بالالحاد فى تفاخر ؛ ولعلهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة ـ اذا استثنينا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى ـ كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ ـ الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترة أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح ـ اللذان ربما ارتدا الى مارى ملكة الاسكتلنديين ـ مفخرة ومشكلة لأبويه . واطلقت انجلترة على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهذبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفاتن الشباب

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارع طوله ستة اقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق – وقال الدوق ان هذا « على الجملة اكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس احيانا . وفى ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب فى الجيش الأسبانى فى جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على احر من الجمر للاستيلاء على انجلترة . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطانى ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى افضي الى حرب الوراثة النمساوية . وارسلت انجلترة جيشها الرئيسي الى القارة ، فاى وقت انسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزى ؟ ومن ثم كونوا فى سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التى التزمت بتلك المغامرة ، واوفدوا المبعوثين الى انجلترة ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وارسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وامر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية واحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع فى برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل تحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى انجلترة . وانتظر الأمير تشارلز فى ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما فى ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتى ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى آنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . اما ابوه المسن فظل فى روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وامده بمعونة مالية معتدلة . فمضي الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافد الاوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذى انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافد .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترة كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضى حين وصل نبأ بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، واصيب الباقى بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبأ المثبط وصل فرنسا نبأ بأن الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل فى معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . واخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترة ، التى لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ فى باريس متنكرا ، واقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترة ولو اضطر الى الذهاب وحيدا فى زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع « الذى قد ينتهى بدماره ودمار كل من يشاركونك فيه (٧٠) » . وفى أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهدنى فى الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

واخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر ان « يجرب حظه » و « يغزو أو يموت » وارسل عملاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون فى منعه من المجىء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثانى ، محتذين فى ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتى تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو فى الاخرى شمالا الى غربى انجلترة ، وفى ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، فى جزر الهبريد الخارجة . ونصحه زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « اننى فى وطنى » . وأنذر بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه لمن يأتى به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى اقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ اغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل انصار اسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم اتباع له ليشوا به ، واعلن ستة اشراف انضمامهم اليه ، وكان الف ومائتان من بين رجاله الالفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون . وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل ادنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والاول امه . وكان مظهر الامير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا ياخذ بالالباب فى بزة اهل المرتفعات ، بسراويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء . وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا ان مجد امتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلّت كل النساء من اجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نمى اليه نبأ اقتراب كوب من ادنبره فى الفين من جنوده . وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، واسر اسري كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدا انه قد ظفر باسكتلنده .

وامر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر اخرى اليه . وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الامير السعيد الحدود راجلا الى انجلتره على رأس ٥٠٠ر٤ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثيا الى داربى ، آملا بتقدمه المثير ان يحمل انجلتره على استقباله ملكا شرعيا لها . واذاع منشورا تعهد فيه بانه لن يصيب الانجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكى الرومانى ، اذى اكثر مما اصابهم على يد جورج الاول اللوثرى (٧٢) . غير ان انجلترة لم تصدقه ، وكرهت ان تعاود من جديد ذلك الصراع المضنى الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن أحدا فى انجلترة لم يكد يهب ليقاوم تشارلز ، فان حفنة من الجند الانجليز فقط هى التى خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائدا من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بآلافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيدا من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذعن تشارلز ، وقاد التقهقر الأليم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلنده ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزا من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٫٨٠٠ مقاتل شمالا مخترقا مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » • وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده • ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد ان فارقه المجد • وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا اقله لفرنسا •

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تأخذه بهم رحمة » • فكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا • وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم • وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل(٧٤) • وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئيلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » • والحق أن العشائر المتمردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد التمرد • وظل دعاة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما •

ذلك معاهدة اكس — لا — شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترة وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية • ولكنه رفض الرحيل ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول ان ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وان يعد بالتخلى عن المذهب الكاثوليكى (٧٦) • وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردّى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له • ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين • وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجوالة بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ ـ صعود وليم بت : ١٧٠٨ ـ ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترة الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضي سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولمنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ ـ ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترة مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ ـ ٥٤) انجلترة الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدّد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترة ، ضمّنها ـ لدواعى الموازنة ـ جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى مأثرة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ر١ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المـــال ما مكنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين الفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكنه من بيعها لفليب أورليـــان ، الوصى على عـرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٫٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظه الآن ـ بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٫٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متألقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاســبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . واوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر أبنائه الذى تزوج هاربيت فليبـــه ، التى انجبت له سبعة أطفال ، كان وليم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروص على الطلاب وهو فى ايتن ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه .. وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاناته من النقرس وهو فى الثامنة عشرة . واذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفأ ، فانه ترك الجامعة دون ان يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حمـــله طـــوال انتصاراته .. ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم، رغم نها تركته فى فقر نسبى باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هنـــاك ، لأنه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبــه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، وأخيرا اعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الأهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقدح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماءته ، وكانت كل عاطفة تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكأن الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل أجتنب خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريح التى تدفع فى قلوعه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفســه بانتظامه انجلترة بأسرها ، وأفنى نفسه بجرّه انجلترة ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذ شعر وليم بانه الصـوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حَلْقِى هانوفرى ، أو أى رشـا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخُلُقى ـ وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فان تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف ليُفسِر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلِغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه ـ الذى كان نجاحا لانجلترة ـ القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجـد والفخـار . وكان فى كبريائه شي جليل ؛ فقد كان يحتقـر شراء الترقى بالتذلل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبـانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى ـ فى رأى بت ـ « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترة غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدة حملت دوقة ملبره وهى على فراش الموت سـنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بانه « أكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وامين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، وأذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقـــلده ، فالخازن يأخذ لنفسه نصفا فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وابى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى ان يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهـــدية . وصفقت انجلترة لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، وأصغت فى شوق الى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأمره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترة معاهدة مع بروسيا . وفى مايو ابرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترة وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ ـ الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى اضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى • فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة •

وقد لعبت انجلترة الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هـذا التغيير العظيم • ففى المسرح السياسي سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ ـ ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك• أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) • وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا ـ وبعضها أخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه ـ قبل أن يحضر الى انجلترة ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترة (١٧٢٦ ـ ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مسـتضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله ـ وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا • يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الىّ على أننى مقـلّ فى الدين ، وفى انجلترة على أننى مسرف فيـه (١) » •

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترة فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترة دين (٢) » . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار ، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وسلى يؤسسان الحركة المثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين علية القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه ... قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلتره ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللائى كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس ان الميول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعما قليل سيعرف الدكتور جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » - وبالمعنى الحرفى « اله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الان للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص الفس ادمز . وغلبت الفوارق الطبقية فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخرة ، فاذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) . وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتمسين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الأساقفة الانجليكان أمثال بطلر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الاكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبـــة السياسة شكا"ك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ر٩ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كنتربرى ، وجبسن وشرلوك اسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٠٠ر١٠٠ جنيــه (٧) . ولم يكن ثكرى يطيقهم ، فقال :

« قرات أن الليدى يارموث (خليلة جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٥٠٠٠ر٥ جنيه ... أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثاءب تحت مظلته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية ... بصوت يبلغ من علوه أن القسيس ... انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليــه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية اصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس أرمنيوسي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفــن واعتناق تعليم المهرطق الهولندى ارمينيوس القائل بحرية الأرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقــة هيوم ، كانت تروع انجلترة القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترة بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بامور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكى الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكى عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال أبنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها الا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترة رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكى يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية او العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة اى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكى يجوز فى اى وقت نفيه من انجلترة والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الأول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستنت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزبتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعا فى صمت بمسيح بشرى(١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة(١٤) . وأما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع اصبحوا أكثر تقبلا لأساليب حياة البشر وذنوبهم . على ان ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا ـ حيث يتكاثر المنشقون ـ تواصل « الاحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان • فى ذلك اليوم كانت الاسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائد فوق أرض عطلت من الأبسطة • وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويصلون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجمهورية • ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة • ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة •

ووجد فولتير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترة الكثير مما يصلح درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها • قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ••• هناك يُجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكأنهم من دين واحد ، ولا ينعتون بالكفر غير المفلسين • هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكانى على كلمة الكويكرى • فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر • هذا الرجل يذهب ويعمّد فى حوض هائل باسم الآب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده وبتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمضون الى كنائسهم ـ حيث ينتظرون الوحى وقبعاتهم على رءوسهم ؛ والكل راضون •

« ولو أن انجلترة لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان فقط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما والأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا يعيشون فى سعادة وسلام (١٥) » •

٢ ـ التحـدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسـيحية فى انجلترة : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والالمام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقـدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحـاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و ـ تلخيصا لكثير من هذه العوامل ـ حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمـان بالله والخلود .

وكانت تلك الحـركة قد بـدات بكتـاب « الحقيقة » لهربرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وانتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها باثر متراكم فى اعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك . وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن أستاذا « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصـبه ذاك (١٧١٠) لاعرابه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن اريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، واجهـد نفسـه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشـير الى المسـيح . فلما اقلع المدافعـون عن المسيحية عـن اتخـاذ الحجج من التنبؤات ، وبنـوا الوهيـة المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، اطلق توماس وولستن مورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة احاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ ـ ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراة (١٦) » . وقد زعـم وولسـتن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد أن مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو انه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدريين ؛ انهم كانوا « يستصدرون حكما باعدامه شنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جناية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتاكيدات زعم فيها انه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك اهدى كل حديث الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وقدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقى ، وافرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الأحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيرة لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف انه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ... أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فاجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . ففولى لى من فضلك بم أسأت اليك» ؛ فاجابت المرأة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسي الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصى الذى مات من اجل الخطاة الأشرار أمثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان اهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فأتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطلر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلى « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرا على أقلية من الجنس البشرى . فاى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الآلة الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ — بل جعلهم فى الواقع أشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظلل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحى الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان الممنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « فكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعادته) — له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الأشياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضيلة الحقة ، تلك هى المسيحية الحقة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للايمان السنى ، واصل الممارسات الخارجيسة للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترة « رسائل من رومـا » (١٧٣٩) ، التى بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية ــ البخور ، والماء المقـدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرابين المنـذورة والأنوار القائمـة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأحبار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أحبار روما Pontiff . وصفقت انجلترة البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكى سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقـدس ووحيـه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسـالة الدكتـور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعـين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجـة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من اثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصـالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفـر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا اصدر مدلتن اهم اعماله ، « تحقيـق حر فى القـوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصـور المتعاقبة » (١٧٤٨) ــ وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسـليم بحجيـة المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهدائها بعد القرن الميلادى الأول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتيى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . ففد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطانى » ، او كسماع القديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على اى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلّط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبقها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقين تماما حين زعموا أن حججه من شانها اضعاف كل الأساس الاعجازى للايمان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقياته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الأرستقراطية . ففى كتاباته التى حبسها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب افلاطون بابى الكذب اللاهوتى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » ولبينتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين مثقفين » ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسحر من العهد القديم لأنه خليط من الهراء والأكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما أن نكون غير مؤمنين ... ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى أن نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره بآخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسي ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض والياس . وهجره أصحابه القدامى لانهيار نفوذه السياسي وحدة طبعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فاملى وصية تتسم بالتقوى ، ولكنه رفض أن يسمح لأى قسيس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للبشر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بهـا النفس العصرية .

٣ ـ الدفـع الدينى

اما المدافعون عن المسيحية فلم يقـابلوا الهجـوم الربوبى باى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجـوم بكل ما أوتى تندال أو مدلتن أو بولنبروك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، وأسلوب مقذع . واعتمد المدافعون الأضعف شأنا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى ان اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجىء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا ـ كمـا فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر ـ الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح . وركز شرلوك وغيره على أن الادلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم ألوهية المسيح والمسيحية . وقال شرلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صـدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهـوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التاكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على انها احداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور !

أما جورج باركلى ، الذى ترك بصمته على الفلسفة فى السنوات ١٧٠٩ ــ ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتألق بالتفكير الجرىء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بانه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يابى الايمان باى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلى) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحدين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء ــ كما هى الحال فى الرياضة العليا ــ تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى ان عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسي ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلى الصماء . فبعد أن دُرّب لممارسة المحاماة ، ورُسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فقد كان يستطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بانها « حرب على الأرض ، اى على المتعصبين والمنحلين ، الذين اعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا اخطأت الخصوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه باوصاف محكمة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر حالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضخمة ذات المجلدين فى ١٧٣٧ ـ ٤١ بعنوان « رسالة موسي الألهية مفسرة طبقا لمبادىء ربوبى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالايمان بحالة مستقبله من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسي وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسي واليهود ، ومن ثم فرسالة موسي ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وربرتن أن هذا الايضاح « قريب كل القرب من اليقين الرياضي (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملأ صفحاته ببحوث علمية ـ عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر ايوب ، وعن اخطاء أحرار الفكر ، والاثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين والأتراك ، واليهود ـ حتى لقد ذهلت انجلترة باسرها لثقل علمه واتساع مداه . وتقدم وربرتن من معركة الى معركة ـ ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم ـ حتى بلغ اسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان الين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذيبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حزّ فى نفسه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوربية من الهمجية ، يواجه امتحانا من اجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رآسه أسقفية كنتربرى ـ وهى أعلى منصب كنسي فى انجلترة ـ رفضها معتذرا بان قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن فزعه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الأمة .. فتأثيره يبلى أكثر فأكثر فى أذهان الناس ... وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تكر » بسؤاله : الا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر ان شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة الروحى اذا تخلى عن تراثه الدينى والخلقى ٠

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى ٠ فنشر وهو ما زال قسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطرى بالحق والباطل ٠ وقال ان العناصر الأسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصدا الهيا يتخلل العالم ٠ وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة ٠

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا — ولا ادرى كيف انتهينا — الى حال اصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لأنه قد تبين آخر الأمر انها ديانة زائفة ٠ ومن ثم يتناولونها وكأن هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ الا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل(٣٦) »

واذ قصد بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فانه افترض وجود الله ٠ ر... الدين الطبيعى » الذى يدين به الربوبيون يقبل « اله الطبيعة » ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الأله الذى صوره الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى ٠ وأراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صوره العهد القديم ؛ وأنه لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحى ، وان الذين قبلوا احدهما ينبغى منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بان يعبده المتحضرون .

واقام بطلر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وانها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس اسمى من الجسد ، لان اعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح انها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، واغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة ادنى الى صورة أعلى ــ كتغير الكائنات الزاحفة مثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد الوان من الثواب والعقاب ــ مع الافتراض دائما بان الله موجود . فكما اننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة أكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا الخلقى ، لا يمكن ان يكون قد جاءنا الا من لدن اله عادل .

واكثر ما لحجج بطلر من اهمية فى عصرنا هذا مرجعه انها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها موجهة أصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القاسى المعلن عنه فى العهد القديم ، لان اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفـــاع عن المسيحية . والظاهر أن بطلر لم يتوجس من أن هـــذه الحجـــة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر — الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطلر ، كما بنى عليـه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الأمام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتادب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمـــرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه افضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيـــدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطلر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطلر المثـل لزملائه بالعيشـة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وآثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب هنرى دودويل « المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، واقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنـــة ترتعش فيها الحجج المؤيـــدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائعة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، وواربرتن ، وبطلر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى اكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تفنيد الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطنيا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكلبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبته الفادية بحرارة وثقة كانه توماس اكمبيس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحّى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستُردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد اثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصح من تلك التى تتوه فى روءى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجدّدة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن اشخاصا من الجنسين ... تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبتل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم ... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام باى ميل للخرافة أو تعبّد أعمى ... بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد اثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمة جيبون

هستر جيبون ، تاثيرا حملها هى وأرملة غنية على الذهـــاب للعيش بقربه فى مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكرستا اكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه . وقد وجد هذا الرجل ســـعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظات على الفقراء والمرضي والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوفا بالبحث ، محبا للصـــحبة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فانكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، وجدد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخـــلق الانجليزى ، ولا مـــزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكـــر عقيم ، واذا جون وسلى ياتى ليجلس عند قدميه .

٤ — جون وسلى : ١٧٠٣ — ٩١

اذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ وجب أن نذكر انفسنا ثانيـــة بانه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحـــركة المثـــودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترة أحط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيســـة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجـــال الاكليروس الأنجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . وندر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيـــات . والعظـــة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماءة ودون أن يرفع صـــوته رفعـــا ملحوظا(٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليـــا تقريبا من الاكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتالف من أدنى الطبقات ، افرادها بعيدون عن متناول التعليم او الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا دينا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية احيا جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية احياء قويا واسسا الكنيسة المثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلى . فجده الأكبر برتلميو وستلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه واصل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنسي فى انجلترة للكنيسة الانجليكانية. واصبح جد جون ، جون وستلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا انجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهترة ، ونوعية الطلب فى انجلترة القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ ابناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما اصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل ابويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) ».

واصبح اكبر ابنائها ، صموئيل وسلى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا انكر على اخويه مذهبهما المثودى . وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلى ، الذى دعم مواعظ اخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٫٥٠٠ · أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ · فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فانقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم · وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى ·

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد · وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمّر حتى بلغ الثامنة والثمانين · وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية · وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » · وبدأ — حتى فى أيام دراسته بالكلية — تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية · وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال · وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا ·

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية · وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » · وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضي ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة · ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسته وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة — وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن ،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ســـاعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العـــام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا برء منــه . وكان يحج راجـــلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوجلثورب جون وتشـــارلز ليرافقـــاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسا مشورة أمهما . فقالت لهمـــا « لو كان لى عشرون ولـــدا لابهجنى أن يدّعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعـــد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى أنى لنا نحن المجردين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجـــل غير مســـمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على الســفينة « سيموندز » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحة التى آنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيـــا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانهما قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوجلثورب ، وجون راعيا للجاليـــة الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمـــر المجاورين . وأثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراءون ، كذابون ، قتـــلة لآبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفـــق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الأكسفوردية وروحه الآمرة الناهية واصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففى العمـــاد اشـــترط التغيطس الكامل ثلاث مرات ، فاذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل. واذ كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فانه اقصي عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بانه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الاحد ـ وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضـــاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة انها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، وأنها اهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوك وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عداء الشعب له ، ففر الى تشارلزتن واستقل سفينة الى انجلترة (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته املا فى أن ترد اليه ثقتـــه بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى امريكا ، أكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وانه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حارتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك ـ بومضة الهية من الاشراق واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن اى عملية اســـتدلال عقلى ـ أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطاياه هو ! فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعيـــة فى شـــارع أولدرزجيت ، حيث كان احدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية · وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصـــف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبى يدفأ على نحو عجيب · شعرت بأننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، وأعطيت تأكيدا بأنه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت · وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم · ثم شهدت علانية لجميـــع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » ·

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخـــلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمـان وحـــده (لوثر) ، الى الخلاص باشراق شخصي والهى (الكويكرز) · وعبر وسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وانفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى انشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزندورف ·

وكان تشارلز وسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترة ، وبدأ بطريقته الاكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبزها قوة غير شخصية جون وسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة المثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد · وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ · وعمل سنة أو أكثر ساقى خمـر لضـــيوف أبيه · ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعيـــل الأول فى « النادى المقدس » · وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترة فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا انجليكانيا · ولذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المنابر ، تواقا لأن يبث الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخـــلاء

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين الف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تاثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهـــم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأثارت خيال انجلترة سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشـــود الهائلة تتجمع أينما ذهب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشيء الذى ينسى . فهو لم يدع لنفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقـــول وسلى ان لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وانه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعل بت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقـــول ، اذ اســـتعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطباء أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقى الترحيب اينما حل ، فانه جعل انجلترة ، وويلز ، واسكتلندة ، وارلندة ، وأمريكا ، أبرشيته . فعبر المحيط الى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندة اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ اربعين ساعة فى الاسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » ـ اى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيوبريبورت بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون وسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جـــدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، ... فقد كان المفروض أن ارى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالته الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العــامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطـــابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنتلمان ، ولكنه هو أيضـــا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياه اليومية لبسطاء الناس تبدو كانها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى وسلى) ـ كما زعم ـ صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح وسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنها المسيحيون الأولون ـ أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضـــهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة تراتيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز اشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » ـ دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محـددة ، بمنبر أو بغير منبر ـ فى أرجـــاء انجلترة ، واســـكتلندة ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهـــوت البروتستنتى للطبقات العـــاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها وسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى أقصى أركان انجلترة راكبا جوادا او مركبة أو راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه أربعة آلاف ميل فى السنة على مدى أربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ارلندة أو من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منع من الوقـــوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية اساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الأرمنيوسي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحى الالهى والاقتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للأصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلى عن الايمان بوجود السحر معنـــاه التخلى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى انها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداع ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلمـــا قرأت كتاب القداس الكاثوليكى ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعمن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى عوقب فيها خصوم المثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضي بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧). وبصف وسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخـــرين .. وساء كويكريا واقفا يتفرج ... أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذه بالحماقة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصـــاح « الآن أعرف أنك نبى من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون ... وأكثر ما سمع كان شهيقا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهـــم سقطوا كالأموات ... ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الارض فى عنف لا يتصوره الانسان .. وســـمعت خبط اقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد ... وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود .. وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهـــو يعصر يديه ويهدر كالثور .. ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! « وبينما كان يتكلم حرّر الله روحه ، فعلم ان خطاياه مُحيت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المثودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تتويج لذروة لا يمكن السيطرة عليهـــا • أما وسلى فقد فسر هـــذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى • وذهب الى أنها احيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة •

وقد حققت المثودية أعظم نجاح لها بين الفقراء • فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم • وقد حمـــلوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجـــم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشروا بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر• هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا• لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا • صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص • ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انشاها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » • ولكن الأخلاق البيورتانيه انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الاشـــداء والنساء الصبورات ، وقد منحت الطبـــقات العاملة الانجليزية احساســا مخورا بالاختيار سندها فى الفقر وجعلها عدوا لأى ثورة تتشـــكك فى المسيحية • وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) •

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة • وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصـــلاحات التى طـــال تأخرها : فندد بنظـــام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفســاد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقى للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ؛ وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الأنجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الأساقفة الرسوليين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الاكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وسلى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تاييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآثروا تطورا منظما ، وأقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية أقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطيقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . ففى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . ففى مونموث ضُرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمْع بيوت المثوديين ، وآذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وسلى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز وسلى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

اتباعه . وفى اكستر رُجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، واكسبتهم التسامح والتاييد .

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينيه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده أنه خلق ليَحكُم ؛ ووضعه نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها واعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة "تهوّى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف الوانه ... ولم نكن اشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ،ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل انه يموت من أثر الوقار الأنجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدوّيا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب . فلما مات وسلى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩٫٠٠٠ فى انجلترة ، ٤٠٫٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ مثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فى العالم (٦٥) . وفضلا عن تكاثر اتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت المثودية ، اذ بعثت المثل المثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حـركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقـات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان المثودية حسنت السلوك الشخصي والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فاقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيأت لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسـة ، ولكنهـا واصلت العـداء البيورتانى للفن . واما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفـة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقـل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسـا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وسلى السادسة والثمانين ، كتب فى يوميته يقول « بت" الآن شيخا متهدما من رأسي الى قدمى . عينـاى معتمتان ، ويمناى تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفف من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شـهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترة واسكتلندة . وقضي نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الافراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه ـ باستثناء بت ـ كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ — فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفاننا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتذمرة » . وموضوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل — الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبيث الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة — لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد اصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . وأصغت انجلترة وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطأ ... فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربيـــة والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانســـان بطبيعته « شرير » (متمرد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد النـــاس بالجحيم ، هنأهم على الملاءمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمـات يحفـــز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البـــر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شىء خـــلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله ُعدنا همجا . وبينما ُيفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصـدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظاتنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغـــة والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتمـاعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها ــ لأنها تروق غرور الانســان وخـــوفه وكبرياءه ، ــ على ان نشجع فى غيرنا الوانا من العمل مفيـــدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرأيه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقته هذه ، « الرذائل الخاصة هى فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بالفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشاغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » فى الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست فى المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن فى ارلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمه عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البرىء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرءوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وأيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكأن دار القضاء هى المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة ... وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مالوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضي فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة » .

ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

١ - الفيلسوف الشـاب

كان هتشسن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بادنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أبا وأما ، فأسرة أبى فرع من ايرل Home أو Hume★ وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلّف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحـة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفي السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامي العقلي لا تدعمه الفلسفة دعما يكفي للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا في الدرس والتأمل .. .. فاسمح لي بأن أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكر فيه ولا يعييني الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الديني :

« وجدت ضربا من جراة الطبع يتملكني ، وهي جراة لا تميل الى الخضوع لأى سلطة في هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) ... فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامي مشهد جديد من الفكرة ، أطربني منتهى الطرب ، وحملني بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال في فترة لاحقة أنه « لم يشعر بأى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة في الفلسفة .

وألح عليه اقرباؤه في أن الفلسفة وثمانين جنيها في العام لن يتيحا له سوى عيش ضنك ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل في استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (١٧٢٦ — ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير في « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . ففي أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفي ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) واعترفت بأنها حبلى . فلما جيء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بأن « المستر ديفد هيوم ... هو أبو الطفل » وارتاب المجلس في صدقها فأحالها الى الاجتماع التالي للمجلس المشيخي

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها أن تقول الصدق وتعترف هل أذنب معها شخص آخر ... وبعد أن نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امتثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أدينت آجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض علىّ شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترة . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبّر اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه .... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترة مثقلا بمخطوطته . وقد لقى عنتا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من ايذائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاها لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقى ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبثين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنتى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدّر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسي ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسي ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وامكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسي احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسي (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لأى فكرة ... انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها • على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية ـ الاحساس ، أو الادراك الحسي ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه « الذهن » ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها ـ وان كان الفرض خطأ ـ أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ••• أما أنا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه « نفسي » أعثر دائما على ادراك حسي معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة • ولا أستطيع اطلاقا ان الحظ شيئا غير الادراك الحسي • فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس « بنفسي » ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود • واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى ، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم ••• واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيريقيين •• فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما ••• وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ••• تشكل الذهن (٨٤) » •

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما اثبت باركلى) لا ندرك « المادة » أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لأننا لا ندرك أبدا « روحا » ملحقة بمشاعرنا وافكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك « ذهن » يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة • وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا • فلا « المادة » ولا « الذهن » موجودان • لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن « يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ، لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية يقرره ترتيب الأحاسيس ، وترابط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان « الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس فى قدرتنا أن نثبت أنها واقع موضوعى . فاذا ادركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه هو تعاقب الأحداث ، لا عملية علية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالاتنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفه فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم للاحتمالات المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب » الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الأحاسيس ، ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبنى ايماننا بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسطة الارسطاطالية . ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل ثقتى بآرائى عنها حين أتأمل الاشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) » فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع أو بناء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الاحاسيس ، وعلاقة علية وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفـــه نظـــريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه، عمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هـذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية ... لأجبت ... اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبـــات (٨٨) ... اننى أتناول غذائى ، والعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصـحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسي ما يدفعنى لمزيد من الايغال فيها (٨٩) ... وهكذا يواصل الشـــاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وان أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وان عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلانى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١)» فانه — وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره — يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبـــدأ أخلاقى على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفـــة الرغبـــة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، سـاحاول أن أثبت أولا أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لأى فعل من أفعــال الارادة ؛ ثانيا أنه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافــع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبثين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمـكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف ـ وأهمها الحب ، والكره*، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تُحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤)». وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبــع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على دفعنا ، والى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيأ لاعطـــاء اللذة والرضي للنفس ، اما بســبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجســم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النســاء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اضفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكوّنان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هيوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقليبها . قـــال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية» فلقد ولدت ميته من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكت كلها تقريبا من أنه عســير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها افكاره . قال ناقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارىء اشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته .. فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بآرائه ... وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

واعد هيوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضـيلة العقلانيين بقـــدر ما ســـاء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هيـــوم القول « لأن العقل ليس له تاثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شـعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بهـا نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حـــالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهمـا اجتماعيـــان » ؛ و « الحــــالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذ كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلمـــوا أن يمتدحوا التصرفات

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التى سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفتا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعش هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

جـ - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركيز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركيز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لمجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضي راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا فى بعثة الى تورين ، واكتسي ديفد الآن سترة قرمزية متوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان يومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمنته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف عن أقل أثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه التى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة أكل الترسة ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتبسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكى . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كأى نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعتزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادىء الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداده العادى بنفسه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة ... اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها ... فاذا أنبانى انسان بانه راى ميتا يبعث ، سالت نفسي للتو أيهمـــا أكثـــر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احداهما ... أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شــــهد عليها عدد كا فـمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريبة فيها ما يرفعهم فوق اى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهـــم يخسرون الكثيرا اذا ضبطوا متلبسين باى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شــــهادة البشر ..

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدلالاتنا العقلية هو ان الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وان ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا ان نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية .. وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنهـــا تكثر على الأخص بين الأمم الجاهـلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبدا فى أيامنا . ولكن لا غـرابة ... فى أن يكـذب النـاس فى جميـع العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم فى ادعاء عقبات أخرى فى طريق الايمان المسيحى: حياد الطبيعة الهادىء ازاء الانسان ومنافسيه على الأرض ؛ وتنـوع الشرور المتكاثر فى الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم ، وعن جميع الخطايا ، فى عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء ـ طبقـا للفرض المسيحى ـ الا برضي الله . ودرءا لتهمة الكفر عنه ، أجرى هيوم على لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبدا الموافقة» على مبادئه ، دفاعا عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على الا يزعج أحدهما الآخر كما اتفقا ـ فيما يظن ـ فى الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزّع الأول الذى نجم عن مفارقات ومبـادىء الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة فى انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسـموا البشر قسـمة عادلة بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثانى جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفى ١٧٤٩ عاد هيوم الى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته فى ضيعتهما بناينويلز . وبعد عامين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد الى ادنبره ، وأرسل الى المطبعة الآن « التحقيق فى مبادىء الأخلاق » الذى أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقى مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب اليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكارا قاطعا فكرة لارشفوكو القائلة بان الأفعال « الغيرية » مدفـوعة أنانيا بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعى الذى يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التى نستشعرها فى مثل هذه الافعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لمبـــدأ منفعـــة أخلاقى . فبعد هتشسن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبـل بنتام بثمانيـــة وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة او لذيذة للسخص نفسه أو لغيره(١٠٩) » . وعلى هذا الاســاس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضي تضافر الوالدين للابقاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى .. والخيانة من هذا النوع اشد اذى فى المرأة منهــا فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبـــادىء الأخلاق يقول : « فى رأيى (أنا الذى ينبغى الا اكون حكما فى هذا الموضوع) انه من بين جميع مؤلفاتى .. .. افضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د ـ الداروينية وبمسيحية

وفى ١٧٥١ الف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو اشـد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا انه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الهه غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢)• ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ، ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة • أما فيلو فيسخر من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت وجود الله • « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه التى نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون كله ؟ (١١٣) » • وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) • (هنا نجد « الانتخاب الطبيعى » بعد ١٫٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من داروين) • وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور التكييفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف لنا — على أحسن الفروض — عن اله محدود القدرات والذكاء ، أو اله غير مكترث للبشر بتاتا • « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها غاية فى الخشونة • فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحة ، ولكن ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة وما أكثر ما تكون مسرفة ! ••• ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب المرة بعد المرة مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع الوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » •

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام (اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة الزاخرة صراعا عقيما على الدوام مع الموت •

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية . فالضرورة ، والجوع ، والعوز ـ تحفز الاقوياء والشجعان ، والخوف ، والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى الحياة فيه الم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء كل مرحلة من مراحل تلك الحباة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب .. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى .. .. تامل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله ... فكل حيوان يحدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف، والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغـدر ، والتزييف ؛ بهذه يعـذب الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطة . يا لها من وفرة هائلة فى الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات الحية ... ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! ... والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهون المجهضون (١١٨)».

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العـالم الى فيلو بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيـار » وبعضـهم « أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لأله طفل أقلع عنها بعد ذلك خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى اله طعن فى السن ، وبعد مونه واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعـة والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل خيوطه المعقدة كلها من امعائه ... فلم لا يغزل نسق منظم من البطن كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا . أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاح كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام أو علله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » . ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى منى فى أى موضوع آخر ... وأنك على الأخص يا كليانثيس ، أنت الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحرر حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه باحساس بالدين أعمق من احساسي ، أو من يعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلها التى لا يمكن تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه الا ينشر الحوارات رغم هذا العرض بالمصالحة . فأذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتانه بالدين أغراه بالعودة الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاح ناشره ، وقد طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبئا على اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هيوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستانى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة باتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى . فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فوراء أعمال الطبيعة وأشكالها - كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ - تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسترضيها . ولعل الأله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هيوم) (١٢٤) . واذ تصور الانسان الآلهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع . وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين لملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا . فالشرك سمح بألوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعنف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » . وأكرهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبيا بين القدامى باعتبارها دين الصفوة . وفى هذه العقائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اختاروا الاستشهاد ، فان حياة البشر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضي عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . مثال ذلك أنه حين استشاره قسيس شاب فقد ايمانه أيبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبفد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة ... ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بان يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ ... والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل التظاهر - البريء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

هـ - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررها العقل . ففى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترة أن تنسي نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطاياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، .. كذلك لا بد من الاعتراف باننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبان الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم » .

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لألحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سويت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل ... لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه .. .. فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ ... نبيل فى ذاته .. ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا اما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بانها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن ان أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب .. .. وكان من اثر استمرار تلك الحالة طويلا ... وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فاكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارستقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاضافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم ان مناخ البلد يقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « اما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن ان الناس يدينون باى شىء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الأفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصداقة والكرم وروح الجماعة ـ هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوته ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعـــالهم ، فلن تخطىء كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الآخرين ـ فالبشر شديدو التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب . وأهم فائدة له أنه يكشف عن المبادىء الثابتة والعامة للطبيعــة البشرية بعرضـــه البشر فى شـــتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظاتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنتظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحـــروب والدسائس والأحزاب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجـــارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخـــلاق على تحـــديد مبـــادىء علمه (١٣٢) » .

وقد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادى فى كتابيـــه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضـوعات مختلفـــة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع فى النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شىء فى العالم يشترى بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مردد صدى لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بان العمال « سيرفعون أجـورهم بالتكتـــل » ، وندد بتمـــويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعـــة والاصـــدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ســـتجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميـــع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجـــارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميـــع

الذهب ، ستحرم أوربا من المنافع الدولية الناشئة عن قـــدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصـــة بادنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على ان يصلى :

«لا بوصفى انسانا فحسب، بل احد الرعايا البريطانيين ، .. لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، واسبانيا ، وايطاليا ، بل وفرنسا ذاتها. وانى على الاقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض ... فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وانمـــا على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متاثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أثرت بدورها فى آدم سمث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوربا الغربية فى عصرنا هذا .

و ــ التـــاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السنى الذى اتهمـــه بانه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضـع راتبـــه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله الســـيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ انجلترة » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صـــديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنى حياتى الاكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التـــاريخ « الخليـــلة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكانه فى عرض أمامنا ، باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت حكم المتفرجين على هؤلاء الناس أثناء حياتهم - فاى مشهد آخر يمكن أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وأى متعـــة للحـواس أو الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة من أعظم مؤرخى العالم : فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ، وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء على هيوم والاقرار بفضل تاثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فـوق كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمـــال الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربمـا كان كتاب هيوم « تاريخ انجلترة » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ، والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الأول الصادر فى (١٧٥٤) عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ، والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث والرابع (الصـــادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترة الى ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذى هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترة منذ استقدموا وليم الثالث في ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستيوارت ، ثم زعم أنه برىء من النزعات المضادة . « رايتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد المحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة أخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، واغلب الظن ان هيوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترة قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر المانيا ، لحكم انجلترة واسكتلندة وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده يصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنبا بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى « لوثوا » لغتهم « برطانة » غامضة و « ووشوا اثامهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكرى ، وفوضي اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيوم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيوم ... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترة من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم ... ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظسانه ،

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث الطبيب عن الأوبئة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على هيوم انه قل أن رجع الى المصادر الأصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر والمتدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الأول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان اشد خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا واربعين نسخة منه (١٤٢) »

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حينا بان يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترة كانتا تقتتلان ، وقد اوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الأول أدخل « نيفا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا باس به ، ورحب به المحافظون الآن محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر اسلوبه البسيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحصيف . فوصفه للصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس ابيكيت يضارع رواية جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تاثير المجلدات الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد ازاحه جبون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسـجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئا بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة .

ز - الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجـال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمـات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار. وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصـل له على معاش قـدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تاثر بالرعيـل الأول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراسـل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسـا بثناء يفـوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترة . وعشقته الكونتيسة دبوفليه من قـراءة كتبـه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فافلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صـالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورفت من حوله عظيمات النسـاء - حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثـق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى اى ثلاثـة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « يا قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

احدى الحفلات بعد ان دخل هيوم عقب دالمبير بآية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضــــور بديهة عجيب « والكلمـــة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب أن يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبرة ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضي الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكياء المهـذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى بوفمبر ١٩٦٥ اقبل سفير بريطانى جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى انجلترة ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولابد من ارجاء هذه القصـــة الآن . وفى اغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت املك دخلا قدره الف جنيه فى العام) صحيح البدن ، اتوقع ـ رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء ـ أن استمتع طويلا بالراحة ، وان أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاســـكتلنديين كأنه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا أنه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخـلاف فى الافكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو أنه (كمونتينى وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحيـــاة الانســـانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لانه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمنته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقـل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعـــون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لانه آثر السمان من الرجال ـ قال آدم سمث : « كنت على الجملة أعده دائما .. اقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

واذا لم يكن بد من البحث عن نقائص فى هذا الخلق الذى بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة فى هذا الذهن الألمعى ، فان أكبر أغطائه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشـــع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر »(١٥٢) ، وهى اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه .ولقد كانت سيكولوجية هيـــوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذا ، ولكنها لم تعلل تماما الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتى « أنا » ، واحلال « التتابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التتابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترة » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) » . وان شكوكيه تخلى عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتهـــا ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع ردّه العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزنا يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيات الايمان ، والراحة التى كان يمسح بها على النفوس المقشعرة أمام سر الوجـــود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على أننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود الى الاقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحده «التنوير» للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساسا كان فى بريطانيا معـــادلا لأثر نيف وعشرة فلاسـفة فى فرنسا .. ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعورا عميقـــا ، فانه توصل الى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » ـ بل فولتير ـ مخالبهم على « العار » l'infâme لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم ، كتب اليه ديدرو يقـــول : « انى احييك ، انى أحبك ، انى اجلك (١٥٤) » وفى انجلترة أنهى مذهب الربوبية بتحديه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذه الذى بزه فى التاريخ . وفى المانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سباته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قــرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعداده النهائى لكتابه « نقد العقــل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هــذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « اتمنى أن يكون حظى — لأجلى ولأجل اصدقائى جميعا — أن اقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغــل فى ذلك الاقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن اعلق املى على الانحلال السريع . لقد عانيت المـا طفيفا جــدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببدنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى أوثر ان اعيشــها من جديد فربما اغريت بان اسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى ألفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر عــلى نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واشتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الاثير لدى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن اشعر بقلق او أسى . أحييك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنيــة فى باث ، فلم تجد فتيلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظــل هادئا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يتمناهما لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قاربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بانه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر اى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت بضع سنين اخر لطبت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتلكىء ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أتتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق اذن من فورك » .

اما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر — أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب هيوم « انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الابد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد ان فكرة الحياة المستقبلة تسر النفس ؟ » وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كئيبة جدا » . واقلبت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير الم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ اغسطس ١٧٧٦ . ومشي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر «لا يهم، فلقد كان رجلا امينا (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الادب والمسرح

١٧١٤ ــ ٥٦

١ ــ دولة القلم

كانت انجلترة تشغى بالطباعة على الاقل ان لم تشغ بالادب . ففضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان الالمام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا وترويحا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لرتشردسن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى انشيء أول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما أصبح عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للادب ، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم فى كبار الاقلام بالمغريات السياسية ــ كما حدث من قبل مع أديسون وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للاخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترة المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، وأصبحت الجريدة قوة يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . ففى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، وأكثرها أسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه الأحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الاقليات الموسرة الجرائد لتملى أفكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات . وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التى أسست فى ١٧٣٠ أول الامر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما اضـــافت عنصرا مثيرا من الانباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة اجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثـــل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسـوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « ادنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى اجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع ان روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين ان يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث.وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داونج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر او بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انهـا حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن اثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة(٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جـــديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترة كلها ثلاثمائة ، اثنان منهـم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنـــا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر » تدل عادة على المؤلف ، اما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . والف بعض باعة الكتب ، كأبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الاسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الي مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الأولى . على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ارلندة وهولندة أن ينشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترة منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفح البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترة » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للالياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون أوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ ــ ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الأدب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب المأجورون ــ

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين — ينامون ثلاثة فى فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة فى هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم اكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الادبية اتخاما لم يسبق له نظير بأصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا فى قبول الأجور المنحطة . وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح فى المال والأعمال ، مع انسلاخ الادب عن الحماية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسا يستقبلون بالترحيب فى أروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترة — باستثنائين أو ثلاثة — يقصون عن « المجتمع المهذب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجا فولتير ألا يدرجه فى زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الأمر كان على النقيض ! .

٢ — الكسندر بوب : ١٦٨٨ — ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبدأ بنسب صاحبها وتنتهى بمأتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانبائنا أن « الكسندر بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لأبوين لم يتحقق أحد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكى الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السنة التى حطم فيها خلع جيمس الثانى آمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك . وخصت الأم الصبى الذى كان وحيدها بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى عموده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر اقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والايطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشيط ، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
ألثغ ببحور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره أتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سنوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فانهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « افكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان الفتى ولع « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن، ونظريته عن بوالو . واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكاس اثمن من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الأدب ينبغى أن يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هـــذبه وصــفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنيى ، والذى يغزو الآن انجلترة ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحـــدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمــــدة هادئة . وهــكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟ .
رجل لا يحرفه رضي ولا يميله حقد ، لا هــو منحيز فى غبـــــاوة ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث ســـمح ، ونفس تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينمي فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا ـ أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

أم ان قاروره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
اتنسي أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالاقنعة ،
اتضيع قلبها ، أم قلادتها ، فى حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا فى ثرثرات جماعة الأشراف ، وقمارهم فى هامتن كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق من البحر العمبقى « الايامبى iambic » ياخذ بالالباب) . فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة من النشوق فى وجهه ؛

« وبغتة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الاثناء يغتصب الاقزام أو السيلفات أو السمندلات الخصلة ويجرونها وفى اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنبا يفوق بريقه تلألؤ شعر بليندا .

وقد ابهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتها ، وانديتها ومقاهيها . ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر فى انجلترة ، وغدا كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يضف جديدا لشهرته بالأبيات المملة التى وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس له الاحرار بعد انتصارهم فى ١٧١٤ انه فى تلك القصيدة كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التى سقطت (١٣) . ولكنه عاد فاسر جمهوره فى ١٧١٧ بنظمه فى مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيـل اليه انه المذمـــوم فى أبيـــات بوب الطائشة :

« ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تاملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد انتقى عيوبا حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى اطار مقذع . فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوبيد أو ضفدع أحدب ، وهنأه على أنه لم يولد فى اليونان القديمـة ، والا لألقت به عاريا بعد ولادته لقبحه (٩) . ولعق بوب جراحه وترقب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢) وكانت تقليدا سافرا لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ، ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز أرابلا فيرمر بقصه خصـــلة من شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة . واقترح رجل يدعى كاريل على بوب ان ارابلا قد يهدأ سخطها اذا قص الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا انتهى الامـــر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة اديسون ، وكدسها بعدة من الشعر الملحمى ــ الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات ، والسمندلات ، والحوريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه « المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشـــاعر دنيس . وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة ربة شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتألق تألق الأحجار الكريمة التى رصعت بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات التجميل التى يسلح بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى مرادفات تهكمية ما سيحفل به يومها من جلائل الأمور :

مقفيين couplets رســائل هلويز وأبيــلار المختلقـــة . فنرى « الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبى ،
تعال ، وبنظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تأت ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ســـاعة احتضارها ، لا عاشـــقا بل كاهنا :

« ليتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت(١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدأ كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له أن يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت تكون منطقه الذى فطر عليه . واستشار أشدقاءه فأمنوا على الفكرة . وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويفت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر» الجديد وهو يطفر بشعره فوق طروادة . واذ كان سويفت فى موقـــع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « افضل شعراء انجلترة هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له الف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . واقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتتبيه . وبما أن المكتتبين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فان بوب كسب ٥٣٢٠ جنيها (١٤٨ر٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترة الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على اربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم أديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف أديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشراح المدرسيين ، وأنجز اكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبقى) الخماسي التفاعيل iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فاما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاخر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها — رغم اعتراضات بنتلى — الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كأحب

ترجمة للالياذة . قال فيها جونسن « انها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضارعها أية ترجمة اخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترة الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورث اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذى ابهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترة الاوغسطى.

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ ــ ٢٠ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

واقنعه لنتوت أثناء ذلك بان يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلما محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الأوديسة (١٧٢٥ ــ ٢٦) ــ التى قصرت كثيرا عن الياذته ــ نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكتب الاربعة والعشرين ، فى حين انهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيها ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٫٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير مدين لانسان أميرا كان أو نبيلا (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة افدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، متحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شىء أنبل من الملك فى ثياب تتويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغـــارة » زينة حالمة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجـــان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجـو استضاف الكثير من الاصدقاء المشهورين ــ سويفت ، وجــراى ، وكونجـريف ، وبولنبروك ، وآربثنوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيـــو ، والاميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارته فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقارب على التيمز ، واقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربتنوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجراى ، وبوب ، فى نادى سكربليروس الشـــهير (١٧١٣ ــ ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، وأضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاظمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالادب وانتهت بعداوة مرة . وساكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٢٦) ، وتبادل الاثنـــــان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبـــؤة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغـــلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقـــة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسي بسبب حبى لهذا الرجل » ــ وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد انه كان هناك شيء يحب فى هذا الشـــاعر الذى صـــورته الرواية المتواترة ، بل صوره قلمه هو احيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان ممرورا ــ وله العذر ــ بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جـــذابا ، ولو

لجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بانه « مخلوق قصـــير ، كله حيوية ، طويل الســـاقين والذراعين ، لا تخطىء اذا رمـــزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المـــائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدار من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهمـــا ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدرة الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشـــكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقيـــة . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردسن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هـــذه الطلعة الحسنة (٢٦) ـ كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شان كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . وندر أن تجاوز فى ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكمـــا يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حمـــله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويفت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياما

بواجبهم نحو آبائهم(٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه أطهر عاطفة وابقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كان فى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمرأتين اللتين ظن انه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، احبت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علاقة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بانها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة(٣٠) » . وبات فى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الادبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه احيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، واطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب ستريت اقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجراى ، وعلى اقصاء سويفت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفار مسموم فى جحر » يعنى كتدرائية دبلن . أما عن الباقين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكمور ، وأوزبورن ، وكرل ، وكيبر ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وآرنل — كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر — ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

لأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هــذا جعل الجمهور أشد تهافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا الثــار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينا يأخذ معه فى جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجــلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفى ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد ــ هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اننا نتخذ فى فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك فى الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع .. ..
أو ، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للانسان ، والانسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل فى أنفسنا ، واننا لم نولد الا لانفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك فى شيء تشككنا فى الروح والارادة (٣٢) » .

وواضح أن بوب كان ينقب في الفلســـفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » فى ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الادلة على أن الفيكونت كان قد نقــل الى الشــاعر ربوبيـــة شافتسبرى مشحوذة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقــول جوزف وارتن « لقد أكد لى اللورد باثورست غير مرة انه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصـــلة فى سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينهـا من وضـع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التى تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصـدرت الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقـال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتبـاره من ألمع ما الف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يسـتهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيـات » ليبنتس ، « وفردوس ملتـن المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شـاكرين لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضي استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا الا بالجهل :

« فارج فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحيـــاة من مظالم ؛ وعلينا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لابد يرتب كل الأشياء لكل الأشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ، ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقيقة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب (٤٠) »

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الأبيات المذكـرة تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم أوحد فى أمر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، وأضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن «محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ،
نكرهها حالما نراها ،
ولكنا لكثرة ما نراها نألف وجهها ،
ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وان كانت كلها ألوانا من محبة الذات الا انها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخبدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم
فأصلحها هو أفضلها ادارة وتصريفا
وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ،
فلن يخطىء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فاذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية
لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ! »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد ياسي البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصـــدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقية ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، واذا سلمنا بهذا
كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخـــر يمكن ان يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير • وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضـــن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم •

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هـــذا الأسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه • يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر باوجز مما بالنثر (٤٦) » • ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغـــه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها ــ وحشد المعنى الكبير على الأقل ــ فى حيز ضيق • فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد • وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة افكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد • وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين • ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الأشرار • وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا •

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انســانية أو بشرية » منظومة • فالقول بان « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدا أنه يغرق اللاهوت كله • فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليـــه قسيس سويسرى يدعى جـــان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طـــريق جانبى فى قصـــيدة مفروض فيها أنها تبرر طرق الله للانسان • ولم يخف للدفاع عن بوب امام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وربرتون الفحل ، فقـــد شهد أسقف المستقبل ان القصيدة عمل من اعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها • ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة

حلوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السـنيون تماما ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأيى أبدع وأنفع واسمى قصيدة وعظية نظمت فى أى لغة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آربثنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتـل خصوما جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لأديسون الذى سماه « أتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرفى المخنث الذى كان قـد زل فوصف بوب بانه « قاس كقلبك ، مجهول كاصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صوره وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ».
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقـول ! ايسـتطيع سبوراس أن يحس ،
وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الأجنحة ،
ابن القذر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كانه الضفدع الأليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حينا ، هابط حينا ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراعنه فى هذه الهجمات القتالة —

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وأنه فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح لملحمة المغفلين رسم صورة قوية — هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته للدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتثاءب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضي القديمة !
أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية .. ..
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفىء الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسأل ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجأ الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! انها تحملق ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدرى ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضي ،
والنور ينطفىء أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضي الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس بلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب اضمحلاله هو انهيارا للكون كله . فقد كان وهو بعد في الخامسة والخمسين يموت من الهرم . وأصبح المشي عسيرا عليه لاصابته بالاستسقاء ، والتنفس مؤلما لاصابته بالربو . وفى ٦ مايو ١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفيق منه فترات ، وأعرب فى احداها عن ايمانه بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكى أيستدعى له كاهنا فاجاب بوب « لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لانك ذكرتنى بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (اذا صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم يكن من حقه أن يدفن فى دير وستمنستر لأنه كاثوليكى ، فووري التراب الى جوار أبيه وأمه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدح والذم شاركت فى تسميم هواء انجلترة الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العاطفة التى تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقريا ؟ بالطبع ، لا فى الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه تاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وايجاز التعبير ، وخصب العبارة ، كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما — أطول من أى شاعر آخر — أمير الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما أخر نموذجا يحتذيه الشعراء الانجليز ، الى أن جاء وردزورث بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهرول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الآلى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد ان يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفد خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتطاول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقاده .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعرى الأكبر لعصر انجلترة الاوغسطى — الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ — ١٧٤٤ . فمعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية — تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة — فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهذبة ، ويسر السلوك ولطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطط الاليزابيثى وعلى التدين البيورتانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترة مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة — كل أولئك تضافر لاخضاع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترة الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترة الأوغسطية يحط من قدر الشعر ويغير لونه . وكان اثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاها دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقوته ودفئه . وخضعت فورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، ألزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والأمل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترة الكلاسيكى .

٣ — أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى شومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلفس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وانه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهم الحريصين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم بلمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، وبتغلغلهم الى ما وراء الأفكار ليصلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالوا كثيرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت الملحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الأيمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكال القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ والم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ والن يشتق المتشكك هيوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الأساتذة لأسلوبه لأنه شعرى

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ، وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى حذاء (٥٥) . على أن اهداءه اياها الى السر سبنسر كومنتن أتاه بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزأر والسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؟ »

وكيف راقب من الشاطىء الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب « اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواه ، ما اقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة ...
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كاس
الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف » (١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بامر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة الألبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته « الربيع » فى ١٧٢٨ ، وباضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلها فى ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقا لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى ساله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » . وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم قضي عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترة الأقل شأنا ، ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان — لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) • وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القـــرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك أكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن • أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمـل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلية فى الحياة والموت والخـلود » (١٧٤٢ — ٤٤) • وقد شجب فولتير هذا النتاج الليــلى لأنه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعـــه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فيهما :

« انك مسرف فى الذكاء ، والخلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلهـــا فى رجل واحد (٥٦) » •

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب أقل مما كتب ينج واجود منه مرتين • هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخــر دراهمه فى صقل الأبيات الألف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجـن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين • واجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وقد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى يبلل الندى اصابعه الباردة
ليجمل ترابهم المقدس ،
هنالك يكسو بالعشب ثرى اعطر
مما وطئته أقدام الخيال •
اجراسهم تدقها أيدى الجان
ولحن الموت ترتله افواه لا ترى ،
هنالك يحضر « الشرف » ، حاجا اشيب الشعر ،

لتبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجـــدان هؤلاء ذلك الروح الغريب الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقـــة . ذلك هو توماس جراى ، الذى كان أحد اثنى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى لندنى ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رأته يتشنج . فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى ايتن ، حيث بدأ صداقاته المشئومة مع هوراس ولبول ورتشرد وست ثم مضي الى كمبردج ، التى وجدهـــا « مملؤة بالمخلوقات المكتئبة والمعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فيه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبـــال الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق للطرفين » لكل منهما برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادســـة والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ، وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ، فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئا ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكشرة عن نابها ،
التى تقرض القلب فى شغافه
والحسد الشاحب ، والهم الذابل ،
واليأس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النفس .

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطا رهيبا ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظرا من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخدل الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضي عليهم كلهم بالأنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واها لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطىء مجيئه أبدا ،
والسعادة سريعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فامسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيما
فمن الحماقة ان تكون حكيما » .
وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جراى الى كمبردج ليستانف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مرثية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » • وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها •• وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن ألبس جراى الاكتئاب الرومانسي لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مستبدلا بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة •

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر • وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » • وفى قصيدة غنائية أكثر شموخا حتى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان • هاتان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نشرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيطة مبلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب • وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن • ان الوضع الراهن حسن جدا ـ فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضي • وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام •

واذ انكفأ مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق • وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل ـ ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) • وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترة تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم • وفى جولة أخرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيدة « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) ٠

وطبقت شهرته الآفاق حينا ٠ فانعقد الاجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها ٠ وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » ٠ اما آدم سمث فاضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن اناقة بوب وتناغمـــه ، ولا ينقصـــه شيء ليكون ــ ربما ــ أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظـم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » ٠ واعجب جونسن بالمرثية ، ولكنـه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية ٠ « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف أصابعه ٠٠٠ وانى لأعترف أننى أتامل شعره برضي أقل مما أتامل حياته (٦٠) » ٠

ونستطيع أن نقلب هذه الحكمة مطمئنين ٠ فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض ٠ وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيـــالا كثيرة من ادمـــغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى الببون ٠

٤ ــ المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحـــن بصدده ؟ كان أهمهـــا مسرح درورى لين ٠ ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيـــلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هييماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزليـــة ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس ٠ وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى الســادسة مساء ٠ أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عــودة الملكيـــة ، فتحـــول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الأوبرا ٠ وكان المتفرجـــون المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح ٠ واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقرابة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثـــال كتى كلايف ، وبـــج ووفنجتن ــ التى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هى الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس. وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحى الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى انجلترة بانها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئا من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حتى لقد أدهش أوربا كلها أن يتقاضي السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئا فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسي فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قـانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثنـــاء على مسرحيـــة « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلنـــدن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوســطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنـه يطبق بتساهل كبير .

الى المشاهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامرة مزدوجة ؛ أنزل المأساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويثق بانه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبى تاجر على يد غانية أغوته ، والموضوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق وملفوف فى العاطفة الرقيقة . وقد صفقت للمسرحية دائرة وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملته لأدخال « المأساة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسي . ونقل لسنج نبرتها فى « الآنسة سارا سامبسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكدها فى السياسة .

اما فى اسكتلنده ، فقد أجج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجه تمثيلية « دجلاس » (١٧٥٦) ، وهى أنجح مأساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفد هيوم فى ذوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك ، فقال انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجية (٦٤) » . فلما رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون» من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيع التذاكر . وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلندة ، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنية ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على ردائه ، وذكرته « بالرأى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيليات وممثلى المسرح لأضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارليل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيوم الذى اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمه ، وكتب اتهاما حارا للتعصب . واستقال جون من قسوسيته ، وذهب الى لندن ، وشهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتها بج ووفنجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلى شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز سيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الايام التى لا تمثل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حققه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الشحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاى حياته صبيا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرتيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكربليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرح يخفف من غضبته للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاى بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع في شوارع لندن» . فقعقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخففون جيبك من أثقاله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بابك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاى بنظام الاكتتاب ، فوافته بألف من الجنيهات خسرها فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الامر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل اصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه امره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخيره مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابذتنا بولى عن غيرها من بنـــات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآحرين لها ، على عكس ما نلحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم(٦٩) » .
على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليــلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى ساقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب » .

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :
« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
أيطيع كيوبيد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيته أسلم وافضل
أن اتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشي أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشنقوه دون ريب . ويطهر ماكهيت على المسرح ، ويهدىء روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبى
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا « أفى استطاعة أى قوة ... أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ... لو ألقيت على شاطىء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى ... لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى .
هو ... ولأحببتك اليوم كله ،
هى ... ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ... لو سرحت معى فى هيام
هى ... فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بان أباها يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظـــر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجـــاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الأغنية :

« وداعا اذن يا حبى ـ وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى أموت راضيا ـ وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لأننى بهذا أرضي زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعـــل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بان « الأوبرا يجب أن تنتهى نهـاية ســـعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعـــن الشحاذ ، وينقـذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميـــع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاى أن افاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترة ، واختار بوش موسيقى لأغانى جاى من الالحان الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما ســـبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضا طـويلة فى كبرى المـــدن البريطانيـــة ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبـــودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجـــال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاى لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاى أن يخرج تتمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الأمناء الترخيص

بها . فنشرها جاى ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاى غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ ــ الروايــة

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من أى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد . ومنـــذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترة .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتـــابة . فللهنـــد حكاياتهـــا وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث واســـتير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجـت رومانســـيات مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفللى movelle " (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديللو ، واســبانية النهضة وانجلترة الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لأوغـــاد رائعـــين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطـــول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن أكانت هذه الآثار روايات بمعنانا الحالى ؟ لقد أشـــبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخوص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبـــكة التى تربط بين الأحداث والشـخوص فى كل متطـــور . لقـــد كان فى قصـــة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينهـا . فلمـا ملك رتشردسن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشـخصية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ ـ صموئيل رتشردسن : ١٦٨٩ ـ ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجـديدة ابن نجـار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تاهيله التاهيـل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخـذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما افاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فانشا مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حداثتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب سـتة أطفـال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهـم على التحـرير بانفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشئون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردسن يعد هذا الكتاب ـ وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف ـ خطر له أن ينسـج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ — ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فان رتشردسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى باصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادىء الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأضاف اليه رتشردسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لاننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الأغواء — وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناى الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بانه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن احبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتززتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف — نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف — لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدى على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . وإذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهره رتشردسن كاتبا سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرة اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الطبقى اليها . ويختتم رتشردسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحت (فضيلة باملا) بالقدوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب الثواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلافا مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبهـــا فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفســـه لرئيس الشـــياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشرون رتشردسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فتريث ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التاليـــة التى جاءته بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها الفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجـــرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حـــاله تصـــويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلاصة القصة ان لفلبس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاريسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنــة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شـخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الأذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويستأجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبـــار ، وهـو أننى متى تزوجــت مــرة أصــبحت متزوجــا مــدى الحيـــاة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجـــل استطاع أن يفعـــل كما تفعـــل الطير ويغير (زوجاته) كل عيد من أعيـــاد القديس فالنتين .. لمـــا كان فى الأمر باس على الاطلاق ... وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضــاء على .. أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنــا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمـــال العنـف المفزعة) ... ولن تكون هناك امرأة عاقر ... فكلا الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرعى كل منهما مصلحته بعد بضـــعة أشهر ... وستزدحم الصحف بفقرات .. .. تعنى بتعارف المحبين . عندها ألن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موســمى (أو موســمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاريسا ، فتنذره بانها قاتلة نفسها ان لمســها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلطف معها فيه ، وترسل خلاله الرســائل المفعمة حزنا لأنا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها . أما هــو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنهـا

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا برء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه • وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة اليه أن يغفر لهــا بل أن يسحب اللعنة التى استمطرها عليها ، والتى تعتقد أنها ســتقفل فى وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمــرة لا يسندها فيها غير ايمانها • أما لفليس فيختفى فى فرنسا ويقتل فى مبارزة بيد عم كلاربسا ، وأخيرا يأتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة •

انها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت فى انجلترة القرن الثامن عشر مثار خلاف قومى • فكتب مئات من القــراء الى رتشردسن فى فترات النشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) • ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « فى هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة فى الربيع (٧٧) » • أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التى بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنــه آذى ذوقها الارستقراطى • قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التى بكت على كلاريسا هارلو كمــا تبكى أى بائعة لبن فى السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية • والحق أن المجلدات الأولى الاثنتى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب فى جملته بضاعة غثة ••• ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنهــا أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » •

والحت نساء انجلترة الآن على رتشردسن المنتصر فى أن يصــور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية – فى ظنهن – فى باملا • فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التى رسمها فيلدنج لرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جراندیسن » . ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشردسن أن يجمل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكنا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد أفلت جراندیسن بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين .

وألح رتشردسن على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبى . فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الاحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفة لا تكاد تتيسر فى شكل أقل ذاتية . وكان مما يتمشي تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشردسن الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشردسن نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا أفضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية عصبية وأرقا . وفى ٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تاثيره الدولى اعظم من تاثير أى انجليزى اخر فى عصره باستثناء وسلى وبت الأب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج الخلقى لانجلترة جونسن ، وعلى الارتفاع باخلاقيات البلاط بعد جورج الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كاتبا لا ضريب له فى القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية تعدل أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقريظ لرتشردسن » (١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى المانيا ترجم جيلليرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تاثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشي كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛ والناموس الاخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكنا نعرف أن هذه الروايات مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، اكثر مما مثله شعر طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ونتبين فى رتشردسن الأب — كما تتبين فى روسو البطل — لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدنج العارمة .

٣ - هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيىء السمعة • كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيليات الكاريكاتورية • واستعملت الليدى مارى مونتاجيو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح درورى لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عديدة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشهدها معلنة عن نفسها فى تفضل : وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة • وواصل تاليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح فى « مأساة المآسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) •

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين • وورثت عقب زواجهما ١٫٥٠٠ جنيه ، فاخلد فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف • ووقع فى حب زوجته • وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميليا بوث التى لا حد لصبرها وأناتها • وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » •

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن واخرج تمثيليات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح • ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردسن « باملا » • وأثارت فضائل البطلة وخالقها المتعددة كل ما فى فيلدنج من نزوع الى الهجو • و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) بدأها تقليدا ساخرا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عنـدى خبر ويا له من خبر افضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القـوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضـل كله لمواعظـه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقـول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عقابا فى الآخـرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنهـا طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسي مرة كل كلمـة قالهـا لى القس آدمـز .

« ولست أشك يا أختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاح أن تصـلى لكى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثـال يوسف الصديق سميى ، فاصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومهـا الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم · ولام رتشردسن فيلدنج لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيسه » الى باملا (٨٤) ·

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشردسن ، وراح يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والآداب ويجعل كتابه ملحمة · وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات التى تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ، الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة بتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل فى هدوء ورضى أن يذكر بذنوبه ··· مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » · واذ لم يكن فى طبع فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية باكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية لكتابه · وقد بدا هذا خيارا بعيد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر متهور · ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متينة ، ومعدة قوية ، وقبضتين صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فانه مقاتل كفء يصرع سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته · وهو الى حد بعيد أحب شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهات غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم · والذين كانوا فى شبابهم يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا · ويقابل فيلدنج بينه وبين القس ترالبير الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جون فلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » ·

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » · وقد احتوى المجلد الثالث على آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم » ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى تروى على الأصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » · وكان فى شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرهـــا وتحقيقها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر ممـــا أحسنوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد ان « اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهـــائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عجـــوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) » واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست ». وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفـــائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاســـبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايربلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتـــه من ذلك بامتثالهـــا فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلبة ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقـــه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمـــور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمته ـ التى قـــل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقهـــا ـ أن علق من عنقـــه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجته ، وكدر موتها مزاجـــه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعـد ، فى شخص صوفيا وأميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجته التى بقيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) قاضى صلح لوستمنسنر ، ثم لمدلسكس بعد قليـل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المتقاضين الدين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهات النلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقـــود على وجـــه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ ــ ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهة الكتاب القوية وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهاهنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظـم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هـــذا الوصـــف الكامل الصريح ، بدنا وعقلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منـــا أن يرسم « رجلا » بأقصي ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر عــلى رفض « الطبيعى » فى فننا .. .. وأنت تأبى أن تســـمع .. .. ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام ــ تأبى أن تسمع واقع حيـــاة أبنـــائك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بانه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارىء سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الاحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخوص وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطا شديدا ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيرا منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سكواير وسترن « الذى يعتز ببنادقه وكلابه وخيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تاتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فادرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه باصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جريا على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ اطلاقا على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بانه ربما كان أبا لطفلها ، ويروح عنه كثيرا أن يجد أنه لبس الا واحدا من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أبا للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباها ، سكواير وسترن ، كان قد هيأ جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات • أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أيكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها • ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هـذا أسـفاره الحـافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج • ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدها الى الأبد يتزلق الى فراش المسز ووترز • وبعد شدائد كثيرة ، وتعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكواير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل اسبوع على أهبة قتله • ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها •• هل انتهى كل شىء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أيكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد ••• يمينا انها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوفى ؟ ••• أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن خمسة جنيهات لكراون أن سيولد لنا صبى بعد تسعة أشهر من غد (٩٥) » •

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هـذه الخصوبة أو الصراحة • ذلك أن أوصافهم لا تشـمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة ـ هذه التى توجد فى أى مجتمع • أما فيلدنج فآثر رجل الغريزة عن رجل الفكر • واحتقر مهذبى الكتب ومطهريها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنـوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم • وفهـم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخـرى الى دنيـا الأوهام • واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا • ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليـا » هو الدكتـور هاريسن ، وهـو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته •

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشـكلات التى

كابدها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فأقام الآن لذكراها أثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الآنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الآنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين . ويجد القارىء هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضي ثراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فأنت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزلدا ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطيعه فى كل شيء ، الا انها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء ثيابها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الآنسة مانيوز اللئيمة تشي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حليها الضئيلة الثمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تجد فى عددها أخطاؤه بقدر ما تجد فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك شأن روسو وهلفتيوس ، يرى ان أكثر النـــاس طيبون بفطرتهم ، وان ما يفسدهم هو البيئات الشريرة والقوانين السـيئة . وعند ثاكرى أن أميليـا « أكثــر الشــخصيات فتنــة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربما لم تكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارثة ، وتعتزل هى وبوث فى ضيعتها ، ويستقيم حال بوث .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد نبررها مقدماتها ؛ فبوث يبقى بوث على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحـــدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هـــذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتـلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فرغ من اميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى ينــاير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القـوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلقه الى روايتــه « روديك رانـدوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة تموت . وكان شتاء ١٧٥٣ — ٥٤ أقسي من أن يحتمله بدنه الذى هده العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . ففى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميـــات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسي دعائم رواية السلوك الواقعيــة ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف اتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هــذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجســد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحــه ، وغابت عنه مقومات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ ـ طوبياس سمولت : ١٧٢١ ـ ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلنديا وافق هيوم على التحسر لأن انجلترة عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترة عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضوا فى البرلمــان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمــره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرســة دمبرتون الثانوية وفى جامعــة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك. وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا . وفى جميكا ترك الخدمة ، وهناك التــقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترة . وسكن بيتا فى داونج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرد القديمة ، الحافلة بالاحداث الدائرة حول احـــدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنـه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شده البشر وافعالهم أكثر ممـا شدته الكتب والالفاظ ، فحشد قصته بالاحداث وأضفى عليها نتـانة الأقذار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفحل . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صانعه - عينات من الفنادق الانجليزية والاخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن الثـامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين يحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المباول بحثا عن الفراش الخطا ، والنساء يصرخن مستغيثات من مغتصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويشتم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسأل الكبتن « لعنك الله يا سيدى ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقير ؟ تبا لك ! وويل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = سـمولت) مسـاعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضـور الذهـن ما جعلنى أنسحب فورا ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فاكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاويهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهـن ، ويلاحظ كيـف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعـاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ الوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعقبـه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعى وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « تندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن الكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضي بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فيسبح الى بر جميكا ، ويصبح خادما لشـــاعرة عجــوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجـــرى القصة فى تدفق سمولت اللاهث ، بفقرات تتصل الواحدة منهـــا ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة قوية بذىئة . وفى لنـــدن يصـــادق رودريك مجوعة جديدة من الأصدقاء الغريبى الأطوار ، بما فيهـــم الآنســـة ميلندا جوستراب والآنسة بدى جرايبويل . ثم بمضي الى باث بمـــزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحـــلوة ويظفـــر بمحبتها له ، ثم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ... ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشترى » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جميكا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدير بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحقة فانى استمتع بها . لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا يجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر ســـمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » متفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فانكفأ الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصـــدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارىء لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخوصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بانه « سيد من طراز غاية فى الغرابة» كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عينا وعقبا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصر على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير • ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كانه سمكة « قد » لاهثة ، وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق » فاه بالتاييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هنا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) •

ويواصل سمولت مرحه خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، الا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى احكمت وثاقك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » • ويطمئنه الكومدور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريحا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى – فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ••• وكانه يخشي فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » • ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » • على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتنكفىء المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » •

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بانه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه ـ بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة – منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » • وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه • قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) • على أن حدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيما ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجا محبا لزوجته (١١٠) » • وكان منزله فى لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعـــامه وان لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم فى فرقة من المســـاعدين الأدبيين • وكان رائدا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟) فى الزامه تجـــار الكتب بتاييده فى شرط يليق بعبقريته • وكان أحيانا يكسب ستمائة جنيه فى العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها • وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر • واقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التى نجحت بفضل هجماتها على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة «البريطانى» لسان حال المحافظين • وترجم جيل بلاسي، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب — أو أشرف على كتابة — تاريخ لانجلترة من تســـعة مجلدات (١٧٥٧ — ٦٥) • ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبى » المؤلف من الكتاب المأجورين فى جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعـــالم » وكتابا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » •

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام• ونصحه طبيبه بأن يستشير اخصائيا فى مونبلييه يدعى الدكتور فيز • فمضي اليه ، وأخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدى ، دليل على اصابته بالسل ، واذ كره العودة الى رطوبة انجلترة وخضرتها، فقد ظل عامين فى القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات فى فرنسا وايطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى فى رواياته ، تلك النظرة الحادة اللماحة التى ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة • وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيه فيهم دون مواربة ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والايطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحـكم على

الفرنسيين بانهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغـــلاف من الأدب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسيا ادخل الى أسرتك .. لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطارح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك ... او جدتك ... فاذا كشف أمره ... صرح فى صفاقة بان ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد فى فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى انجلترة وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن علله عاودته فى ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء فى باث . غير انه وجد مياههـــا عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفى ١٧٦٩ عاد الى ايطاليا . وفى فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة همفرى كلنكر » وفى رأى ثاكرى أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع والطف كتب سمولت اذا استطعنا أن نطيق شيئا من القذر . وفى مطلع القصـــة تقريبا نلتقى بالدكتور — الذى يتحـــدث عن الروائح « الطيبـــة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه يتقزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لذعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحة من الشخوص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتاع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه ســـمولت بآرائه . وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعـــا فى نفسه من قوتها الشافيه . وهو يكره زحام الجمـــاهير ، ويغمى عليـــه مرة من رائحتهم المتجمعه ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة . يقول :

« ان الخبز الذى آكله فى لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد العظام ؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القـوم الطيبون هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا ... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم ... والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم ... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى يأكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز .. .. ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسـية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبىء بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضي اللياقة اخفاءه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربة ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيثا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بابداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصـبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر ـ الذى يقـابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بانه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم ـ « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخـوته ممتطيا جـواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شووا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون »، ولأنهما زعما انهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال الفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ! وقد انكر خلود نار الجحيم ، بل قذف ببعض مفرقعاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفرى كلنكر » مطبوعة . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات فى فيللته الايطالية غير متجاوز الخمسين ، بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى ، وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر دون أن يعوقها عائق من المواعظ .. ورسم الشخوص أقل لفتا للنظر فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب التى تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد ـ بالمبالغة فى خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص ـ انتقل الى دكنز ، الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التى بدأها ماثيو برامبل .

هؤلاء الكتاب ـ رتشردسن وفيلدنج وسمولت ـ اذا أخذناهم معا ، وجدناهم يصفون انجلترة منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين ـ الذين يضلون طريقهم وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا التى أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم ليللو الى الدراما ، وجاى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ ـ الليدى مارى

بهذا اللقب الفت انجلترة أن تلقب ألمع الانجليزيات فى جيلها ، المرأة التى دخلت تاريخ الآداب والعادات بهجومها على التقاليد التى حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل مدم دسفينييه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهى حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييربونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المترف ، ثورزبى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وتبدى ذكاءها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة ابيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقان هناك احيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيليات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد .. وكان اديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المامها بالآداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ ابوه سدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) — وهو فى الثلاثين — رجلا ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسى فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمة بأن قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشىء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هى اول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك الا تتوقع رسالة اخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتأنية . فلما مرضت بالحصبة أرسل اليها رسالة قصيرة كانت أخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحني كثيرا أن اسمع بأن حسنك قد أوذي جدا لو كنت أسر بأي شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أنني - لو تزوجتني - ساهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر في الشهر التالي ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . ففي استطاعتي أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لانسان ، ولكنني لا أدري أأستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت في نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأي بعد ، فدعني أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب في فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وان كان معنى هذا ألا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلي انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأي طريقة يجب أن تأخذني . سأحضر اليك بقميص نومي وتنورتي ، وذلك كل ما ستحصل عليه معي (١٢٢) » والتقيا في نزل ، وتزوجا في اغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدي ماري ورتلي مونتاجيو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلي دون ألقاب شرف .

وما لبثت دواعي العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا في عدة بيوت في الريف انتظارا لوصول وليدها . وفي أبريل لحقت بورتلي في لندن ، وهناك ولد طفلها الأول في شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه في البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد في البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضو لجنة صغيرا . واستأجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، في يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدي ماري غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف الأصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الأربعاء ، والى المسرح أيام الخمس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول، ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديهتها الحاضرة ، ونسي لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ، وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء
لم يجرؤ بشر بعد
أن يشك فى علو كعبك ،
ولكن من الرجال ذوى الفطنة
من رأى ان التسليم لسيدة
فى أمور العلم أمر عسير .

ان المدارس الوقحة ،
بقواعدها الغبية البالية ،
انكرت التعليم على الاناث ،
وكذلك ينكر البابويون
على الناس قراءة الكتاب المقدس
مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول
من ذاق لذة المعرفة
(رغم انها لعنت)
ويجمع الحكماء
على أن القوانين يجب أن تقضي
بالحق لأول مالك .
اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسناء
فى جراة ذلك الحق القديم

الذى هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
قد عوقبت عقابا صارما
لانها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فاى عقاب جديد
يقضي به عليك ،
يا من سرقت الشجرة كلها بعد ان ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافة . وشاركت الليدى مارى فى هـذه اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما الزوجية البتارة ابيات الشاعرين رشـاقة ولذعـا . ولم تنشر هاتين القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسـخ مخطـوطة منهمـا بين الاصدقاء ـ واكتسبت الآن شهرة بانها قريع بوب بين النساء ، امـرأة تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجعة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك أن الجدرى الذى قتل من قبل اخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ، ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين اثرا من ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الامام . ومع ذلك ظفر ورتلى بالمكافاة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة » فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق مرتعا للاحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس فى الاستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى أول يوليو ، رسالة أشرفت على شفا الغرام باسلوب أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الآستانة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية المنمقة المألوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول أغسطس ، عبر ورتلى وماري وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة أخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تأثيرها على ، وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى أعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاح ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكنني لم أكن في حياتي ميالة ولو نصفه ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفي ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها اياه « صديقها فقط » . واحتفظت ماري بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشـــعراء الأحياء .

وبلغت الجماعة الاستانة في مايو . وهناك عكفت ماري على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركي والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء في الحريم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم في تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدري ، وطعم الدكتـــور ميتلاند الجراح الانجليزي في الاستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أي رسائل في هذا الجانب من جوانب مدام دسفنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بأنها أديبة ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها « أن أحدث اللذات التي صادفتها في طريقي هي رسائل مدام دسفنييه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلي لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك انصـحكم بالا تقذفوا بأي منها في سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيداته مأخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاح والحب . وقد تصور تركيا في خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعسات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام ـ حتى الخيـــار ـ مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر في تشوه جسده محزونا « انني شخصيا قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الاستانة فحســـب ، بل الى أرجاء الهند التي يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال صورة ، ... ويرين في التشوهات دلائل الرضي الالهي » . ويقول انه سيعتنق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) » . واقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكانني ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطربنى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الآستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفـــا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نللر . وعقب ذلك دفع بوب لنللر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجـــاد نللر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممتلئتان امتـــلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب — وقد أشاد بهما جاى فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمّز ،
وسيماءالجلال والصدق السعيدة ،
ونظير هذا من تألق فى الذهن الرفيع
حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،
علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،
عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجــه ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها الفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشترت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطا مدمرا ، فاصبح الألفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فارسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الاستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسنرى فى مكان لاحق تاثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجاة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهـــام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العـــالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات بسهام يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن ســـويفت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شـــعبية ظـن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصـــائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الاعيبك يا ليدى مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بأفراخك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « ســـافو الهائجة .. .. التى ابتلاها حبها بمرض ... » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهرى (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيـــار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى تويكنهام • وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب • وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول • أما ابنتها التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة • وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة • ولابد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) •

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكها وغير مساره • ذلك هو فرانتشسكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد أثار بعض الضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص • وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن • ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وبالليدى مارى عن طريقه • ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا، شابا • وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين • وبدا أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) • فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأى طريقة أكتب اليك • فمشاعرى أقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها • فلكى تغتفر لى رسائلى يجب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى • واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسي • فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدوءها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل • فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » •

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله • وكان هرفى قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته • فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا فى الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تذيع على لندن كلها غزوها الايطالى بهذه العبـــارة المزهـــوة Veni. Vidi; Vici « جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : أخشي أن أسيء اليك بارســالى هذا الخطاب حتى ولو كان قد نمى أن أسرك · والحق أننى مجنـونة فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست واثقة من خواطرى ·· كل ماهو مؤكد هو أننى سأحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » ·

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغــم تهديدها بالانتحار · أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقـول « فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » · فقد عرضت أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها فى عزلتها ثلاث سنوات · ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بانها فى حاجة الى رحلة لايطاليا · وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف الانسان المهذب · فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها راتبا ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها دخلها السنوى الذى أوصي به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها · وســافرت باسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين · واتخذت مارى لها بيتا على قناة البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيــه صــالونا ، واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبــلاء البندقية وحكامها ·

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت · ورآهـا هوراس ولبول هناك ، وأرسل الى هـ · س · كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنبأتك بان الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضــحك من الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) · وتقرع الليـدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولابد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ، تدهش أى انسان لم يسمع باسمها . فهى ترتدى قبعة بشعة (تربط تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات ـ غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض .. وقد قامرت مرتين أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الأميرة كراءون حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبنى القليل من أعمالها (١٣٨) » .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملة توخيـــا للراحة ، وما من شك فى أن وجه مارى كان منقرا جـــدا ، ولكن ليس بالزهرى بالتاكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى مارى استياء ولبول الشاب بمصادقتها لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيـــه . ولعل الليدى مارى كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن ظنت أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليهـــا ، ولحقت به (مارس ١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ، وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضي هو الى برلين ، وهى الى جنوه . هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجـــه الى مركبتها ابياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى مارى العفن ،
اذهبى بها الى أقصي ركن فى ايطاليا ،
وأنزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذي مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضوا فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركا معظم ثروته لابنته ، و ١٫٢٠٠ جنيه فى العام لأرملته . وعادت الليدى مارى الى انجلترة (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت أحدى وعشرين سنة ، اما لأن موت زوجها ازال عقبة خفية فى سبيل رجوعهـا ، واما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير ان الأجل لم يمهلها اكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها لالجاروتى ، وأنباء كتلك التى أشاعهـا عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوأت سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيـو بدأت الليدى مارى تشكو ورما فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهور من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهـدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجا لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنـع نشرها . على ان الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتهـا ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد

أحرقت الليدي بيوت قبل إن تموت فى ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ، ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها فى ١٨٠٣ ، أما الرسائل التى كتبتها لالجاروتى فظلت طي الخفاء الى آن اقنع بايرون جون مرى بأن يشتريها من صاحبها الايطالى (١٨١٧). ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليـدى مارى تشارك بوب ، وجراى ، وجاى ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ، الفضل فى جعل أدب انجلترة أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعـــا وحيوية وتاثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ ـ ٥٦

١ ـ المصورون

لم تكن انجلترة التى سطع نورها الأصيل فى عالم الأدب والسياسة سوى تابع متواضع فى دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها فى التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجواؤها المعتمة ، فالأجواء أعتمت فى الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حفلت هولندة بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش احد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن انجلترة الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة فى التجارة وفى الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزى، لأن الفن ينمو ويترعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندة كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزى ـ باستثناء ملتن ـ خلال فوضي الجمهورية (الكومنولث) . وقد طاطأ التأثير البيورتانى رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليم الثالث والهانوفريين ، ثم اتخذ فى الميثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة فى الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع فى تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . واثرى خزافو برمنجهام من صنع الآنية من اللك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، واسمه جون بسكرفيل ، مبلغا أتاح له اشباع هوايته بطبع طبعات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الروكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والأثاث والأوانى

وفضة شفيلد وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجـرات فى قصر تشسترفيلد وسترويرى هل .

أما المثالون فكان الناس قد بدأوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان اقطاب المثالين فى انجلترة أجانب المولـد وان أصـبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكرز من أنتوبرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثـال دوق بكنجهـام ونورمانديه فى ديـر وستمنستر . وكان أعظم هؤلاء الاجانب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترة فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعـاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصـفى المعروض الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبتـه الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفته بان ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من افاضـل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشسترفيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبيـاك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن باللاديو . ذلك أن الثـروة المتصاعدة التى حققتها الطبقات العليـا التى اثرت وهى متبرمة فى ظل السلام الولبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات باللاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترة بالأعمدة والأعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل كتابه « فتروفيوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيـل البللاديويين ، ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جبز (١٧٢٨) الطـراز دفعـة أخرى بتاليف كتيبات فى العمـارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، ايرل برلنجتن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص باللاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات باللاديو للصروح القديمة . واحتـوى بيته الريفى فى تشزيك على نسخة من « فيللا روتنـدا » التى بناهـا باللاديو فى

فتشنتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجتن راعيا سخيا للأدب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى. وغدا كنت احب الفنانين وأحفلهم بالمواهب فى انجلترة ، بعد أن سكن قصر برلنجتن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم الأثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس لسيدات المجتمع ، ونحت تمثال شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير ببيكادللى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجتن الى مجلس مدينة لندن تصميم كنت البللاديوى لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو بأن باللاديو كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس الأب التكليف (وكان بروتستنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك العام بدأت الحفائر فى هركولانيوم ، وأفضت الكشوف فيها الى الحفر عن بومبيى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود « أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت هذه الكشوف للحملة الكلاسيكية فى انجلترة دفعة لا تقاوم ، ووضعت حدا لوفرة التزويق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهيم » الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى آخر كان يرعاه برلنجتن ، قصر تشسترفيلد فى شارع كرزن .

وقد فات الباللاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترة وغيومها . وأخطأ كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها لشتاء انجلترة ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بدخولها ، أما قاعة هوتن التي شادها لروبرت ولبول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التي تلقف التيارات الشديدة البرودة . واستخدم جيمس جبز ، أحد تلاميذ كرستوفر رن ، الطراز الكلاسيكي استخداما رائع التأثير في كنيسة سانت ماري — لستراند بلندن (١٧١٤ — ١٧) ، وبرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر . وأضاف جبز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التي بناها رن برجا يعلو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوفا بالخطر . وتوج عمله في ١٧٢١ برواق كلاسيكي وأعمدة كورنثية في سانت مارتنز — ان — ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق في مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ — ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبة .

اما بهاء باث المعماري فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هي ربط المباني المفردة في كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدأ — وأكمل ابنه جون بكفاية — « الهلال الملكي » الضخم — وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا — دمرت تدميرا شديدا في الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان بنى وود الأب والابن « السيركس » (الميدان) (١٧٥٤ — ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها افريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جيتزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود — دون أن يكمل — لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكي واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف ألين الذي اتخذه فيلدنج نموذجا صاغ على غراره « سكواير أولورذي » . وبنى وود الأب لألن قصرا فاخرا بلاديوي الطراز في برايور بارك (١٧٣٥ — ٤٣) ، خارج باث بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد ألن في برايور بارك ٢٤٠٫٠٠٠ جنيه . وأوحت نزوة المباراة للنبلاء والتجار باقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهي . ويقول

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عداء اللورد تاونشند الأبدى ببنائه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لتلتن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فأذعن لها تحت ضغط الالحاح والى حد أشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى أوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترة ، وحتى فى ارلندة الانجليزية ، أمثال هذه البيوت المظهرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الآفاق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجوود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريف الانجليزية (٢) .

وأودعت معظم الصور فى انجلترة ، وأخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الأعيان الذين داعبهم الأمل فى أن يخلدوا على القماش بينما تبلى أجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترة فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى أن رتل العربات المقتربة من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنللر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ استاذه بانه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وبنتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهيم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لانه زوج ابنته لاعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ - وليم هوجارث : ١٦٩٧ - ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للاسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيهات) كبيرة لكتاب بطلر « هوديبراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة استاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولمسرحيتى هنرى الرابع ، ولاوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلستاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى اغلاله والحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الاطفال » فقد تلذذ باجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تاته بثناء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فاكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى اسبوع واحد على مال اكثر مما يستطيع ان يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . ونندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرارا لمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمامل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صوره هوجارث باهانة مؤذية . ورفض اللورد أن ياخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فارسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد - واذ وجد أنه لا يريد أن ياخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى المال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لان المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » ..

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كاى فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) اخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من تقاليده . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولبة » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازىء لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى اسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتسم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة افلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الآنسة مارى ادوردز (١٢) » ميتة نوعا ما ، فان الكلب ـ وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث ـ يبعث فيها الحياة ، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صوره كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » ـ وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصبية التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتالقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . ففى ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أفطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا أمينا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكتته ، وأصحابه ، وكأسه ، وروزبيفه ـ روزبيف انجلترة العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان. ووراء حبه للقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد ادخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى آثامهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكد المضنى . وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثأر لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا اجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضالة ربحه من صوره الى الاتجاه الذى أكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن انحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد .. وبما أننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصناعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت أفكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق فى أى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ ستة صور سماها « رحلة بغى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبغاء بل للسرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفض القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الأراضي المنخفضة ، وفى ألمانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبرأ من الاثم ، فقد أطاق فى غير اشمئزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صوره المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت الفا ومائتى مكتتب، ونيف ربحها الصافى على الف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . واقبل الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السنوات القليلة التالية ، لا سيما « مهرجان سذيرك » ـ وهى لوحة « بروجلية » انجليزية ـ ولوحة جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة فاجر » ترى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجاة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد الى لندن ، ويستمتع بالحانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ، ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهله عوراء غنية ، ولكنه يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ، ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا . ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ اقر البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ، وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث » أعطاه حقا يعادل حق التاليف على صوره المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ، فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن انجح فيما يسميه المغالون فى اطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤)» . وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صورا رائعة كان عليها أن تنتظر قرنا لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاح بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وينام قطه فى رضي خلى من الهم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن هوجارث تبله بحسناء نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوما من اغراء جسد الانثى ، ففى محفورته « الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلع على هذا الجسد مزيدا من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . والطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أغلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الأعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات أكد فيها المنقاش درسا أخلاقيا بقصة . ففى المشهد الأول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الايرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى أذنا مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكا من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتللا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فتتثاءب بعد أن قضت الليل ترفه عن اصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا أيضا ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . أما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجرأ حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد يأتى بخليلته الى طبيب دجال ليجهضها . والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفها ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس أمسكها زوجها متلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب . وفى المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسمه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه أنذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيها ثمنا للوحات وأطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٫٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أغلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوحته « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الأطاحة بالهانوفريين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحى لندن المسماة فنشلى . يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناع فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فأما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقرأ الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انها استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لأشد فخرا برسمى لهـــذه الصــور مما لو كنت صاحب رســوم رفائيـــل الهزليـــة (٢٩) » . وفى سلسلة « صـــور أربع لأحـــد الانتخابات » (١٧٥٥ ـ ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمنا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارث المطبوعة على انها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبه صديقه فيلدنج أكثر من ألد خصومه وليم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجـــال والنساء هم ممثلى الذين يراد منهم ببعض الحركات والايماءات أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صوره المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى ـ الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايدويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهـــد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارث فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بانه لا يصور غير

حثالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لانه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لانه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بانهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الأحياء يتضورون جوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتاييد من التقاليد ... لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثناؤهم عليها ، لا بد أن تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين ارقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض ان يخضع رأيه لأمثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فانديك أو للى أو نللر ؛ لا بل انه اطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقبا هزليا هو « الأساتذة السود »، لانهم ألقوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باربعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، تشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجسموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيلا والملابس الزاهية والأيدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشترى المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهات الأربعمائة التى طلبها هوجارث ثمنا لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتاليفه كتابا . فعلى لوحة الألوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكلبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطا ملتفا لاح له أنه العنصر الأساسي فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فاقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتاح له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصـــورين لكل أعمال جلالته » ، وهى وظيفة أتته بمائتى جنيه أخــرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . ففى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهمـــا لأنهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشـــمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشـــا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رســالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصـلت عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ اكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمـانه . وفى ١٧٣٤ افتتـــح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعيته مؤثرين عليها المثاليـــة الفاشـــية يومها ، مثاليـــة رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحاليـــة مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفســـه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير

القرن الثامن عشر (٣٥) » • وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليـــوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمـــع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى • ومن العسير تقييم هوجارث كفنان، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترة الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية • كذلك فهمـــه فيلدنج فقال فيه « أكاد أجرؤ على التأكيد بأن عمليـه هـــذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضـــية الفضيلة •• أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التى كتبت اطلاقا فى الأخلاق (٣٦) » • على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الانجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز •

٣ ـ الموســيقون

من ألغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترة التى اسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية الاقتصاديين والسـياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة ـ انجلترة هذه أقفزت نســبيا فى اشكال التاليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الأولى • وربما وجدنا بعض تعليل لهـــذه الظاهرة فى زوال الكثلكـــة من انجلترة ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشـــعائر اللوثرية فى المانيـــا والانجليكانية فى انجـلترة تطلبت الموسيقى ، فان أشكال البروتستنتية الأكثـر تزمتـــا فى انجلترة وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لأى موسـيقى تزيد عـلى الترنيمة الجماعية التى يرنمها المصلون • وحل محل أساطير كنيســة روما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباهج الايمان ، عقائد جبرية قاتمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم • وماتت أغانى انجلترة الاليزابيثية الغرامبـــة الشعرية فى الصقيع البيورتانى • وقد جلبت عودة الملكية من فرنســـا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كثيف عــلى الموسيقى الانجليزية من حديد •

هذا باستثناء الأغانى التى تفاوتت من الجهـــوريات الجماعيـــة المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميــزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيليات شكسبير . وكلمة glee هى الكلمة الانجلو ـ سكسونية gleo ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرح ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت أندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير ـ « هبى ، هبى ، يا ريح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيقى » ؛ وما زالت هذه نسمع فى انجلترة . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا » ! » وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانيا القومى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صوره المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك
لبحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،
حفظ الله الملك .
ربنا انصره نصرا عزيزا
واجعله سعيدا عظيما ،
ليملك علينا طويلا ،
حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،
وشتت أعداءه ،
واجعلهم يسقطون ،
وأحبط سياساتهم
وأفسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
احفظنا اللهم أجمعين (٣٧) » .

واقتبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحنت به أغانى وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة الامريكية — التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنيـــة شراب انجليزية عتيقة .

ويدل رواج الأغانى الرقيقة فى انجلترة على ذوق موسيقى واسع الانتشار . فكان فى كل بيت هاربسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموســيقية ، وتوفــر من العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيــولا ، واحدى وعشرين فيولنتشللو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ، وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وســت ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائيــة من تســعة وخمسين سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا — وهذا عدد كان خليقـــا لكبره بأن يرتجف له هنــدل فرقا فى مقبرته بالدير . ولم يدخل الكلارينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ، وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات شكره — مع تلك التى لحنها هندل وبويس — هى تقريبا موسيقى انجلترة الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية (أى الأوركسترا) وعازف الارغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأرغن أو الهاربسيكورد وما زالت بعض أناشيده — لا سيما « على أنهــار بابل » — تســمع فى الكنائس الأنجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقــل أغنيتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لاحدى تمثيليـــات

جاريك الايمائية ، و «رفقا فى هبوبك يا نسيم الجنوب » وهو لحن فى كنتاتا « سليمان » • أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لآذاننا التى عراها الذبول •

كان الشيء المثير الوحيد فى دنيا الموسيقى الانجليزية فى مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الأوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الأوبرا لم تستهو المزاج الانجليزى الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فى ١٧٠٢ • وفى ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكولينى• وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترة ، وكادت تجن بصوت فاريناللى • فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فى لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها • وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو • وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية •••• ان حفدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيليات بأكملها تمثل أمامهم بلسان لا يفهمونه » •

واستنتج من حبكات هذه التمثيليات انه ما من شيء فى الأوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » • وسخر من المناظر التى يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية ــ وكأن اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الأزمات • واعترض على المناظر المسرحية المسرفة ــ على العصافير الحقيقية التى تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى •

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التى فشلت (٣٨) • وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت•

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألمانى وفد مؤخرا على انجلترة ، هذا الى أن الكلام كان بالايطالية • ومما أفزع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما بروداه ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بألحانها الأكثر بساطة (٣٩) • تلك هى بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى •

٤ ـ هندل : ١٦٨٥ ـ ١٧٥٩ (٤٠)

أ ـ نشــــأته

كان جيورج فريدرش هندل★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ • انتصر فى ألمانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى انجلترة طوال النصف الأول من القــرن الثامن عشر • واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كأنه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا •

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سبستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر • ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وأتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موســيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكترثان للموسيقى ؛ فأبوه كان الجــراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس ـ فايسنفيلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى • ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأرغــن والهاربسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعــزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بان يدرس عــلى فريدريش تساخاو ، عازف الأرغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله • وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا • فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى ألمانيا يوقع باســمه Händel (هنــدل) ، وفى ايطاليــا وانجلترة Hendel (٤١) •

السوناتات (التى بقى منها ست) ، وحذق العزف على الأرغن الى حد حمل تساخاو والأبوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف أمام صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التى ستصبح عما قليل ملكة بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات . أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الأمر. وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف أرغنهم السكير . أما العبقرى الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضي عاما واحدا هناك اقتلع كل جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ، حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان فى هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من العمر اثنتين وعشرين عاما ، و « التينـور » الأول فى الأوبرا ، الذى أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشـيخ بوكستيهودى يعزف ، ويتحسسا امكان خلافته فى العزف على الأرغن فى كنيسـة مارينكرشي ، ووجدا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظرا الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سـخف المبارزات فى أى مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتـوبر ١٧٠٤ أخـرج ماتيسـون أوبراه « كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشـبة المسرح بعد أن يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى ٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحـق الصديقان الأوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغـام المديح من رعاة الأوبرا

والمارة . وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر . وانقلبت المأساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطليها ، وراحـــا يجتران سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور التينور . وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل .

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالايطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع . ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها . وضعفت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف . وكان الأمير جوفان جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدح حتى خدم المطاعم بالأغانى الجميلة . واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته ماتئتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيـــه فردينـــاند راعى الأبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ . فلما وجـد جيـــوب فرديناند منيعة نزل الى روما . ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد . وعزف هندل على الأرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفـــا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحـدا لم يرد أن يخـــرج أوبراه الجديدة . هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها . ونفح فردينـــاند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخزف . ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست عشرة دارا . ومن ثم مضي هندل الى البندقية .

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، وملكة الأدرياتى مبهورة بســـحر اليسساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « متريداتى أوباتورى » ، فلا مجال فيها لألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجـد له صـديقا وفيـا فى ابن اليساندرو . وتقول الرواية انه حين عزف هنـــدل وهو مقنـــع على الهاربسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » . والصداقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاربسيكورد فى ذلك المعهد أشـــبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشاز التاريخ . وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) .

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا أفضل . فقد بلغ نبأ « رودريجو» العاصمة ، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أشد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى . وبنى المركيز دى روســـبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة »، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » . غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون . فلما أخرج الكردينـــال بييترو أوتوبونى أوراتوريو هنـــدل « سريناتا » أتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا . فتمتم فى تادب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسي الذى لا افهمه (٤٣) » . وأخذ هندل الكمان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة . وسامحه كوريللى .

بقى على هندل أن يغزو نابلى . وتقول رواية لا يعتمد عليها ان هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والأبن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) . وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بان ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل ابان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمـه وبموسيقاه . وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجـل استطاع أن يكتب مثل هذه الالحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنهـا بدد حرارته على أجنحة الغناء . أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى اقام فيها هندل فى نابلى فهو — على قدر علمنا — لقاؤه بالكردينـــال فنتشنتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية . وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم . وأتم هندل المهمة فى ثلاثة اسابيع . ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فاسرع اليها هندل حاملا موسيقاه .

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجربينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التى عرفها هندل الى ذلك الحين · ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم ، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصـــنعة قل أن أدركهـــا حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو ســكارلاتى ، فهتفـــوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » · ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو المتـــاز جوزيبى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تســع وعشرين نغمة ·

وخطب الكثيرون ود هندل الآن · فنصحه تشارلز مونتاجيــو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر · لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يســـتطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هـــؤلاء الايطاليين المتقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام المانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله · وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفـــرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره الف وخمسمائة كراون ، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين · وفى خريف ذلك العام ، طلب الأذن له بزيارة انجلترة ، فحصل عليـــه ، ووعد بالرجوع سريعا ·

ب ــ غــزو انجلترة

كانت أوبرا لندن فى محنة · ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيهـــا الباصو بوسكى ، ومغنيتها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها الســـوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقـــا غنى فى مسرحنا (٤٥) » · ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجــلالة) ، ومسرح

دروزى لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرءوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامرة بباروكاته وأكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذا عن « تحرير أورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تحرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن اقبلت عليها ، وتغنت بألحانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هذا ، لحنان هما Lascia ch'io pianga اتركنى اننى أبكى و Cara Sposa يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمائة جنيه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هندل فى سخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الاوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الأوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسدا فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير الناخب ؛ وأغلقت دار الأوبرا فترة الموسم ، فألف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الأوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ استأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترة . وأذن له الأمير الناخب ، ربما وهو شاعر أن انجلترة ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، التى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللفور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همته ،

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيوس) . وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصالات شباك التذاكر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافأ المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لاعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الأدب والفن .

وأقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تاقت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل آن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها . وأثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل . وأثابته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه . اما وقد ظفر بالاطمئنان والرخاء ، فانه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول أغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترة باسم جورج الأول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الأحداث . فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمنيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلترة الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمائة جنيه فى السنة .

ووكلت اليه الأميرة كارولين تدريس بناتها ، وأضافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الآن صاحب أعلى أجـــر بين المؤلفين الموسـيقيين فى أوربا .

فلما غادر جورج الأول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفـر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى أمه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لأرملة معلمه القديم تساخاو التى أخنى عليها الدهـــر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطـــلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون - دوق تشاندوس فيما بعد - هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدلسكس ، ويحل محل قائد الموســيقى فيـه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتأليفه موســيقى « أوبرا الشحاذ » . هناك كتب هندل « متتابعات موسيقية للهاربسيكورد» وهى « فنتازيات » على الهاربسيكورد بأسلوب دومنيكو ســكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نشيدا تشاندوسيا» وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاى سمها « آسيس وغلاطيـــة » ، وأوبرا « رادامسيتو » .

ولكن من يخرج الأوبرا ؟ لقد هبط عـدد رواد مسرح صـــاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقـــاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير ١٧١٩) الأكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الأول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى أوربا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى المانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هالة الى انجلترة ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشي اليهــا نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألمانى العظيم الذى غزا انجلترة ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « رادامسيتو » أمام الملك ، وخليلته ، وجمهور تألق بالألقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى الالقاب

ليدخلوا . يقول مينويرنج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « أجريبينا » قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم ايرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشينى . فاقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشينى « آستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا آستارتو والوصول بعروصها الى العشرة . أما المعجبون ببونوننشينى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولا عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشينى ، واحتشد الظرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة .. وبدا أن بونونتشينى قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كريسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشينى هى « جريزلدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشينى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشينى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمان لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجينى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهندام ، غبية ، شاطحة الاحلام (٤٩) » ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتهـا » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعـرفى أننى بعلزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الالفان من الجنيهات ستتبعانها ، فانها اذعنت لأمره . وفى حفـلة الافتتاح (١٢ ينـاير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هـذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : ـ

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهـيرة والأوبوات الواقعيـة ، لا القياثير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » الا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكمـا عظيمـا فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقـوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليـو (أريوستى) ... وفى لندن ووستمنستر ، فى كل حديث مهـذب ، يجمع الرأى على أن سنسيئو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونبش التاريخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافيـوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكبيو ، والاسـكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشينى باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحـن مؤلف آخـر هو أريوسـتى أوبرات عن كريولانوس ، وفسـبازيان ، وارتاجزرسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثـلاثى بوصـول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف ـ سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هنـــدل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع امسـيات ، ثم انقســـموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجـر انصـــار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصـــيحات الاســـتنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشــد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين ـ وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الايطالية فى انجلترة . أما الضربة القاضية فقد كالها لها واحد من أرق الناس فى لندن . ففى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشــحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفتا أغانيها المرحة الذكية البذيئـــة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش ـ هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحـــول جمهور المسارح بجملته تقريبا عن هندل وبونونتشينى وأريوســتى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجـلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوابر الايطالية وسخر من حبكاتها البلهاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومســـات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبلاء والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الايطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات ـ سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلتاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تاتيا بربح . وفى ٥ يونيو شهرت الاكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها الأخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الأكاديمية الجديدة للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه ـ وهى كل مدخراته تقريبا ـ وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بألف جنيه فى العام معونة له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ، لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم ديوكا وبلابل جددا . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنبيالى فابرى التينور ، وآنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف ليزور أمه آخر مرة . وكانت يومها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهلم فريدمان باخ ، الذى أتاه بدعوة لزيارة ليبزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان سباستيان باخ الا لماما ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب شهرته يوما ما . وهرول قافلا الى لذدن ، والتقط فى طريقه الباصو الهامبورجى يوهان ريمنشنيدر .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر ١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير باوبرا « بارتنوبى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمنشنيدر الى القارة ، واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ، ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لندن (٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم الحانه تاثيرا . وامتلأ مسرح صاحب الجلالة بروداه مرة أخرى . واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا طيبا .

ولكن الكفاح للابقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ

يصبح أشد عسرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهاك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترة ، ولكن انجلترة بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الألحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انسياب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامـدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعته انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيطل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

جـ - هزيمتـــه

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرســـاة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغـــرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومـرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترة . واقترحت الأميرة آن عرض « اسـتير » بمسرح جـــلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « اوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفـردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضا خمســة فى أول شهر لها .

واخفقت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلاطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشـــاهديها ، وارتد هنـــدل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هـــذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخـرج هنـــدل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هندل الوقح ... المستبد ، المسرف (٥٣) » على موســيقى لندن . ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد أوتوماتيا مودة فردربك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثانى وعدوه . وأخطأ هندل ـ الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه ـ بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانهما متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فأضافت الى تعاسة هندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الأشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هندل ، وكوتزونى بالمجىء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز ان فيلدز ، اخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أمــا هندل فقد قابل هذا التحدى الجديد باوبرا تناولت موضــوعا مشابها مشابهة تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقيت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الأشراف ، ونقل هندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، أشهر المغنين الخصيان ، المعروف لأوربا كلها باسم « فارينللى » . وقد نفصل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا ان نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « أرتازرسي » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترة الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعــين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى ـ وقابلها هنــدل باوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنيـــة غنى فريدا فى موسيقاها الآلية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين،

ووعدت بأن تغطى نفقات هنـدل • ولكن حين أخـرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت في مرات عرضها « أرتازيرمي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشينا» (١٦ أبريل) أن اقفر مسرحها من رواده ـ ولو أن الحانا أوركسترالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليـوم • واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطبب آلامه الروماتزمية بميـاه ينابيع تنبردج •

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» • كتب معاصر أن جمهور الألف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن ســمع فى لندن (٥٤) » • وتعزى هندل بربح منهـا بلغ ٤٥٠ جنيهـــا ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتمل اعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأرغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف ـ المخرج ـ القائد ـ العازف اليائس الى الأوبرا من جديد • وفى ١٢ مايو قدم « أطالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز • وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبللو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى » وهـو من أجمل وأخلد أغانيه • وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بألف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه •

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ • وملأ هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقـة « جوســتينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببه ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » • ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنــوعة حطمه • وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة • وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقته • ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مثقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل • وبعـــد عشرة أيام حلت « أوبرا الأشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الأوبرا العظيم فى انجلترة .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه - هذه كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر انجلترة ليستشفى بمياه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول انه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات .. .. ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الأرغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف. وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل ألف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احداهما وهى « سرسي » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهيرين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستاجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثارة ؛ وفى ٢ مايو ازيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أتته باكثر من ألف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائنيه ، وكان احدهم يهدد بايداعه سجن المدينين . ولكنه كان مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يتلق من الاكتتابات ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ - ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدا هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب والاوجاع تهز بدنه .

د ـ الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اسـمه بتفضيله اياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الأوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسمى وتلميذه اليساندرو سكارلاتى الأوراتوريو فى ايطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من ايطاليا الى المانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهـذا هو التراث
كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهـذا هو التراث
الذى بلغ غايته فى « مسيا » "Messiah" هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى «شاول» و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نصا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس. لقد كانت فى جزء كبير منها موسيقى دينية، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس. وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترة ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته سـوى الأمة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الآب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترة ، فاستجابت فى فخر لأوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » باوراتوريو « شـاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « ان مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بان يخلد هذا العمل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هى « اسرائيل فى مصر » . هنا جعل الكورس هو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترة الى الحرب مع أسبانيا بسبب أذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حتى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناى الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حين اتفق « دق الطبل الراعد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحرب المدمدمة فى الشوارع . وعاود الأمل هندل ، وجرب أوبرا سماها « أمينيو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللندنى قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . ففى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعياء ومراثى أرميا وحجى وزكريا وملاخى — وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا — وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هى « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معرف خلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعمـــاله فى دبلن . وبدأ له أن الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة أنه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أرلندة .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحـــا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلتان فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغاثة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر . . . . سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسـيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المســـماه « المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتـا الكتدرائيتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأرغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا . . . اعترف معه أعظم الحكام بأنها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . وأضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لأثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخـــرى الى الرجـــال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسـبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموســيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضي قدمت أوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » . . . . وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للاعراب عن المتعة الفائقة التى أتاحتها للجمهور المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر الســمو والفخـــامة

والرقة ، التى واءم بينها وبين أنبل الألفاظ وأجلها وأشدها تأثيرا ، لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين . ومن الانصاف لمستر هندل أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع بالتساوى بين جمعية اغاثة المسجونين ، ومبرة العجـزة ، ومستشفى ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) ».

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف مرة منذ ذلك التاريخ ، ومع هذا فمنذا الذى مل تلك الالحان ــ سواء الهادئة منها أو الفخمة ــ ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن فادى حى » ، و « ليتمجـد اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين الحاضرين قائلا « لتغفرلك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة ــ كل هذا اجتمع لبجعل من هذه الالحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممتلىء الجيب وقد عقد النية على أن يغزو انجلترة من جديد . ولابد أن قد سرى عنه غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبيـــاء » (١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن، قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على ألا يعجب بشيء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلعه « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة الحان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تاثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك ـ الذى أرسي يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هللويا » ـ أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . ففى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاساته ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لاعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقرية والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من معجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص آذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها انجلترة وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة. وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على اقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب ايرل شافتسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط اختلاطا تاما (٦٤) » ٠

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين ٠ واتخذ هندل انتصار يهوذا المكابى (١٦٦ – ١٦١ ق ٠م) على خطط أنطيوخس الرابع لفرض الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة ٠ وقد أحسن الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت اعادة عرضها خمس مرات فى أول موسم لها ٠ أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة، فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته ٠ واعترافا بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ، وسليمان ، ويفتاح ٠ وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانوريو « تيودورا » – وهو اسم مسيحى – من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشسترفيلد المسرح قبل نهاية العرض معتذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » ٠

هـ – بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى هندل ٠ ذلك أن روحه المتعددة الأشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لأى شكل من الأشكال الموسيقية الكثيرة ٠ فالأغانى التى مازالت تمس أوتار العاطفة ، وقطع الأرغن أو البيان المتناهية الرقة ، والسوناتات ، والمتتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ، وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ، والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسبيحات الشكر ، وترانيم أسبوع الآلام – كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ، منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات الهاربسيكورد » تبدو اليوم على الهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد ٠ وهناك مجمووعة ثانية من المتتابعات

بدأت بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرحـــا فى « تنويعات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما اخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسيمى وكايزر وارتفع بها الى أوجها ، كذلك اخـــذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » ـ لآلتين أو أكثر لمغن واحد او مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركســترا الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه الكونشرتوات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيولنتشيللو بمجموعة وترية ، وبعضها يبدو لنا اليوم رتيبا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشرتوات ممتعة لآلة منفردة ـ الهاربسيكورد أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصـــة للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل . وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نســـميه اليوم « ارتجالا » cadenza ، حيث يستطيع العازف أن يطـــلق العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هـــذه الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الأول « رحلة » ملكية فى ذهبيات حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الديلى كورنت » عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنـــة نزل الملك الى النهر عنـــد هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقة نيوكاسل ، وكونتيسة جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليـــة القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموســيقى ، زود بخمسين آلة من جميع الأنواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث .. .. أبدع السمفونيات ، التى لحنها المستر هنـــدل خصيصا لهـــذه المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التي هي اليوم أبقى وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية . ويبدو أنه كان هناك في الاصل احدى وعشرون حركة — وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء في تطوافها المشجى ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحة متألقة ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدهد خليلات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية في الذخيرة الاوركسترالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للألعاب النارية في جرين بارك احتفالا بصلح اكس — لا — شابل ، ووكلت هندل بتأليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى في حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين — الكبير في ذلك الوقت — للاستماع اليها ؛ وبلغ التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذي يعبر كوبري لندن ثلاث ساعات — « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أي موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفي ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضى الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول في الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتألقت الألعاب النارية في السماء ، وشبت النار في مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذ كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التي ألفت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترة آخر الأمر الى محبة الألماني العجوز الذي ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل في نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغتفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعاليه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهـــور بمظهر الفاتح ، أو على الأقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى ســـلوكه جلافة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضـــب ، ويوبخ جمهـــور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنيـــاته باســـتعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحمت كوتزونى وبوردونى بالأيدى على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنهيا المعـــركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحـــا على النقـــاريات ليرافـــق ســـورة غضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالوثب على الهاربسيكورد لأن عـــزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سيأتون ليروك تقفز أكثر من الذين سيأتون ليسمعوك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل فى براعتها تعليقات جوناثان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضي الالمام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة ـ « سيقان رسمها بعيده بعض الشيء عن النوتات التى تنتمى اليها ، ونوتات واضح أنها ضلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عينى اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . استأنفت العمل » . ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضـــيع فى الحزن ... كما يضيع النهار فى الليل(٧١) » . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز » . وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشـــير الى انه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التاليف والقيادة سبع سنين اخر . فقدم فى ستة اسابيع (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيهـــا « شمشون » واثنتين « يهـــوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغشيا عليه ، واقتضي الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن ألحق بالالة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصينه ملحقا أوصي فيـه بألف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لثلاثة عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (عنية القيامة) ، ١٤ أبريـــل ١٧٥٩ ، ودفـــن فى دير وستمنستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روءى فى مثل هذه المناسبة بل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) ».

ولقد ترك ثروة موسيقية لا تصارع ، ستا وأربعين أوبرا ، واثنين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقـدمة ، واحـــدى وســـبعين كنتاتا ، وستة وعشرين كونسرتا كبيرا ، وثمانية عشر كونشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخم ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكـررا ، وبعضـــه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينبوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلوديوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من اعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت ونت نماذج ايطالية ذهبت ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موسيقاها الموجـــودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واختصارات أكثرها غير مفهـوم الآن ، وقد كتبت لأوركيسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوســـط من

أجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات — ولكن حتى هذه الاوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتهضمها — وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهملة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدراما ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التاليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تاليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترة عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقيمت حفلتان اخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحبت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٫٥٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لاحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فورتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ – فولتير فى انجلترة ١٧٢٦ – ٢٨

كان يعيش فى انجلترة عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيتبوأ فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هندل · لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينتش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو · وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة · فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطيها الزوارق والأشرعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطىء رجال ونساء يختالون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة · وأثارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة · على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل اليه خطاب تحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أشهر افلاسه · وانقذه افرارد فوكنر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فاقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحى لندن · وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف ·

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الأدب أو السياسة الانجليزية · فاستقبله روبرت ولبول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوقة ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى منحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه ·

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهما لاتزال كما هى (٧٧) » · وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلهفه لقتال روهان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن تنظيم شئونه المالية · وعاش ثلاثة أشهر – بعضها مع سويفت – ضيفا على الايرل الثالث لبتربورو · واستمتع

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجتن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنج ، وطومسون ، ويذج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الأولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الأدب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالأدب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصلاح الاجتماعى يجىء على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويفت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى لملحمة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير — الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمباذل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترة بزيارة بوب . وصدمه منه تشوهه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بوب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجريف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان يوما ما مسرحيا عظيما أراد أن يعتبر « جنتلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتها الوزارة الانجليزية قبل ولبول

للمؤلفين ، وقارن بين هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ، الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ، وبدأ يدرس نيوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن محل ديكارت فى فرنسا . وتأثر تأثرا عميقا بالجنازة الرسمية التى شيعت بها صفوة الانجليز نيوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة الأنجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح ربوبيا قبل زيارته لانجلترة — اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني وجاسندى وفونتنبل وبيل — فانه الآن اتخذ دعما له من ربوبيى انجلترة — من تولاند وولستن وتندال ونسب وكولنز ومدلتن وبولنبروك؛ وسيسلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء تأثير لوك الذى امتدحه فولتير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية. ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهرطقين المصرين على هرطقتهم سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ، وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترة تعصب دينى أعمى ، وحتى الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ، وسره أن ينبأ بأن بنسلفانيا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ، ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريبا . وهذه الحقوق هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛ وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ وألا يحاكم فى أى أمر الا طبقا لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى يفضله أيا كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها الا أعضاء الكنيسة الأنجليكانية (٨٦) » .

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيليات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشرة حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بان حكومة انجلترة رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفزه حفزا خلاقا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترة فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغوة على السطح ، وحثالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لآثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر» ، وفى دفقة من حماسته دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحتقر الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترة ما حام حوله حينا من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللندنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترة ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتتاباتها ، بما فيها جورج الأول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويفت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفدت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت بثمن باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠٫٠٠٠ فرنك · واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترة (٩١) ، أما الباقى فقد استثمره بغاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بأنه الأصل فى ثرائه · ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترة ·

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره · فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائبه · وأنفق جزءا من سنيه العشرين التالية فى تعريف فرنسا بهما · كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » · وكما أن انجلترة على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسة لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسة لويس الخامس عشر من انجلترة الاعوام ١٦٨٠ ــ ١٧٦١ · ولم يكن فولتير وسيط التبادل الأوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو ــ هؤلاء ايضا أتوا الى انجلترة ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية · وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس · قال :

« لقد استعرنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ··· والألوان الأساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطيها المدارس (٩٢) » ·

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا · لقد أشبهت انجلترة الجعة ، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فمه · والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة · ويبدو أنه منح الاذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما · ولا علم لنا متى غادر انجلترة ، واغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ · وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان ــ جرمان ــ أن ــ ليه ؛ وفى ٩ أبريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصته دون أن تقضي عليه ، جياشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها ·

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n.
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 30.
2. *Ibid.*, 31; Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26; Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66.
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6.
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22; Desnoiresterres, I, 164.
20. Stryienski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155.
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 133.
42. Michelet, V, 197; Martin, H., XV, 11n.
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Ducros, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Camb. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 30.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

75 Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103
76. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
79 Aldington, 131.
80 Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
81 *Gil Blas*, last line.
82 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, *cf.* 91-94
84. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoiresterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
99 *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100
103. Créqui, 149.
104. Desnoiresterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoiresterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "*Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son addresse.*"
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoiresterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3 Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12
6 Trevelyan, G. M., *English Social History*, 379
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
8 Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Regime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B B., *Women of England*, 335
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Faÿ, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du xviii^e siècle*, 78-79
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Siris*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 228
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIb, 70-72; *cf.* Laski, H., *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., *cxxx*.
18. Walpole, H., *Memoires of ... the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 254.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 28.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 101.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. 241.
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 159.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 234.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV, 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 262; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 283.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mossner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mossner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, I, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, I, Secs. 174-75, Appendix II; *cf.* essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, I, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116 *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., *xv.*
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273
130. *Ibid.*, 161.
131 Essay "Of National Character."
132 *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133 Essay "Of Commerce."
134 Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136 In Black, *Art of History*, p 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History
139. "My Own Life," *loc. cit*, 236
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236
143 *Ibid.*, 237
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154 Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., *xxx.*
156. Mossner, 588.
157 "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159 "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162 *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5 *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9 Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10 *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9
11 *Ibid.*, III, 16.
12. V, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20 *Ibid.*, 78.
21 Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68 69, in *Collected Poems*, p. 305.
22 Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112
23 E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts
27. London, National Portrait Gallery
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. *xxv*.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, 1, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 126.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65 *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid* , introd., *viii*.
77. *Ibid.*, *ix*.
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, *xxiii*; Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela*.
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263
102. Smollett, T , *Roderick Random*, Ch. xi. pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710)
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilensky, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84, Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoiresterres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 201, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 209.
85. In Buckle, I, 528.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد التاسع

(٣٦)

بيروت

تونس

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير – (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا – ١٧٢٣ – ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

صفحة

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

الفصل التاسع

عبادة الجمال

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التى عاد إليها فولتير ١٧٢٧ ، نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التى تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ – النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استمدوا ألقابهم من الأرض التى امتلكوها (وهى ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمائة ألف من الأنفس[١] . وكانوا شيعا أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذى يتربع فى دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلى هؤلاء فى منزلة أدنى : طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين ، ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقا . ويأتى بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة فى مواكب عيد القربان أو حق الجلوس فى حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوى المحتد الكريم »

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثى العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم فى عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة فى الحرب أو فى الإدارة أو فى التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل سته آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عدد كبير من المواطنين — رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء — على براءة النبالة (٢)» وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضفى على شاغلها لقب النبالة تلقائيا . وفى عهد لويس الخامس عشر كان فى مقدور أى رجل عادى أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفى عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان فى الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء . ويحتمل أنه فى ١٧٨٩ ، كان نحو ٥٩ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون فى الأصل من الطبقة الوسطى (٣) .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التى كانت بمثابة دور قضاء فى كبريات المدن فى فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضى أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية — هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون فى أرديتهم القرمزية ، وعباءاتهم الثقلية والأكمام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون فى مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التى كانوا يتقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى الحسب والنسب، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين. وبلغت الطبقة التى تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف فى وجهها أو يقاومها، وزعماء الثورة وحدهم هم الذين استطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف.

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الاهمال فى إدارة ممتلكاتهم أو تغيبهم عنها، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة فى زراعتها، أو إنهاك التربة، أو خفض قيمة العملة التى كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية. ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال، قد يمتلك المرء فى ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً. وكان هناك فى بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعانى الفلاحون(٤). ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبذروا تبذيراً. فكان الدخل السنوى لمركيز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه، ولدوق دى شفريز ٤٠٠ ألف جنيه، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه. وأعفى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة، إلا فى حالة الطوارىء، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالا ويسرا. وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات، فقد تفرض الطبقات الثلاث فى مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمنا للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات. قال توكفيل «كان عدم المساواة فى الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات فى كل عام حيث أعفى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء (٥)». وفى عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها.

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات. فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار، وسهروا على القانون، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، ونفذوا العقوبات ، وتعهدوا المدارس والمستشفيات المحلية ، ووزعوا الصدقات. وفى مئات من مناطق السيادة والنفوذ مارس السيد الإقطاعى هذه الوظائف والمهام ، بالقدر الذى سمحت به الأنانية الطبيعية فى الإنسان . وقد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه، ومن ثم فإنهم أطاعوه واحترموه وفى بعض الأحيان أحبوه .

وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده ، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثنين والثلاثين التى انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . وكانوا عادة ذوى كفاية ومقدرة ونيات حسنة ، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن ، وأعادوا تنظيم الشئون المالية ، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الرى ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، وزودوا فرنسا فى هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل فى سائر أنحاء العالم . وشرعوا فى أن يغرسوا على جوانبها الأشجار التى تظللها اليوم وتزينها (٦) . وسرعان ما زحزح تفوقهم فى الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، ورغبة فى التعجيل بهذه الزحزحة التى تركز الحكم فى أيدى هؤلاء المحافظين، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام فى بلاطه الملكى ، وهناك عينهم فى وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوسمة مخدرة . وفقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للانفاق على قصورهم وبطانتهم فى باريس أو فرساى ، وتشبثوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التى كانوا يقومون بها فى مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالة على فرنسا .

٢ ــ رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز فى كل ركن فى الحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك فى فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا فى ١٦٦٧ [٧] ، و ٤٢٠ ألفا فى ١٧١٥ [٨] . و١٩٤ ألفا فى ١٧٦٢ [٩] . وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هــذا العدد بنسبة ٣٠ ٪ فى القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية [١٠] ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وبنصف أو ثلثى دخــل الدير ، دون أن يكون مطلوبا منهم أن يحيوا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعا من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب فى عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه فى ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً فى فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوى الألقاب [١١] . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التى درجوا عليها فى التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الأمير الكاردينال إدوارد دى روهان كان فى القداس يرتدى ثوبا كهنوتيا له حواش من المخرمات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة [١٢] . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دى ناربون للويس السادس عشر ، السبب فى أنه أى رئيس الأساقفة ، استمر

«ممارسة الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين فى أسقفيته ، بقوله « مولاى إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ، ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى »[١٣] لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة — من أمثال بوسويه وفينلون وبوردللو — وأفسح المرح الابيقورى الصاخب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبوا وتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساى أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسراته ومباذله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحيهم[١٤] . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التى كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكا للأديار[١٥] ، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كمبراى الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكمبرسيس ، ونصفهم فى كمبراى[١٦] . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار[١٧] وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفا من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية[١٨] . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم ، كما جعلت لهيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنويا ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءا من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين[١٩] . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين عاش الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفى المقام التالى بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة فى فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقا لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض [٢٠] ، وثلث الثروة [٢١] . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناربون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات [٢٢] . وكان رأس مال كنيسة بريمونتريه بالقرب من لاؤون ٤٥ مليونا من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع فى المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليونا من الجنيهات تدر ثمانية ملايين فى العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية فى المجامع الوطنية إعانة اختيارية للدولة . وفى ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليونا من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة[٢٣]. وفى ١٧٤٩ اقترح ما شول دى ارنوفيل المراقب العام المالى أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة فى « غضب شديد واصرار [٢٤] » . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقا على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكى أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيبا عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة[٢٥] . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سببا يدعوه إلى الاعتقاد بأن الفلسفة فى مقدورها أن تكسب الجولة فى الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتتويجه بأيدى رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك — فى نظر الجماهير التى ليس فى مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته — نائب الله الذى يتحدث بمقتضى التفويض الإلهى . ان الإرهاب الروحى الذى يبثه رجال الدين فى النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الارهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة فى المحافظة على النظام الاجتماعى ، والابقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك . وهل فى مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الخارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساسا على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلا) ، فانهم أحبوا الراعى المحلى الذى شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحيانا كدحهم وكدهم فى فلح الأرض . انهم تذمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعى هم الذين أرغموه على جمعها ،

وأن ثلثي هذه العشور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضمناها ما كانت تعانى من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما تئن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفى سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هـذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن فى آذانهم ، والاحتفالات هى المسرحية التى تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هى العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعى الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادىء أسطورية لتدعيم لسطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوى والانضباط الخلقى ، وعلى أنه إيحاء بنظام إلهى يتجلى فيه معنى الخلود الذى خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف فى هذه الدنيا . فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الوالدان الفلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية فى البيت ، ونقلا إلى أولادهما الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان اعى الأبرشية يحب الناس كما أحبوه ، فانضم إليهم فى الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهبات واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة[٢٦] كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات فى القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجىء ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا[٢٧] . وفى ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة فى

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدى الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وللسيدات المراهقات مثل مدام دى ديفان التى رغبت فى أن تنأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأم أورينى (رئيسة دير للراهبات) عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل فى جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات فى ألكس يرتدين التنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن فى أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضروباً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأقاصيص التى رويت عن الفساد الخلقى فى الأديار فى القرن الثامن عشر كانت مبالغات إشنيعة مثيرة استخدمت فى حرب الدعاية بين المذاهب المتنابذة ، وكانت الحالات التى لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوى تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش عير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسنيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير فى مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتى المتقشف فرانسوا دى باريس (١٧٢٧) حج الجانسنيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته فى مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برئوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعى التأثر مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفى ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين فى مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطيبة جانسنية قلبا وقالباً (٣١) . وتحدياً للمرسوم الملكى الصادر فى ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوى الصادر فى ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنيين آثاروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوى . واسهم هـذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لايزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقالهن مدى الحياة (٣٢) وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شيء من التراخى فى تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا (٣٣) . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه فى أن آباهم من البروتستانت ؛ لتربيتهم وتنشئتهم فى بيوت كاثوليكية . وإنا نسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتى ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفى ١٧٥٢ شنق فى مونبلييه الواعظ البروتستانتى بينز — البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفى نفس العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت فى باريس أو قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة فى العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم فى السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئات ممن امتازوا بالعلم الغزير والحياة التقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا فى باريس العشور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون اتسموا بالطهر والتقى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبيلا . وكان الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كليرمونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، والتى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايلوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ؛ ثم اعتذر لمن التمسوا رفده بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شىء أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوادى بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفى هذا كتب لمرنتى : « انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا فى خدمته بسبب العدوى . فسار على قدميه فقيرا بائسا فى الصباح إلى مواطن

التعاسة والشقاء ، كما كان يرى مساء وسط الأماكن التى اكتظ بها ولوثها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفى ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التى لا معين لها . إن هذا المثل للذى ضربه هذا الأسقف الذى يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع ...... كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته فى شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالى أحد بما يلقى من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء بستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكبيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد فى خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم [٣٩] .

ولنذكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخانقة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصيبة الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ ــ الطبقة الثالثة

١ ـ الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسى » الذى وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذى يفاخر به الفلاح الفرنسى اليوم ، وحالته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفى ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة فى التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذى هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ فى نورماندى وبريتانى و٥٠ ٪ فى لنجدوك وليموزين(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا — من ثلاثة إلى خمسة أفدنة — إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر فى المزارع الأخرى ليعولوا أسراتهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبلاء أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وغلة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول فى مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تجاوز ٢ ٪ هى التى وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكى هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعى المحلى لعدة أيام فى السنة تكفى لحرث أرضه وبذرها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك فى البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعى ماشيتهم فى الحقول ، مما يقع فى زمام أرضه . (فى فرانش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتانى ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج (٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا فى كل مرة يستخدمون فيها شيئاً من هذه . كما نقدوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عبروه فى نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه الضرائب موجود بيننا الآن فى أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين أغفلت إغفالا شديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النــار على حمائم السيد ، وهي تأكل محصوله(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الاقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة (٤٣) .

وفي بعض الأماكن بقي الرق بمعناه الحقيقي ، وقدر مؤرخ اقتصادي مشهور أن عدد الرقيق في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون (٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن في ١٧٨٩ كان لا يزال في فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء (٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال اقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التي تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي ، وبالاضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد في البيت . وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة .(٤٦) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه ، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزما بالعمل ودفع الرسوم لسيده ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزما بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوما في السنة ، في إقامة الجسور وبناء الطرق أو اصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو توانى .

ومذ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية فى فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب فى انجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة فى كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت انجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريث الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد فى المزرعة ، كما كان السماد قليلا . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلا إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز فى ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففى ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « فى كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحسانا ، فى وجوه أضناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك فى حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم (٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا فى وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « فى ١٨٢٥ كان الناس فى نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك فى أوربا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شيء دون أن يدوا شيئاً من التذمر (٤٨) » . وفى ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز فى العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا فى حروب لويس الرابع عشر كلها (٤٩) » . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين — وكانوا كلهم تقريباً فقراء — تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا . . . . أما الحذاء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاما أن يستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الحذاء (٥٠) » . وقدر فولتير أن مليونى فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعالا خشبية فى الشتاء ، وكانوا يسيرون حفاة الأقدام فى الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضربا من الترف[٥١] أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها فى بعض الأجزاء فى شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبنى بطريقة أقوى حتى تحتمل البرد والرياح فى الشتاء . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طاوئاً [٥٢] . ففى فرنسا ، كما هو الحال فى أى مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة فى الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة فى الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختطفت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة فى سكان فرنسا فيما بين عامى ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء فى نظرية مالتس .

٢ — البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدم المنازل أدنى مكانة من الفلاحين فى السلم الاجتماعى ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهيىء إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا فى المدن أعلى قليلا من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين فى الحوانيت والمصانع وحمالى البضائع ومتعهدى الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزليا أو محليا يقوم فى أكواخ ريفية أو فى الدور فى المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة فى المدن إلى حد كبير فى الطور النقابى (نظام نقابات العمال وطوائفهم فى العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعا وفقاً للقواعد القديمة التى حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمرا عسيرا ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية فى تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرستقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول فى سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفى جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . (٥٣) وكان العمل فى الحوانيت يبدأ مبكرا وينتهى متأخرا . وكان عامل المياومة حول فرساى يبدأ عمله فى الرابعة صباحا وينتهى منه فى الثامنة مساء . (٥٤) ولكن العمل كان أقل اجهادا منه فى المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة فى معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثا أو أربعا من « الأيدى العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدابغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال فى بوردو لايتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة — مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصينى فى سيفر . وأخذت عملية التعدين فى التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب فى الوقود . وثارت الاحتجاجات على دخان الفحم الذى يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس فى باريس ، وفى لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب فى دوفينى ، ومصانع للورق فى أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعا ملحوظا فى الشمال ، فاستخدم فان روبيه ١٥٠٠ عامل فى مصنع واحد فى آبفيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل فى ليل (٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافا ورسوماً مدهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل فى الصناعة فى فرنسا ، يندر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكار (لحياكة الأقمشة المصورة) فى ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقى بهم فى عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة فى تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا - كما فعلت حكومة انجلترا فى عصر البزاش - منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية احتكار انتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيما صارما موروثا عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضا متزايدا من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديدا لهذا المطلب ، قال فنسنت دى جورناى (حوالى ١٧٥٥) عبارته التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التى عبرت فى الجيل التالى ، على لسان فرنسوا كنى وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطى الذى نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضا من هذه القواعد والتعليمات التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدى النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين فى المدن الكبرى - حتى بالمعملين النقابيين - إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون فى عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفى نطاق النقابات أجرى المعلمون - تخفيضا فى أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دورى . وكان الفقر فى القرى شديدا مثلما هو فى المدن تقريبا . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، فى المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث فى تولوز ١٧٤٧ ، وفى باريس

١٧٥١ ، وفى تولوز ١٧٥٢ [٥٨] وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم[٥٩].

وفى أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزى توماس جراى فى ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها بالغة الضيق والقذارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق فى كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » . [٦٠] وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خادم ، و٢٠ ألف متسول، وفيها الأكواخ الكئيبة والقصور الفخمة ،والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزهات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقر المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الجواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد فى حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفى عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قذرة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس فى أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحل محل الفوانيس فى ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع فى ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنابير ماء فى بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض فى المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد، فكانت امتيازا لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى فى الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء فى « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف فى المقاييس والتلاعب فى الأسعار ورداءة أنواع السلع .(٦١) وكان بعض الحوانيت ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون فى شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين فى دلاء أو سلال على ظهورهم ، والذين أسهموا فى موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التى يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة» إلى الموت للفئران » فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى فى المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران فى مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسى كان فى زيارة مونتسكيو » : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت فى الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهى مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظرى فيه على شخص واحد يسير بخطى وئيدة . وليس فى العالم كله مثل الرجل الفرنسى وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين فى الشوارع والنافخين فى الأرغن والدجالين بائعى الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف فى الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتى اليسير من الطعام والنبيذ فهو ألطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ — البرجوازية :

وفيما بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضمر لها أولاهما البغض والكراهية ، وتزدريها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الادارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهى طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة فى حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكوا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التى تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتاظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التى تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هى تعويض معقول له عما ينفق فى صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكى صادر فى عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دورا فى كسب البورجوازية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التى كانت معوقة فى الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوربا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التى أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفوذها السياسى فى البحر الكاريبى ووادى الميسيبى وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهى ، المنفذ الرئيسى لتجارة الأطلنطى ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات فى عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا فى ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا فى مزارع قصب السكر فى جزر الأنتيل ولويزيانا(٦٣) . وفاقت نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثيلتها من السكر الإنجليزى المنتج فى جمايكا وباربادوس فى الأسواق الأوربية ، (٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات فى ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون فى ١٧٥٠ . (٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التى استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة فى ١٧١٥ إلى ٨٠٠ فى ١٧٣٨ . (٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسى لغـــزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسبي وبعض الجزر فى البحر الكاريبى . وتحدت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها فى أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هى التى يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فى الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون فى ١٦٨٣ قد وطدوا مركزهم فى بوندشيرى على الساحل الشرقى جنوبى مدراس ، وفى ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالى كلكتا . وفى ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التى كانت قد أقامت لها مراكز فى مدراس (١٦٣٩) وبمباى (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) — أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التى تتمزق أوصالها .

ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفى نقيض فى حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٤) فان ماهى دى لابوردونيه — الذى كان قد ضرب رقما قياسيا فى الاقدام والمغامرة فى إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية فى المحيط الهندى — عرض على حكومة فرساى خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية فى الهند » .[٦٧] وهاجم مدراس بأسطول فرنسى ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضى بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لابوردونيه أصر فى عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرته سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فزج به فى الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما فى السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفى ١٧٥٣ . وفى تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزى قوى بوندشيرى (أغسطس

١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (إكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة فى الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس فى الغزو والفتح ، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة فى الطور الهندى من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » فى قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضى النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون فى الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمى الضرائب » الذين يعمـــلون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التى فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضى فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً ، فى تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الاتجار فى الأسهم والسندات، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونمارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دى تورنهيم عشرين مليونا ، وصـــمويل برنارد ٣٣ مليونا [٦٨] . وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهراً قدره ٨٠٠ ألف جنيه [٦٩]. وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه . وفى ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً [٧٠] . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أماط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية [٧١] . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سـلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية ، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفا و « مليونيرا » فى وقت معا .

وكان « الملتزمون العامون » أبغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملتزم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة ــ أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ ــ ولكي تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هــذا العقد الرابح : ٨٠ مليونا ١٧٢٦ ، ٩٢ مليونا ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليونا ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوما في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهمة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولعق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامى ١٧٢٦ - ١٧٣٠ جاوزت أرباح الملتزمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات [٧٣] وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البذخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والخليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « ألطف الفلاسفة » ، هلفشيوس ، واحــداً من أكرم « الملتزمين العامين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دى ابيناى زوجة أحد الملتزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دى لابوبلنيير الذى اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الرومانى من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ ـ الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة فى الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التى كانت تتطلب عبير شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ،وكان أفرادها يشكلون البيروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعى فى ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلى الأسرات الواهنين الخاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجد والعمل . وفى الحق أن نبلاء الرداء فى البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ،وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنوات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم فى باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون فى تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية فى القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله فى القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة فى فرنسا كانت أحسن إدارة فى أوربا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت فى نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بانجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبى إلا فى المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أى برلمان فى وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً فى تسيير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية فى الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومى » . وبإحدى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدى فرانسيز » فى عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لئيم فى السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفى حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامح . وفى مثل هذه الحالات كان السجن خفيفا قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ — ١٧٥٦) فى حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة فى نفى شارل ادوارد ستيوارت حفيد جيمس الثانى من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش).[٧٤] وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألمانى ولهلم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس فى المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سريا ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس .[٧٥] إن أية إساءة إلى أحـــد النبلاء من رجل عادى ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدى إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمرا بالقبض والزج فى السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياءا متزايدا على مر السنين فى هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتى ، فى سالف الأيام . وكان فى مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة فى تنظيم القانون الفرنسي وتحديده فى « قانون العقوبات » الذى صدر فى ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألمانى والرومانى ، والتشريع الكنسى والمدنى . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع فى التحقق من إنسياقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أى القوانين سارى المفعول فى محل إقامته أو فى قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات فى الأقاليم ، أما فى المدن الكبيرة فكان يتولاه « شرطة البلدية » ، التى نظمها ودربها أحسن تدريب وتنظيم فى باريس ، مارك رينيه دى فوابيه دى آرجنسون ، الذى لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمى باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية »(٧٦) — عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى — مثل جين كالاس — شهورا فى السلاسل والأغلال والتعذيب العقلى ، معرضاً للمرض فى كل يوم بين الأقذار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق فى قانونية أمر الاعتقال (هابياس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضى بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائى وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية فى فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة فى عقاب عدم الأمانة فى العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم يجرون مربوطين فى ذيل عربة فى الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفى ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف فى السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجنسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام [٧٧] » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحتشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاونى رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل فى البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشريفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رتابة نظام الحاشية . وهيأت جو الغموض الذى لاغنى عنه للحكومة الملكية .
وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هى الانهماك فى القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلى « إن تسعة أعشار الناس فى فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم[٧٨]»
وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موائد القمار جسيمة . ولكى يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج فى البلاط ، تقريباً ، عشيقة ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكا منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه «مادام دى بمبادور وهى سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى.

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً فى ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك فى سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دى بوربون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دى تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً[٧٩] » وكان السيد الدوق دى تولوز « نفسه رجلا طيب الشعور ، بذل كل ما فى وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر فى تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خيب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتآمروا على سقوطه[٨٠]

وأباح لعشيقته المركيزة دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغى، وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جمالها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا ، أملا فى أن تستبقى الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن مارى سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك ، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر فى الدولة .

وكان أندريه هركيول دى فليرى قد عين أسقفاً فى فريجيس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبى . وكان الأسقف فارع الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولا بعض الشىء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بيف أن فليرى ، باعتباره معلما ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته فى ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم (٨١) . ولكن فولتير ، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفليرى ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فليرى على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التى لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتى نعم فيها بحسن تأثير الوصى وتقدير الشعب . ولم يمن فليرى قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده فى مكائد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة فى الداخل ومصالحها فى الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعى الحذر ومزاجه اللطيف جعلا كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإداره فيها (٨٢) .

ولما علم فليرى بأن تأثيره المستمر فى تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب فى هدوء إلى دير السلبيشيانر فى ISSY، إحدى ضواحى باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فلبرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفى ١١ يونيه ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر ، بشكل مفاجىء ، بوربون « أن يأوى إلى شانتيللى ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام دى برى إلى قصرها فى نورماندى ، حيث تولاها الضجر والسأم إلى أبعد الحدود ، فتناولت السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فلبرى يخطو إلى الأمام بفضل تراجعه ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فلبرى الوزير الأول فى كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيه ١٧٢٦) . وكان آنذاك فى الثالثة والسبعين من العمر ، وكم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فلبرى أنه قسيس ، فألغى ضريبة الـ ٢ ٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فلبرى إليهم أن يساندوه فى تنصيبه كاردينالا ، وكان فى حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأدواق فى مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هى أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو فى أوج السلطة مثلما كان متواضعاً وهو يمهد لها . وعاش فى بساطة تكاد تتسم بالتقتير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا فى شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفى نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبذخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسئ استغلال منصبه قط . (٨٦) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحا ممن يحيطون به » (٨٧) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولـكنه لم يتسامح قط مع الجانسنيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم فى حزم وكياسة . وفى عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ – ١٧٥١) فى اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيلبرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فلبرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية فى الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هيأ لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدا أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى رددها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكما يسيرا معناه أن نحكم حكما صالحا » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعد بوقف التضخم ، وأوفى بوعده . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الايرادات فى قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهظت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق فى انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فلبرى فى الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفى مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين فى الاستمرار فى جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزا منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام. وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولـكنه قبض يده بشكل مخل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء فى قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول فى إنجلترا نجحت سياسة السلام التى انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين ، ولو أنهما كانا على طرفى نقيض فى الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه فى ١٧٣٣ ، حضه مستشاروه فى الشئون الخارجية على القيام بمحاولة فاترة لاجلاس ستانسلاس لزكزنسكى ، وهو حمو الملك ، على عرش بولندة ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولندة وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندة عاجزة مهيضة الجناح ، فرفضتا هذا الاقتراح . وفى حرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ — ١٧٣٨) طردتا لزكزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فلبرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستلانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لزكزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التى كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهـــذا ما حدث فى ١٧٦٦ .

وجاهد فلبرى الذى كان فى الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسيتيه دى نسل مركيزة فنتيميل ، التى كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت فى بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه ، كونت دى بل أيل . حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذى كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فلبرى رجل هرم أحمق ، وأنه فى مهاجمة فردريك الثانى ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغى أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيقة الفاتنة هذه الكلمات فى آذان الملك الولهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدى الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فلبرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضى فى مشروع بل آيل . فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد ينذر بالخطر . وأن على فرنسا أن تدخل فى حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا فى خير حال فى السلم ! وفى ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفى ٢٥ نوفمبر استولى بل أيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن فلبرى عجوز أحمق .

وبعد عام فى الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة مع النمسا ، وإذ تحررت الجيوش النمسوية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ، وشرعت فى تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقض مضاجعهم وأزعجهم الأهالى الذين أضمروا لهم العداء . وفى ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فلبرى إلى القائد النمسوى كونت فون كونجزج نداء مذلا يناشده فيه شروطا معتدلة للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرض القرارات التى اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل كونجزج الخطاب إلى ماريا تريزا التى نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسى لإنقاذ بل أيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفى ديسمبر ترك بل أيل وراءه ستة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت فى قلب الشتاء عبر مائة ميل جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم طيلة انسحابهم . وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هـــذه المسيرة اثنى عشر ألفا فى الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع بالارتداد المذهل . وتخلى فلبرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير فى اسى حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو فى سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رياسة الوزارة بنفسه منذ الآن

٥ — لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبي الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجدرى ، وأصبح الصبي وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فنتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراما رهيبا للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون مليكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريشال دى فيلروا فقد دبر سماً عكسيا . حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلرى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاى ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت مليكهم وسيدهم. (٨٩) واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفسا فى الحفر على الخشب وشغل الإبرة وحلب البقـرة واللعب مع الكلاب . (٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فينا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبنه . ويروى أنه كان فى صباه يجد لذة فى صيد الحيوانات بل قتلها . (٩١) وفى سنى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللائى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الظباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقـــدر من الحساسية المقرونة بالحذر والخجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولـكنه استوعب بعض التعليم الصحيح فى اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارع الطول نحيل القوام ، ولـكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجعد . وقال عنه ماريشال دى ريشيليوانه « أكثر الصبية وسامة وملاحة فى مملـكته »(٩٢) يحتفظ متحف فرساى بصورة رسمها له فانلو ، وهو فى الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبيانى. وقارنه رينيه لوس دى آرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء فى غرامه لأول نظرة . وحين مرض فى ١٧٢٢ صلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذى كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهج لما راوده من أمل فى أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش فى الأسرة الـكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو فى سن الحادية عشرة ، ماريا آنا فـكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولـكن مدام دى برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتزايد بفسخ هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من مارى لزكزنسكى ابنة ملك بولندة المخلوع . وشرعت فى تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسبانى قط . وكان ستلانسلاس فى مأواه فى ويزمبرج فى الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التى كانت ابنته وأمها تعملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت مارى فرحة مبتهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولندة ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بنعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا » [٩٣] إن ماري لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش فى أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكللة المجد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والمجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساى ، وبراتب سنوى قدره عشرون ألف كراون ذهبا مدى الحياة . وتلقت ماري هذا كله فى ذهول وهي لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفى ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل فى ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك فى فونتنبلو فى ٥ سبتمبر . وكان هو فى الخامسة عشرة . وكانت هي فى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذى لم يكن قد أبدى بعد ولعا بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها فى حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوما ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعوذها الدعابة المرحة ، ومع ذلك افتقدت فرساى فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحيوية ، مما أصبح لزاما أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت ماري لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلا للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى انجاب وريث له . وعلى مدى اثنى عشر عاما وضعت عشرة أطفال ، وفى سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . انها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصيبت فى غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التى تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصغت فى صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فلبرى فى حضرة الملك . وعندما تولى فلبرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرناء بحجة الاقتصاد فى النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسجت البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء فى التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبنة وسط انفعالات الحاشية وعبثها »(٩٤) .

وكان ينبغى للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خليلة إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذاك اتخذ أربعا على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحيوية ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذوات خبرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف فى أن تكون سباقة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دى لآ فالبير ، أخلصت فى حبها لعشيقها الملكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أختها فليسيتيه ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها فى لويس (١٧٣٩) فى قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على الملكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصا رهيبة مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان فى فم آثم خاطئ .(٩٥) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغريق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى احدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سمك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد »(٩٦) . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ، وعينها مركيزة فنتميل . وفى ١٧٤٠ آوت مدام دى ميللى إلى أحد الأديار ، ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المنتصرة التى كانت تعانى سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويكى الملك وبكت مدام دى ميللى معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعيها ، وعادت عشيقة له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة الدميمة ، وكانت بارعة ذكية ، عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديهتها وأجوبتها السريعة . واستمتع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت الرابعة ، مدام دى فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دى نسل دى لاتورنل ، أقنعت مدام دى ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ، بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كآبة الدير . وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختا لها . وبعد ذلك بقليل كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هذه الضجة من أجل بغى فاجرة : » فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى جيدا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . (٩٧) » ولا بد من أن الله سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التى رسمها لها ناتييه — وجه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من حرير مهفهف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين — لتفسر شدة اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقدا قدر بريق عينيها . وعلى النقيض من دى ميللى كانت مارى تتلهف على الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التى تدر ٨٥ ألف فرنك فى العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقة (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى فى البلاط ، كان يأمل فى استخدام نفوذها فى كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس فى بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهمك فى العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات فى البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخندق .

وفى المخدع وفى حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب – مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل – الملك على القيام بدور فعال فى الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة فى مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع فى درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الخطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحثاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فلبرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفى ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفى ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذى بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة فى أبهته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خليلاته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التى يقودها الملك ، ولكن بخطط عملياتها

أدريان موريس دى نواى وموريس دى ساكس ، انتصارات يسيرة فى كورتراى ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مساندتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الالزاس واللورين ، مما اضطر معـه ستلانسلاس الذى لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لونفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متز أملا فى استثارة همم الجيش المنهزم بوجوده . ولـكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه فى ١١ أغسطس ظن أن فى خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهى الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالى بصيحات الاحتقار والاستنكار وهى تغادو المدينة .

وفى الوقت نفسه كانت مارى لزكزنسكى قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملـكة قائلا « لقد سببت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لى هذا كله » . فـكان جوابها « ألا تعرف أنك لست فى حاجة أبدا إلى الصفح من جانبى . إن الخطأ فى حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملـكة إلى مدام دى موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا فى الشوارع : وعانق بعضهم جواد الرسول الذى حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جداً » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبوننى إلى هذا الحد ؟ » (٩٨) إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأنقذ فردريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمسوى المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، ورآه يستولى على فريبورج - أم بريسجو . وفى نوفمبر عاد الملك إلى فرساى ، وأعاد مدام دى شاتورو إلى سابق حظوتها ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن فى ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخليلة نحبها . ودفنت فى ظلام الليل، تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن تناول الأسرار المقدسة فى عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات جيشه ، وكان قائد ألمانى بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس دى ساكس كان ابن أوغسطس القوى ناخب مكسونيا وملك بولندة . وكانت أمه هى الكونتس ماريا أورورا فون كونجز مارك التى اشتهرت بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفى سن الثانية عشرة تزوج موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) . وبعد أن أظهر شجاعته فى حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات . وفى ١٧٢٠ حصل على منصب فى الجيش الفرنسى . وبعد أن نجا من كل محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خليلة مخلصة فى شخص أدريين لكوفرير التى برزت مكانتها فى الكوميدى فرانسيز آنذاك (١٧٢١) . وفى ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة فى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد على فقد حبيبها ، منحته ، عونا له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ، بالاضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ، قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصرة روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصة له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الحظوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادلهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقريا لا يجارى فى استراتيجية الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظا لأى خطر يتهددة ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر منافسه الوحيد فى ذاك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأى قائد فى أوربا »(١٠٠) وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » . (١٠١) . وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسى من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ، (١٠٢) أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين » أيها الرجال ، نحن لن نبدأ باطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم »(١٠٣) وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غاليا ، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا . (١٠٤) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أخجلهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون مليكهم فى خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان فى أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام فى ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز فى هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بنى كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساى ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جبهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستللا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسبانى . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمراض. وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغوانى ، ليدون بعض نظرات فلسفية حالمة : « ماذا نرى اليوم فى الأمم ! نفر من الناس يعيشون فى فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التى لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة [المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى فوايبه ، مركيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات ١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فرنسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ ؛ وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الانفاق على زراعاتهم (١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هـذه المبادئ تتفق مع الديموقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا » . وإنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء (١٠٨) . واستبق دى آرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الاصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريض نواى وموروباس وبمبادور وعزل دى آرجنسون . وفقد المركيز ثقته فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المساوئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات . . . وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شىء يمهد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهيأة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى فى الدين والحكومة معاً (١٠٩) » .

أو كما قالت خليلة الملك الجديدة « من بعدى الطوفان » .

مدام دى بمبادور

هى من أشهر النساء فى التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكنها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمى فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم .. ومن العسير أن ننظر إليها فى الصورة التى رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ فى الافتتان بالإنسان . فهل كانت دى بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها الهزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية فى صوره العارية المشرقة . وبدلا من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والذوق فى ملابسها . والرقة الناعمة فى يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عاليا فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكتها المرحة المستهترة ، ولا روحها الوديعة ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابة إرادتها التى لا تلين ولا ترحم أحيانا .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى التى نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذى لم يستطع يوما أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها سمك) . واتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سنقاً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتماء فى أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف فى همبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنهيم ، الذى تولى الانفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكربيون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء » . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثارى إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها تنبأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى للملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنهيم بأن تتزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج بحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرا مزهو بها . والتفت فى منتدى مدام دى تنسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتنها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن تخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من المستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جمالها لديه . وفى ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت فى أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحدثت إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهى ترقص ، وفى أبريل رآها فى مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية فى فرساى . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك وتدخل السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا فى فرساى فقبلت . وحث مسيو تورنهيم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال فى الغضب مثل أى برجوازى ، أو بخلق مشكلة (١١٤) وعين الملك سيودى أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت نحبها . وفى سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المركيزة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التى هدأت من روعها ولاطفتها فى ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرا لا بد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أيه حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغى) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت باريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت فى صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطانها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شىء ، ولكن كل شىء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فإنها تفننت وأظهرت عبقريتها فى تسليته والترفيه عنه . فألهته بجلسات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والنزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكائها . وأقامت فى فرساى

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال فى أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هى نفسها فى مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة فى فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغى » . وتفضل بأن يكون دمثا معها فى دنيا النفاق . وأصابت الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التى عزفتها بشكل يأسر لبه ، حتى نسى خوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريبا . وما هى إلا بضع سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دى بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً ، وأنها كانت عبئاً ثقيلا على خزانة الدولة ، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألقت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلسانى أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة فى درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقوفها فكانت مغطاة بالصور التى رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التى تبهج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سجينة وسط هذا الترف والبذخ ، سحبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشيد أو تؤثث قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر فى كريسى فى درى ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة فى غابات فرساى وفونتنبلو وكومبين واتخذت من « أوتيل دى بونتشارتران مقراً لإقامتها فى باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دى افرى فى شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ فى جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنيها [١١٦] ، كان جزء منه فنا بقى فى حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنيه سنوياً [١١٧] . واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دى بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الثروة وأصبحت المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لذوى قرباها على المنح والهبات والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهيىء لابنتها الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانفان » شيئاً يذكر ، ولكنها كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دى فنتمبل ، ولكن فانفان ماتت فى سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل - الوسيم الدمث - فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعوه « بالأخ الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعوه إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركيز دى مارينى وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته فى جد وكفاية ، إلى حد رضى معه وسر به الجميع تقريبا . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوربى ، ويرجع هذا إلى حد ما إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت محاولاتها فى أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ، وما لمست شيئاً إلا وصار جميلا . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يبهر الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما يكلفها ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة بتمويل مصانع الخزف فى سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأوانى الزهر والزجاجات والصناديق والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنة دقيقة سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبحت « ملكة الروكوكو » (١١٨) . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها فى النفقة يرجع إلى الرعاية التى أسبغتها على الرسامين والمثالين والنقاشين على الخشب والمعادن وبجارى الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغدقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنهت بذلك التكرار المبتذل لموضعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت فى تسامح باسم تلمر لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسى والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخزف المفضل لديها ، وفى هذه الحقبة ، لا فى عهـــد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوربية ذروته .

وربمـا كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ فى التاريخ ، و ٣١٥ فى الفلسفة ، ومجلدات كثيرة فى الفن ، وبعض مجلدات فى السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص فى الحب . وواضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هى نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، فى رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان. وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده فى رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تخجله وتحرجه بقولها : بأن فردريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتبا قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما فى بروسيا . وقد أكون مضطر إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يعدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فونتنيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دى بوليناك » . وأضاف من كانوا حوله ، « دالمبرت ، كليرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . وعندئذ تنهد الملك قائلا « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معى طوال خمسة وعشرين عاماً (١١٩) » .

وعلى ذلك احتلت بمبادور مكان الملك فى رعاية الأدب . فأتت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميـه من سوء تصرفاته ، وساعدت مونتسكيو ، ومارمونتل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعانى كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً فى اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته «كاتيلينا» ، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كينى طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطى وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة فى فرساى ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتل : «ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى «صالونها» فإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢٠)» .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء فى الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والفزع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فـكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة ، إذا كان هـذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن مناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التى يؤثرها بحبه ، نفوذها فى التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففى ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديدا على تناول القربان المقدس . وفى محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واظبت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهـذا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خلفة ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور فى مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهرى. ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تحولها » مأخذ الجد ، وربما كان لإستيائها منهم دور صغير فى طردهم من فرنسا فى ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق فى أنه لم يعد لها اتصال جنسى بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أعدائها هذه الحقيقة [١٢٣] . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة فى الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه [١٢٤] ، راعترفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أوهن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسى وتملكه الغضب [١٢٥] . وتناولت « عقاقير الحب» [١٢٦] دون نتيجة تذكر، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها فى البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفى ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذ بها مدام دى شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بثمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع تضحيتها وسرعان ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوى المحظية الأولى المنهوكة إلى « متنزه الظباء » البغيض .

وفى « متنزه الظباء » فى طرف ناء من فرساى جهز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خـدمهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس فى جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما فى مسكنهما متنكراً فى زى كونت بولندى عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضـافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن فى وقت واحد أكثر من اثنتين [١٢٧] ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها فى الأقاليم ، وكان الأطفال

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحريم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده ، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلمات لن يسلبنى إياه (١٢٨) » .

ولم تنزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الظباء » هذا لخليلاتهم (١٢٩). ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فألهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفتره طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « خليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة » ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتى ناصبنها العداء منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد لذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، وتحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشئون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التي كثيراً ماكانت ثاقبة (١٣٠) . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكرى . وفى ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشىء مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم فى خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ فى توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالا إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق . وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ ملحقة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصبح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « النقض المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا فى باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقية ماريا تريزا التى خاطبت بمبادور « بصديقتى العزيزة » ، و « ابنة عمى » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهينة إلى المركيزة دى بمبادور « بحكم المرأة » فى البلاط الفرنسى . وكانت مدام دى شاتورو ودارجنسون قد وجها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة — التى قويت بيلانتصار فى حرب الوراثة النمسوية ، والتى لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندى أحسن تدريبهم تحت امرة قائد قدير طموح لا يبالى بأية مبادىء خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً — إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التى كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أى عون أو تأييد من أسبانيا فى ظل حكم آل بوربون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا فى ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع انجلترا — عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسى على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دى بمبادور التى عادت الآن تبصق دماً ، وكانت فى الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها فى التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

١ - التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التى شهدتها فرنسا فى القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم إنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا فى ١٧٦٢ م، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلمانى فى الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز فى النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفى كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة »[١] . وكان فى معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحى على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، فى مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ[٢] ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالمجان إذا طلبوا ذلك . وكان اللحاق بهذه المدرسة مطلوبا قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ[٣] ، وامتنع كثير من الآباء الفلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم فى المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا فى الأرض. فالتعليم لم يكن يكفل أى ارتفاع فى المركز الاجتماعى لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً فى النصف الأول من القرن . وفى القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومى . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفى المدن الكبيرة وحدها كان هناك شىء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعلم على أيدى المربيات والمؤدبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيرا على أيدى معلمي الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشى والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثارى . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقين فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكور تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأوراتوريين والبندكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات روما القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعا فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » [٤] . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسى وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيرا تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتعليل بقيت — وأصبحت بالفعل — علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تميز فى المرتبة أو المكانة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركيز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانهما فى الفصل ، لأنهما قذفا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء(٥) .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الدينى قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفى « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكى (القديم التقليدى) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع (٦) . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغى أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »(٧) وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذى يليه . وهو جدل حى فى أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقية فى المبادىء الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً . وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعى ، وأن الأب كان أيضا المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يرتكز فى جذوره على نظام اقتصادى يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساسا للنظام الاجتماعي . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيأ لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجا للجد والتقوى والأمومة . وكانت تتحمل آلام الوضع في صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقاتها مع جيرانها ، وقليلا ما انزلقت إلى زخرف الدنيا الخداع التي يسخر الناس فيها من الاخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادرا ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلا رائعاً في العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هي الحياة التي خلد شاردان ذكرها معتزا بها ، في لوحاته مثل «البركة» .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجا للدين والفلسفة معا . وأمدت الأديار الجياع بالطعام ، وعنيت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجيء الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التي تدفعها الدولة والكنيسة والنقابات . وكان بعض الأساقفة مبذرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفراً آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والاحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفي بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء » وفي ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجبن . وعندما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالا بمولود دوق برجندي الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمائة من أفقر بنات باريس ، وحذت مدن أخرى حذوه . وعاشت الملكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم

دخلها فى الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصى المشاغب الخليع ثروته فى أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق فى هذا الموضوع فى الفساد والإهمال اللذين شوها إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديرى مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التى كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان — أنانى وكريم ، وحشى ولطيف ، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء فى المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر فى تهور بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش فى اللعب سائداً إلى حد كبير (٨) . وفى فرنسا ، كما كان الحال فى انجلترا . أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطنى . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخالى من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التى كانت تعيش على الدخول التى كانت تبتزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دى لافرى كانت مشغولة بالمخرمات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلىء ومجوهرات مدام اجمونت تساوى ٤٠٠ ألف كراون (٩) ، وكانت الخيانة والخداع أمرين عاديين مألوفين فى أعمال الموظفين . واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشتروها يستغلونها فى الاثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبى من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة . وفى غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسى عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسى أن يعيش طويلا بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسى تقريباً بالبسالة . وفى حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دى ريشيليو فى منع جنوده من تعاطى المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أى فرد منكم يوجد ثملا فى المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك فى الهجوم » فتوقف شرب الخمر تقريباً (١٠) ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشستر فيلد « إن المرء ليلحقه الخزى والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها (١١) »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ فى الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفى ١٧٢٥ ألقى القبض على الراهب ديفونتين ، الذى كان قد اشتغل بالتدريس فى إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فونتبنلو ، واستحث فليرى ومدام دى برى لاستصدار عفو عنه (١٢) ، وطيلة العشرين عاما اللاحقة كان ديفونتين من ألد أعداء فولتير . وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسيا . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريمو ويل ، اتخذ من الملك دى. الستة عشر ربيعاً غلاما له (١٣) .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفى المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقدون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفى بنفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لهن أن يكملن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلا (١٤) . وقدر كاتب معاصر عدد البغايا فى باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً (١٥) وكان الرأى العام — فيما عدا الطبقة الوسطى متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذى أدى إلى هذا العرض ، وتذرع الرأى العام بشىء من اللياقة ، فأدان الفقيرات اللاتى يبعن أعراضهن أقل مما أدان الذين يشترون المتعة ، أى أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة ، تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضى بايداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تحلق رءوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسأن إليه ، فيمكن ارسالهن إلى لويزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتى يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن فى طريق «كور - لا - رين» فى باريس ، أو فى متنزه «لونجشامب» [١٦] . وإذا حصلن على عضوية الكوميدى فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتنهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتخذهن النبلاء ورجال المال أخدانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب وثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد فى عددها وفى الإنتاج الأدبى . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن فى معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هى وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هذا قال فلاح لابنته « الحظ أقل عمى من الحب [١٧] » .

وكانت السن القانونية للزواج هى الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة فى سن السابعة ، وهى التى حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ « سن العقل » وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الآنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهن حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لإنفضاض البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دى سوفبيف أرملة فى الثالثة عشرة من عمرها . ولزمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن فى الطريق . وبهذا النظام القاسى المنافى للأخلاق السيىء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذ احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادراً ما

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة فى البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللائى لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقة شولن على زواجه من ابنة التاجر بونييه ذات الصداق الكبير . أوضحت له أمه « أن زواج المنفعة ممن هى دونك مرتبة ، هو مجرد حصولى على الروث لتسميد أرضك »[18]. وفى مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب . وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليلة . وفى هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعى ، فى البيئه الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولا باعتباره بديلا ساراً عن الطلاق الذى حرمته الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذى يخدم فى الجيش أو فى الأقاليم له خليلة ، دون أن يبدى لزوجته سبباً مقبولا للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة فى الحاشية أو فى الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليلة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون فى حالة المرأة مقصورة على رجل واحد فى نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحه الفارسى قوله : « إن الرجل الذى يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غبياً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس[19]». وسئل يوماً دوق دى لوزون الذى لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أى سيد ماجد فى القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنى مبتهج فرح لأن الله بارك زواجنا ، اعتنى بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتى هذا المساء[20] » فالغيرة كانت أمراً مرذولا .

وكان بطل الزنى وفتى العصر ونموذج الإناقة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخي الكاردينال الصارم المتقشف . وقد انزلقت إلى مخدعه عدة سيدات نبيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكانته وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطء تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا [٢١] » . وهذا لم يمنع اختياره للأكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائنه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن الرأى معام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنىء . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر [٢٢] » . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبناءهم عوائق فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المرضعات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم ينم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعدوا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمرا شاذا ، وكانت الألفة أمرا غير معروف . فخاطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقبلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

واستمر أسلوب الحياة هذا سائدا فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتخلى الناس تماماً عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل بمفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه فى أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضمحلة . ونشرت كتب كثيرة فى « الأخلاقيات فى فرنسا فى القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشارا ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيما سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين فى الملذات ، أوهنتهم المتعة والدعة » [٢٣] وحوالى ١٧٤٩ رأى مركيز دارجنسون فى إنحطاط الوعى الخلقى نذيرا آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندربه أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين — لا عاطفيين — أكثر فأكثر . . . وإنى لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لاخماد القوى التى تنبع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نحب عشيقاتنا ، فكيف نحب بلادنا ؟ . . . إن الناس يفقدون يوما بعد يوم تلك الخلة الحميدة التى نسميها رقة الشعور . ويختفى الحب والحاجة إلى الحب . . . وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شىء سبيل إلى الدسيسة والمكيدة . . . وتنطفىء جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب [٢٤] » .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسنيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جئن جاك بجيل واحد ، أو صوت الأرواح المرهفة الحس فى أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ — العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرفة مموهة بتهذيب ورقة فى السلوك وأناقة فى الملبس والحديث ، وتنوع فى المتع والملذات ، وفتنة فى النساء ، وكياسة متأنقة فى المراسلات ، وإشراق فى الفكر والذكاء :

« ولم يوجد قط فى فرنسا من قبل ، أو فى أوربا المعاصرة . . . بل ولا فى العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر» [٢٥] قال هيوم فى ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » [٢٦] . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا فى أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر فى قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا فى « المعجم الكبير » الذى صدر فى ٣٠ مجلدا فى باريس فى ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص فى ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة فى العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوايا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هـذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فإنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعتهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر) ، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان فى باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشريط أو فى كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون — من المخمل عادة — فوق البذلة الداخلية التى تكشف عن صدرة مفتوحة عند الحلق ، وعن قميص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء ، علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس فى عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصى . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغلمان الحرفيين والموسيقيين [٢٧] . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : سترة و « بنطلون » قصير من قماش عادى قاتم ، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية ، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطيئة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردية التى كان الأغنياء ينبذونها . وتذمر ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنوراتهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللائى ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اناث قردة أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحببنها لأنها تضفى عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى اجمونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » (٢٨) أما حـذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة — فقد أضفى على قدميها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراهما أحد . وارتقى صانع حذائها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه فى فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريباً ، ذلك « الخف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى فى البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائغة أو تخفى جسم المرأة الحائرة فى كل ناحية . وكان مشد الخصر والردفين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم فى القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلائم المكانه الاجتماعية . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضيعين بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا فى ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتخلف الرجال قليلا عن النساء فى استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطلى بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها، وصدغيها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة فى حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها — صناديق من الذهب والفضــة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلألأت الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الحظوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوها أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن باعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال فى الطبقة الارستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء،أما الزى فيحدده مصممو ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوربا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولـكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » فى فرنسا من جديد .

ولم تـكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولـكنها تطلبت علما دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى ومكمن الخطر فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقلية التى يتناولونها « قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد » (٢٩) . وضرب مثلا طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هــذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ، وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام . ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة (٣٠) ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحــدة فى الشهر » (٣١) .

وكانت الخضروات ضرباً من الترف فى المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم فى البيوتات الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق فى أصبعه خاتم من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكم طمع الطباخون وجهدوا فى ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء سادتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم عجل المنظر الجميل (بل ڤ) — قصر مدام دى بمبادور المفضل لديها — « ودجاج فيلروا» وصلصة الميونيز ، تخليداً لذكرى انتصار ريشيليو فى « ماهون » (٣٢) . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء فى التاسعة أو العاشرة ليلا .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً . ولا بد أن ميشيليه (المؤرخ الفرنسى ١٧٩٨ — ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبى أسهم فى انتعاش الروح الذى ميز عصر الاستنارة (٣٣) . وكانت كل صيدلية تبيع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضـدة الطويلة بداخلها . وفى ١٧١٥ كان فى باريس ٣٠٠ مقهى ، وفى ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب فى كل مدينة فى الأقاليم وفى مقهى « بروكوب» وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف لأنه كان دائماً مظلماً » كان ديدرو ينشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً ليسمع التعليقات على أحدث رواياته . وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذاك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان فى المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالى ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوقه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليتدارسوا شئون الساعة ، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير برامجه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فلبرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣١ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من انجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأ للربوبيين ، ووكراً للدسائس السياسية ، وأصبحت منفذاً للنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووحدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقنص والبرجوازيون بالنزهات الخلوية . وكانت غابة بولونيا والشانزلزية وحدائق التويرلرى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتات أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أماكن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثيليات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين . وكان راقص الباليه مثل كامارجو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ — الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق للى على موليير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بإيطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ؛ ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح فى ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية فى عصر انتقال من الشكل التقليدى إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغانى الغزل أو الهجاء أو أغانى حزينة تتحدى الفتيات ، وتتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتوانى . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنيقات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء فى الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes فى بيت الملتزم العام بوبلنيير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام فى باريس « فرق الموسيقى الروحية » التى أنشئت ١٧٢٥ وتبعتها فى ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا فى باليه رويال » فى وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت فى الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه فى حدائق التويلرى ، وأطربهم المغنون والعازفون فى الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة فى الحياة فى باريس .

وإنا لندرك من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أخى رامو » كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً فى هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذيوله . وثمة ملحن فرنسى واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تتشبث بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن فى كنيسة سانت اتيين فى ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع فى سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفى الكلية استغرق كل جهده فى الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتابا إلا فى الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارعا فى العزف على الأرغن والبيان القيثارى والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد فى ديجون . ولما وقع الشاب فى شراك الغرام ، ورأى الوالد أن فى هذا مضيعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن فى كليرمونت فراند وخلف أباه فى ديجون (١٧٠٩ — ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، فى الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام فى باريس ١٧٢١ . وهناك فى ١٧٢٢ وهو فى التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً فى أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً فى التأليف الموسيقى السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع — « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التى فوقها ، وأن كل النغمات المتآلفة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضى ، الذى شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التى صاغها رامو ، مقبولة فى عصرنا هذا أساساً نظريا للتأليف الموسيقى (٣٤) .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتآليف وتفاسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم (٣٥) . وفى ١٧٢٦ — وهو فى سن الثالثة والأربعين تزوج من مارى ماجنو ، إذ ذاك فى الثامنة عشرة . وفى ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن فى كنيسة « سانت كروادى لا بروتنيرى . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفى ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسيمى » المبنية على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً فى حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك فى نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور فى أكاديمية الموسيقى أدهشت المتفرجين بخروجها الجرىء عن الأنماط التى كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة منذ عهد للى . واعترض النقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جديدة غريبة ، وتغييرات مبتدعة فى طبقة الصوت وتعقيدات فى التوزيع الموسيقى بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت فى التخلى عن محاولاته فى مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانية Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها المنسقة ، أما أوبرا Castor et Polluy ١٧٣٧ فكانت من أروع الانتصارات فى تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفاخر بأنه فى مقدوره أن يحول أى نص إلى أوبرا جيدة وأن ينقل صحيفة أى جريدة إلى موسيقى . وأنتج [٣٦] سلسلة طويلة من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعا به انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثارى والكمان والفلوت . وأخذ لويس الخامس عشر — أو بالأحرى مدام دى بمبادور — بيده ، باستخدامه فى كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التى لقيت فى فرساى نجاحاً أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد . وكتب مزيداً من روايات الأوبرا . ومذ ألفت باريس أسلوبه فإنها نسيت للى . ونادت برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفى ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التى بلغت ذروتها فى السبعينات بالموسيقار بتشينى ينافس جلك Gluck . وفى دار الأوبرا فى باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجولزى « La serva Randona » فاصلا موسيقياً وهى من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغيضة لا تطاق . والعبارة الأخيرة فى مؤلفه « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبلغ دلالة على خلله العاطفى قال : « وفى اعتقادى أنى قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذاك . والغناء الفرنسى مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شىء ولا تشعر إلا بما تلقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسى ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شىء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شىء من الموسيقى فستكون وبالا عليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدروها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالا له على باب دار الأوبرا (٣٧) واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً فى حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال فى حاجة إلى أن تتعلم الشىء الكثير عن الموسـيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجولزى وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك فى قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها اخطاءه التى وردت فى المقالات التى ظهرت عن الموسيقى فى دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هـذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السباب للملحن العجوز فى لباقة تبعث

على الاحترام فى « ابن أخى رامو » التى لم ينشرها تفضلا منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقار الشهير الذى خلصنا من موسيقى لى المتعددة الأصوات التى ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذى كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى — وهى كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التى يجد فيها المرء أنغاماً متآلفة وشيئاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثرثرة فى سرعة وجلبة ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد [٣٨] .

وحين ظهر رامو فى إحدى المقصورات ١٧٦٠ — وهو فى سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا «داردانوس» وهى من إخراجه ، لقى احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قوبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته ديجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو فى قمة مجده حمى التيفوييد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه فى ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووری التراب فى كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة فى فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ — الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر منها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير [٣٩] وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالمجتمع المهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع ائتلفا فى رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم فى حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا فى وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قدير فى السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تنتج بعد آثار كئيبة من عالم مجرد من القداسة

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف فى زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتخلله الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهرى ، وهنا كان التفكير ينحصر فى ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شىء فى أعماقها . وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة فى السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التى قدسها هذا المجتمع ، وهن اللائى تولين توجيهه ، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفى لتبادل الحديث فى فطنه وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحببن أن يستضيفوهم .ونافسن الرجال فى الاستماع إلى محاضرات رجال العلم (٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا فى المعسكرات وطالت إقامتهم فى العاصمة وفى الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمفاتن غير الملموسة فى النساء — رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الذوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرحمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبة فى كل مدينة ولكنا ربما لا نجد فى أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلى وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الألباب بقدر ما كانت عليه فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفاتن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء فى معالجة الرجال وسياستهم أمر ضرورى. وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفى بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون فى تهور بالغ إلى أفكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المتفتحة ، هيأ لهـا فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وفتشت البسالة فى ميدان الحب عن جزاء وفاق لها فى الصالون وفى مخدع

المرأة وفى الحاشية على حد سواء . وكم اهتز الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق . وكم رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء علماً وأوسعهم إطلاعا وجدوا فى الصدور الناعمة وفى حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبعت العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجى لبرون فيما بعد « كانت المرأة تحكم آنذاك ، ثم ثلت الثورة عرشها » (٤١) . إن النساء لم يعلمن الرجال أداب السلوك والعادات فحسب ، بل إنهن كذلك رفعن أو خفضن من درجاتهم فى الحياة السياسية ، بل حتى فى الحيـاة العلمية . من ذلك أن مدام دى تنسان هيأت اختيار ماريفو بدلا من فولتير ، لعضوية مجمع الخالدين (الأكاديمى فرانسير) فى ١٧٤٢ . وكان شعار « فتش عن المرأة » وسيلة النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التى يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ الذى تصل منه إلى الرجل الذى تريد .

كانت كلودين الكسندرين دى تنسان — بعد بمبادور — هى السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتى سيطرن على فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت دالمبرت ، واتخذت لها مسكناً فى باريس فى شارع سانت أونوريه حيث اسـتقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجبروك ، ريشيليو ، فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى فى سن السبعين) وعدداً من الرهبان ومدير الشرطة فى باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه كاردينالا ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركناً قوياً فى حياة فرنسا .

إنها جمعت المال أولا : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها باعت الأسهم فى الوقت المناسب. وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دى لا فرزنى ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحر فى دارها ، تاركاً وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . وتحدث ثرثرة المدينة والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دى تنسان إلى مخدعها صالوناً اتخذته سلما ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم « معرض الوحوش » منهم مونتنيل ، مونتسكيو ، ماريفو ، بريفوست ، هلفشيوس ، استروك ، مارمونتل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلى ، كوندرسيه ، وأحياناً تشسترفيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تكن تطيق على مائدتها أية منافسات . ولكنها أطلقت « لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات تألقاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له (٤٢) .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا ورومة . ولم يكن أخوها طموحاً ، بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولكنها سعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة . وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو خليلة للملك ، واستحثتها على حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . إنها رأت فى بلادة لويس وتكاسله مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رياسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالونها فى جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

وفى شيخوختها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات على الجانسينين ، وتبادلت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية ما رمونتل الشاب وأسدت إليه النصح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم [٤٣] . وأصبحت هي نفسها ، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وسترت الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت . وقارن أصدقاؤها النقاد قصتها بقصة مدام دي لافاييت (برنسيس دي كليف Prnicesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين [٤٤] . وربما ألتقينا به هناك .

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دي فيشي شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الأوان ، وكانت تلقى أسئلة تتسم بالتشكك إلى حد مزعج ، وإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتخلى عنها يأساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتذل ممل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منيت فيها بخسائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسي

عن هذه الحماقة » . وقضيت فترة قصيرة خليلة للوصى (٤٥) . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دى مين . وفى مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دى بون ، التى قضى فيها فولتير نحبه . وإذ اشتهرت بجمالها وعينيها البراقتين وذكائها الحاد، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دى شانيليه ، ديدرو ، دالمبرت ، مارمونتل ، مدام دى ستال دى لونيه . . . . . . وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلوائها بعض الشيء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دى مونتسبان . وتبع صالون المركيزة شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يجيء مارمونتل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين . وسرعان ما انقطع د المبرث . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقيلتاهما ، دوقا ودوقتا دى بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دى ديفاند من أيام طفولتها ولمدى الحياة ، وهو بونت دى فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفترقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحا . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يحتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث فى ١٧٥١ « انى لاذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه ! (٤٦)

وتفردت دى ديفاند بأصفى دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطرسة عيابة شكاكة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لا روشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هى بقولها فى ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان » (٤٧) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضغينة كما فعلت فى وصفها مدام دى شاتيليه . ولم تر فى الحيـاة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشتركوا، بقدر ماسمحت به ظروفهم فى رذائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس . وتجنبت الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت دالمبرث ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سيىء السلوك حاد الذهن . والتقت به فى ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت فى ١٧٣٦ تبادله الرسائل التى تعد من الروائع فى الأدب الفرنسى ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو فى رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفى سن الخامسة والخمسـين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص فى طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا فى شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة العجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت حتى وهى مبصرة ، وشجعها على المضى فى الحيـاة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتبها السنوية . ووجدت فى جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هى آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تتنقل هنا وهناك وقورة شامخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً أخر . وإنا لنأمل أن نلتقى بها هى أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصراً مشرقاً زاهياً ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهب الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشـد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلا ، ونريد منهن الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة فى إيضاح آرائنا لهن فى يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسى أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية سحراً رقيقاً ، ورشاقة فى العبارة ولباقة فى الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضـل النساء انتقل الفن الفرنسى من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهذب المصقول والذوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة فى فرنسا .

* * *

الفصل التاسع

عبادة الجمـــال

١ — انتصار الروكوكو

فى هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع — عصر طراز لويس الخامس عشر — كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفى الفن والموسيقى ، كما فى العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعى . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهوانى ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرهافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة فى الحياة الذى كان قد بدأ على عهد فيليب دى أورليان ، بلغ ذروته فى أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأ أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سـيفر إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الوقور للرشيق الرقيق ، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، فى غمرة طوفان من التغيير تتعجل حـدوثه . وفى هذا الطراز الدنيوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، ورقت الألوان ، وخلت الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانات الباسمة المشرقة فى الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة فى الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلا . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث دون نقوش . وعلى

الرغم من أناقة الروكوكو الجذابة ، فإنه أنتج آلافا من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقتها وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليلا ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، في مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التي كانت يوما أقل شأناً . وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوربا في العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة موضع تكريم مع الرسامين والمثالين والمعماريين في هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والاتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر ضخما مثل ما كان في عهد الملك العظيم » وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهي ، واتخذت الأرائك أشكالا شتى ، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أي إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن[1] . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحه بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمه نقشاً جميلا . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الذراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القرأ (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسند القدمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفرة — كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا فى النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل فى النصف الثانى من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذى أدخله أندريه شارل بولليه فى عهد لويس الوابع عشر ، وأهمله أبناؤه من بعده ، حيث كانوا نجارى الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش اللك « ووضع فولتير » أشغال اللك « فى فرنسا القرن الثامن عشر ، فى مرتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافييرى ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز فى تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدت بنجارى الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونييه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهارانه وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمى فى زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة فى الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذى ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفى هذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب — صنعت كلها فى تناسق فى الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشترى للون جلدتها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشترى من أجل محتوياتها . ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوصة وراء الزجاج فى خزائن جميلة

مرتكزة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة فى فرنسا قبل ١٧٥٠ ، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به . ولم تعد المدافىء من ذاك الطراز الضخم الذى كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة مترفة ، وفى بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم فى هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرآة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافىء مفتوحة تسترها حواجز مزخرفة ، ولكنا كنا نجد هنا وهناك فى فرنسا ، كما كان فى ألمانيا ، موقداً مكسواً بالخزف المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التى تثبت بمائة طريقه مختلفة ، تبلغ أقصى روعتها فى الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البللور أو الزجاج أو البرونز . وإنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفى هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفى كل أنواع النسيج تقريباً — من الدمقسى والمطرزات والمقصبات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدت فرنسا فى تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان فى المخمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحرير المزركش . وفى ليون ابتدع جان بيلمنت وجان بابتست هويه وغيرهما سجاجيد تعلق على الجدران ممهورة ومخيطة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج يصنع فى المصانع المؤممة فى باريس وبوفيه ، وفى الحوانيت الخاصة فى أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها فى الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للتزين فقط وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار النساجون فى مصانع الجوبلان وبوفيه فى عملهم وفق التصميمات والرسوم

التى وضعها ، والألوان التى تصبح باستخدامها أئمة الرسم فى ذاك العصر؟ وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التى نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التى أعدها شارل أنطوان كوبيل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفى ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت فى الأصل لصنع الصابون — وأطلق عليها المصنع الملكى لصناعة السجاد على طراز سجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هى التى تقوم بالتنجيد الذى يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسى الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الذليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيهم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيأت لهم حروب لويس الربع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يحذوا حذوه . وسرعان ما لبت مصانع الخزف فى روان وليل وسكو وستراسبورج وموستير سانت مارى ومرسيليا هـذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر إشجع الميل إلى الأطباق وغـيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف — شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها فى تاريخ أوربا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسى وابتدعوا أشكالا كثيرة منه .

وفى نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصينى . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة الملساء تصنع فى أوربا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ فى فلورنسه و ١٦٧٣ فى روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصينى ، أو حجر الطفل الصينى الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغربتة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هـذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية - وبخاصة فى شانتيللى ، وفنسن ومنسى - فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلا جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساى) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيداً إحتياطياً قومياً ، محولا السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات نافعة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستخدمها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات المحار ، ملاعق المثلجات ، ملاعق السكر ، أطقم الصيد ، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل ، أضف إلى ذلك مملحة المائدة ، وفناجين الشاى والأباريق والأوانى وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . « وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية (٢) وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأوانى والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كونتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد . . . . وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سمة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالا خرافية من التصميات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبى اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو لتركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر اليشب أو الخزف الصينى . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة — من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساى . وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثاليين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصغيرة فى الحياة أعظم ثروته خلوا من الهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تاليران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة »[٣] ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ — فن العمـــارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء فى البناء أكثر منها فى الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التى نظمها كولبير فى ١٦٨١ يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذى كان قد أكمل قصر فرساى . وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبراييل وابنه جاك آنج خلفين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه فى قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكى ، بالمظاهر الخارجية التى سادت فى القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادو من مبان .

وخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيستين قديمتين . ذلك أنه فى ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ — ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندونى كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذى طابقين فى مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيونية من طراز بللاديو الرومانى الكئيب ، ولكن العمارة المدنية هى التى عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت فى تلك الفترة إلى وزارت وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماتنيون ١٧٢١ الذى أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ — ١٧٥٠) الذى أدمج جزء منـه فى مجلس النواب ، وقصر سوبيز (الذى عدل بناؤه ١٧٤٢) والذى أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفى عهد المركيز دى مارينى ، مدير المبانى ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المعماريين والمثالين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالا لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسنا . وكان المهندس المعمارى الأثير لديه هو جاك آنج جبرابيل الذى ارتضى التقليد الكلاسيكى عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون فى إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جبريل بتصميم المكان الذى يحيط بالتمثال . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلرى والشانزليزيه ، دائرة من « الدرابزينات » والحدائق الغائرة ، وشاد فى الطرف الشمالى قصر كحريون الحالى ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكى بحت ، وعمد إلى تزيين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خليلات الملك — ميللى فنتيميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسميه اليوم ميدان الكونكورد . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام فى حركة المرور منذ مائتى عام . وجيمس انجل جبرائيل هذا هو نفسه الذى شاد فى ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتى تضاهى رشاقة أعمدتها مثيلتها فى أية ساحة رومانية قديمة .

ولم تكن باريس هى وحدها التى جددت مبانيها وغيرت وجهها فى هذا العصر ففى شاتنيللى عهد دوق بوربون إلى جان أوبيرت بإقامة اسطبلات لجياده وكلابه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفى اللورين جعل ستانسلاس لزكزنسكى من نانسى واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكمل بوفران بناء الكاتدرائية التى كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انسار » وفيما بين عامى ١٧٥٠—١٧٥٧ أقام أمانويل هيرى دى كورنى « المدينة الجديدة » فى نانسى : دار البلدية من طراز الروكوكو ، وميدان ستانسلاس الذى يؤدى عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دى لاكاريير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بحواجز من قضبان حديدية متصالبة (١٧٥١ — ١٧٥٥) هى أجمل ما صنع من نوعها فى الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان

يس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المنتزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبلييه . وفيما بين عامى ١٧٣٠ — ١٧٦٠ حول جان جاك جبرابيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومنتزهات طلقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المبانى العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تخطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المبانى فى سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفى أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير فى مجال العادات والفن .

٣ — النحت

خاض النحت فى تلك الحقبة معركة مريرة فى محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتصرت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفى عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفى زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبع الأغنياء فى مبان أصغر حجما ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً فى قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسامين . واقترح بيجال أن يكون هناك مثال ملكى على غرار الرسام أو المصور الملكى ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذى جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامى الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفانى فى صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذى لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تهيأ لبعض هؤلاء المثالين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي اللعوب المرح على حين ظلوا يحبذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينموا فى أسرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس فى تزيين القصور الملكية فى مارلى وفرساى ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رامزا إلى أنهار فرنسا ، وهى الآن فى البلدية دار البلدية فى ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » فى كنيسة نوتردام دى باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعا تغالب الزمن والجو فى حدائق التويللرى . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنقولا ، تمثالا من المرمر لمارى لزكز نسكا ، مثل تمثال جونو(٤) (زوجة جوبيتر فى الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياد مارلى » القوية (١٧٤٠ — ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام فى المدخلين الغربى والشرقى لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثانى ، فقد حفر للدوفين مقبرة فى كاتدرائية سنس .

وأنجبت مدينة نانسى أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب سجسبرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت سجسبرت آدم عشر سنوات فى الدرس والتحصيل فى رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نقولا سباستيان فى إقامة نافورة « نبتيون وامفتريت » (إله وإلهة البحر) فى حدائق فرساى ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر — هدية من لويس الخامس عشر — مجموعتين من الرخام — صيد الحيوان وصيد السمك — لقصر سان سوسى . ثم رجع نقولا سباستيان إلى نانسى وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا فى كنيسة نوتردام دى بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جسبار ، أسهم فى تزيين عاصمة ستانسلاس .

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيليوكافييرى الذى غادر إيطاليا فى ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل فى خدمة لويس الرابع عشر .

وثمة ابن آخر هو جاك كافييرى الذى بلغ بعبقرية الأسرة إلى الذروة متفوقا على كل معاصريه فى أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً فى الإفادة من فنه فى زمانه . وفى قصر فرساى اشترك مع ابنه فيليب فى المدفأة فى جناح الدوفين وفى صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التى صنعها للأثاث أثمن وأغلى قيمة من الأثاث نفسه(٥) .

وارتضى آدم بوشاردون — الذى أسماه فولتير « فيداس » فرنسا(٦) (نحات أغريقى فى القرن الخامس ق . م) — ارتضى تماما كل القواعد الكلاسيكية التى نادى بها راعيه كونت دى كايلوس . وجد لعدة سنين منافسا للمثال بيجال حتى خيل لهذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون فى قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »(٧) ورأى ديدرو أن تمثال « الحب — كيوبيد »(٨) الذى صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التى أقامها المثال نفسه فى شارع جرينل فى باريس ، وهى تحفه رائعة فى جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفى ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه فى ١٧٥٨ ، ولكن لم يمهله القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تكل إلى بيجال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التى طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما ينبئ عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال فى ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمته ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبذ جان بابتست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز — مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح أو الحزن — مما تجرأت التماثيل الهللينية على أن تعبر عنه ؟ وبهذه الروح صمم ليموين

مقبرتى كاردينال فليرى والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك فى تمثال مونتسكيو الذى نحته لمدينة بوردو . أبرز المثال المؤلف « روح للقوانين » ساخرا مكتئباً شكاكاً ، وسطا بين سناتور رومانى وفيلسوف إقليمى يسخر من أساليب الباريسيين فى حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هى العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التى صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيرى الممتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكونيه فى عصر من أعظم عصور النحت فى فرنسا .

٤ — الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسى المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء فى أبهى حللهن وتورد خدودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التى لم يسبق لها مثيل فى تقاطيع الوجوه ، وفى الثياب وفى العادات وفى كل الكماليات فى حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوما خطيئة ، وهى تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شىء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها ثأرت لنفسها من تلك القرون المرعبة التى أذلتها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشأها إلا الخصيان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شىء ينم فى جراة أكبر على اضمحلال الديانة فى فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسى .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة فى رعاية الفن . وفى باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافسا ومستحثا للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفى الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية فى ليون ونانسى ومتزومرسيليا وتولوز وبورد وكليرمنت

فراند وبوو ديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت ثنتا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت فى دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً شديداً ، وفى بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون من لم يفوزوا فى هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال الذى يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت فى إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم فى الشوارع ، وفى بعض الأعياد الدينيــة كانوا يثبتونها فى الستائر التى تتدلى من نوافذ الأتقياء فى الطرق التى يمر بها الموكب الدينى . ورغبة فى تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٧ وبعد انقطاع ثلاث وثلاثين سنة ، أقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين فى « القاعة المربعة » فى متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوى أو الذى كان يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح فى أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثا مثيرا فى الحياة الفنية والاجتماعية فى باريس ، وفى دنيا الأدب ، وجعل الصراع بين المحافظين فى الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من الفن معركة تنافس معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية فى أحاديث الناس فى العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة غير المبالغ فى زخرفتها ، والتهذيب الذى يعاون على الإصلاح — كما كانوا هم أنفسهم موضع احتقار — أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية . وأصبح النقد الفنى عملا ناجحاً . وكانت « تأملات فى فن الرسم » للكونت دى كابوس تقرأ فى إسهاب على الملاء فى الأكاديمية . وروى جريم أنباء المعارض لقراء رسائله . وتخلى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح واحداً من أشد النقاد الفنيين معارضة فى ذاك العصر . وأثار الحفارون على الخشب والمعادن مثل جاك لى بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم هم أنفسهم . وكان لى بلون أول من بدأ الحفر بالألوان فى ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا فى مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأت الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ — فى حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد فى تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، ولسوف نعرض فى تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوادى تروى ، ولكنه كانت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيما . وأحبه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح فى البستان[٩] » ووجد فى إغراء السيدات لذة أكثر منها فى رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسواه لموين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتست) عقد قاعة هركيول فى قصر فرساى بنحو ١٤٢ شكلا ضخما ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن احلال اللون الوردى الذى تؤثره مدام دى بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمره فى لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوبيل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان فى رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفى ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فردريك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرآة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجمال التى أحبها كيوبيد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتيير بشعبية ورواج فى رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشويهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة ، حتى أن كل السيدات اللاتى

رسمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن فى لوحاته، فاتنات مغريات كما اعتقدن دائماً فى أنفسهن . ولوحته « مدام دى بمبادور » معلقة فى فرساى ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لهفتها على السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناتيير . فقد رسم مارى لزكزنسكا سيدة برجوازية تشرع فى القيام بنزعة فى الريف (١٠) وأنصف كل الانصاف جمال أدليد(١١) ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناتيير لوحتين له ولزوجته القيصرة ، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقده أجرا . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود فى الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره(١٢) . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين فى حجرة الانتظار — حتى على بوشيه وشاردان — نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . ولد فى نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفى باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى فى إيطاليا فصلا دراسيا آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، بأتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته فى الاشتغال بفنه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه فى شىء من الاشمئزاز (١٣) بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء فى حياة أسرية نموذجية ، فخورا بزوجته البارعة المصقولة ولوعا بابنته كارولين . وفى ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه فى زخرفة قاعة المجلس

الرائعة فى قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده فى الكوميدى فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودى بحياته ، نهض الحاضرون وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه العلاقة الوثيقة بين الفن والأدب فى هذا العصر الذى تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية فى أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجى القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها فى عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكى فى بوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل فى حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحماسته ؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضحا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة فى اللوفر ، فى « ديانا دى بورتيير » . وتملكت النساجين فى الجوبلان الغيرة من النجاح الذى أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه فى صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التى وضعها . وفى الوقت نفسه أسهم فى كل من بوفيه وباريس فى تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فنانى منتصف القرن فى فرنسا امتيازا وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفا قاسيا .

٢ — بوشيه : ١٧٠٣ — ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل فى لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة فى المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شىء إلا الصدق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق . . . . وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره فى خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ . . . . . إن هـذا الرجل

لا يمسك بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال . . . . فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التى تدخل البهجة على نفسى ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو إمرأة ذات وجدان حى . إنه مجرد من الذوق . . . . والواقع إنه فى تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) (١٤) » .

ويحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابنا صميما من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلا بالقرب من اللوفر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذ أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا ليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس فى مباذل عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته (١٥) ويروى لنا إنه وقع مرة فى حب رومانتيكى مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجا للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تقوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسى غير شرعى ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحى والإلهام ، كما أفلتت منه روزيت . ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف (١٦) .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفى هذا المرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والرقة الناعمة . وفى قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التى كان روبنز قد حول فيها الحياة لمارى مديتشى إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفى ١٧٢٣ ، وهو فى سن العشرين فاز بجائزة رومه

التي أهلته للاقامة الكاملة في باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات في رومه . وإنا لنحصل على صورة حياة الطالب في عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطافوا به حول ميدان اللوفر .

وفي ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية في رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه . . . . جحراً صغيراً في غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقيم تحت السقف[١٧] . ولكن لم يكن لزاما على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوما أن ينام في هذا الحجر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به في رومه . وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدا ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلأنجلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسى ١٦٩٦ — ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادرا ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » في الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهي من بين عروضه التي لا تحصى لشكل المرأة . وخيل إليه في ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها في نموذجه جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه »[١٨] فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلا . وكالت له هي بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينوو آرميد[١٩] » التي كسبت له العضوية الكاملة في أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة في حجرة نوم الملكة التي كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يذق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه في رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تريث

طويلا إلا نادرا مع إمرأة واحده ليكشف شيئاً أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجي ممتع بلا حدود ، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفى كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريرى الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تنتعل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلبا وقالبا .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداء ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل[٢٠] وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهشون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية[٢١] . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشترى لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد — نقرة فى الخد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريرية ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بفضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى مرسمه ، تاركا بصماته على كل شىء يلمسه تقريباً . وفضلا عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والخزف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية » ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان سفير أفروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية فى الغابات والحقول ، بجوار المياه الفوارة والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغرى بحرارة الدم وتطريها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمه ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » وأبرز — وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال — فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض فى الفناء الخلفى ، والحمير ترزح تحت أحمال من الأوعية والآنية التى تحدث قعقعة . واستكمالا لذخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج فى هذا القرن .

وفى ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسما لمناظر قروية إيطالية (٢٢) . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيرا إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » — خمس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهى من التحف الرائعة فى فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » (٢٣) إحداها وهى « صائد الطير » تمثل حبيبين فاتنين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شبها باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيرا ، لأنه عندما توفى أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفى الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدة حماسة وغيرة . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذى سعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية فى الجمال الأخاذ والرقة يحار الناظرون إليها فى الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهيئ لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيأ لنا أن نلمس مناقب الذكاء والرقة التى حببتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذى جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفنى النسوى الرفيع فى الثياب الذى أضفى فى كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة . الرحلة — لاتور « استطاعت بمبادور تذكير الملك فى هدوء بالجمال الذى ولى والفتنة الأرق التى بقيت . وربما استخدمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية فى ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن فى أنها جعلت من بوشيه صديقاً أثيرا لديها ، ووفرت له جناحا فى اللوفر ، وتلقت عنه درساً فى النقش ، وبحثت معه مشروعاتها فى زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب » [٢٤] وفى كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقا .

وعمر بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر ، وظلت أحواله فى ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية . وتكاثر عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثريا ، ولكن لم تقل حماسته وغيرته فى العمل عن ذى قبل ، وطهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عربيدا محسنا خيرا ، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبدا مرح ودود ، « لطيف كريم غير متحيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة . . . . . به مناعة ضد التلهف الحقير على كسب المال »[٢٥] وكان متعجلا فى عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق لخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس فى حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملا فى رسمه مبالغا فى ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللطف جمالا ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الخدود . . . ونساءه العابثات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسلينوس غير الشرعيين (إلها الخمر والعربدة فى الأساطير اليونانية) (٢٦) ومات بوشيه وهو يعمل فى مرسمه تاركا على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعند ما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامى عنه ، وإنى لأكف الآن عن الحديث عنه . (٢٧) ولنكتف نحن بهذا القدر ».

٣ — شاردان : ١٦٩٩ — ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان — أى تباين بينهما فى مفاهيم الجمال وفى الخلق وفى الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابتست سيمفون شاردان برجوازيا ، وظل برجوازيا قانعا ، وصور الحياة البرجوازية فى اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية فى نقابته ، يمتلك دارا فى شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنه جان سيخلفه فى مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه فى المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وفرشاته شطر الأشياء التى حوله فى المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمرسم بيير جاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساما فى البلاط الملكى .

ولم يكن الشاب سعيدا هناك ، فإن النماذج التقليدية التى طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحيـــاة التى عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الحلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان — وربما تذكر عند ذاك شعار الرسام

اتو لجرسانت — رسم لافتة ضخمة تمثل رجلا جرح فى مبارزة ، يقوم على العناية به جراح ومساعده ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركبة ، وامرأة تحدق النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملقون من فوق الرؤوس — كل أولئك فى منظر رائع عن الصخب والايماءات والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقى باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئاً عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) — طبق فضى فيه فاكهة — فى معرض فى الهواء الطلق فى ميدان الدوفين . ودعاه بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفى ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التى وعده أبواها بصداق كبير ، ولكن فى فترة الخطوبة منى الوالدان بخسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نقير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيأ لهما أبوه مسكنا فى الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهناك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسمك والخبز واللحم كل الأشياء التى تبعثرت فى أنحاء الغرفة ، نماذج لفرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة فى الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص فى البيئة والتركيب والضوء قلما تلحظها العين الغافلة . فإن جانبى التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا رومانتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحداه أن يمسك به فى حركته السريعة ، ويحاول تثبيته فى فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى أمانة وتبصر ، وبراعة فنية فى اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية الميتة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتفردها . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط فى إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل فى مرجل قديم محطم ، وفى جوزة ، وفى قشرة برتقالة . وفى فتات كسرة خبز جاف . فنى هذه كلها شعر دائما كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من فى فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوما شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال فى عين الرائى أو المشاهد أو بالأحرى فى نفسه . إن شعور شاردان القوى وبصيرته النافذة — وفقره — كل أولئك هو الذى جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة — أو الاسطورة ؟ — كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيه أجرا لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرق التوابل (الصلصة) . [٢٨] . وكانت سخرية لاذعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضييقاً شديدا ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه فى الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف فى نفسه عن عبقرية فى رسم الأشخاص فى رقة وتعاطف ، وكان هو الذى هيأ لهذه العبقرية أن تخمد . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقة أفيد نفسه ، « المتفاخر »[٢٩] . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضا كان التفوق والامتياز

فى الملابس لا فى الوجوه . وفى لوحة « الطفل والخذووف (النحلة) » خطا شاردان خطوته الثانية : اليدان بشعتان بعض الشىء ، ولكن الوجه ينبئ عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الرقيق منفذا فى رسمه للبنات ، كما هو الحال فى التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد : « بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تتسلى بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير فى النساء الاغراء الباسم الذى أثار بوشيه ، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التى هى عماد الدولة ، وهى التى تقودها إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن الفرنسى ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها فى كل ما تقوم به من خدمات جليلة آسرة : احضار الطعام من السوق ، سحب الماء ، تقشير السلجم ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو التهرب منه ، أو كما أبرز شاردان فى أشهر لوحاته « الخير والبركة » (٣٠) الامساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ، ويداها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع فى وجهها ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً فى ملابس البيت ، غير متبرجة ، فى حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً فى أمان إلى فراشهم ويتدثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهى أكثر حكمة وأكبر عقلا من الحاشية ، لا تزال متعلقة بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التى وفرت لها عونا روحيا . وهذا هو أعظم فن نفعا وصحة فى كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التى يهلل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجا محدوداً جداً آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده فى بساطة قانعة . ولم يساوم مع عملاءه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما كان يعمل فى بطء وكد وجد ، فإنه انهك نفسه فى فقر نسبى ، على حين أن بوشيه استنفد جهده فى يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو فى بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصداق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنسيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزه ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرا ممتنا .

وزيادة فى معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتبا قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينته الأكاديمية (١٧٥٤) أمينا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها فى قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفى ١٧٥٦ أقنع صديق نقاش — هو شارل نيقولا كوشان الثانى — مارينى بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة فى اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذى كان تواقا إلى ابعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر مارينى . فأخرج شاردان فى جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى (٣٢) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دى بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعود للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفى نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففى ١٧٦٧ نرى ديدرو الذى كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول فى أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل (٣٣) » . وكانت لوحات لاتور المرسومة « بالبستل » تأخذ بمجامع الألباب فى باريس . وفى غمرة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقانا وكمالا فى اللوفر . إحداهما تمثله فى قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) فى أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط باحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألما . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التى أبدعها لزوجته الثانية ، وهى آنذاك فى الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هى اللوحة التى يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكانت خاتمة مظفرة لحياة فذة شريفة كريمة . ولسنا فى حاجة إلى تصوير شاردان رجلا بريئا من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضا ، وقد وخزته أشواك الحياة وأساءت إليه الأحقاد ، كان فى مقدوره أن يقاوم بالانفجار فى الغضب وفى قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة فى ١٧٧٩ ، فإن أحدا فى دنيا الفن الباريسى الحاسدة الحاقدة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فنى لم يبزه فيه أحد فى زمانه ، عن فرنسا ، التى هى فرنسا الحقيقية التى لا تزال سليمة بارئة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر — ويساعد فرنسا على البقاء — بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا »(٣٣) .

٤ — لاتور — ١٧٠٤ — ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم إكليل الغار فى فن الرسم الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، إلى بوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كانتان دى لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقا ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطانى ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعا إلى جمع المال فى جشع شديد ، مغرورا وقحا متغطرسا ، عدوا لدودا وصديقا متقلبا عميقا مزهوا مثل رجل عجوز يخفى سنى عمره أو يفاخر بها ، وكان أمينا

صريحا ، بخيلا ، ومحسنا مسرفا وساذجا أنيسا ، وطنيا ملتهبا حماسة وغيرة ، يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذى عرضه عليه الملك . ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام فى عصره ، وأعظم مصور بالبستل فى تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوما إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على الأجانب ، وقال له « ظننت أنك فرنسى » . فأجاب لاتور « لا يامولاى ، أنا من سانت كانتان فى بيكاردى (٣٤) » (مقاطعة فى شمال فرنسا كانت يوما جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن يكون مهندسا ، ولكن الولد آثر أن يكون رساما ، فأنبه الوالد على ذلك ، وهرب موريس وهو فى الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كمبراى ، يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفى كمبراى دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز إلى لندن ضيفا عليه فيها . وذهب إليها موريس ، وهنا جمع مالا وقضى وقتا سعيدا مستمتعا بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزى . وكانت روزاليا كاريرا فى باريس فى عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ، إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثى الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتيم مع مزاجه القلق ، أكثر من الزيت الذى يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظلالا ودقة فى اللون والتعبير ممـــا لم يتسن لأحد من رسامى الأشخاص فى زمانه أن يباريه فيها .

وعندما عرض بعض اوحاته فى معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو فى رداء الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هى التى فازت بالجائزة فى معرض ١٧٤١ . أما لوحته التى رسمها للسفير التركى فقد تكاثر عليها الجمهور المعجب فى

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التى تهفو دوما إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثا تاريخيا . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلا « ماذا تتوقع منى أن أفعل فى هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصا ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدى أعلم أنك لست سيدا فى دارك » . وفى مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخما ، فاعترض الملك فى خبث « فما بال فرنيه الذى صور مناظر البحر يعج بالسفن [٣٥] » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدره فى رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقعوا فى حبائل المخادعين المخاتلين »[٣٦] .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة المزعجة ، منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ — التى هى بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن فى ١٧٤٩ ، نتيجة سعى حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيدا من رسوم البستل . وفى ١٧٥٣ شكا أحد مصورى اللوحات الزيتية « من أن دى لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكى فى نحره بالحوافز والروائع .

وكان له منافس فى البستل ، هو جان بابتست برونو الذى كان يؤثره ليموين وأودرى وغيرهما من الأكاديميين على دى لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصيا) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دى لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه فى لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وابرازا للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كلتاهما جنبا إلى جنب فى معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهدوهما ان اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التى رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر فى متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التى تحدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التى عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريباً . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة فى المملكة أجاب « أرجو أن تتفضلوا بابلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل ايقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقاؤه أن يقبل . فأرسل كتابا ينبئ بأنه سيحضر ، ولكن شريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حذائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتنى يا سيدتى أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعنى أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التى رسمها لاتور أعمق من تلك التى أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وابراز الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركيزة ، بايحاء منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعند ما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبذيرها واسرافها فانها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهبا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى نوتردام ، بما فيها روائع برون ولى سير ، وأجاب لاتور سلبا . وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعا لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ود المبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح قمة فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام[٣٨] ، ولاكامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفا عاقلا حكيما[٣٩] ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات[٤٠] ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه[٤١] . ولبس الخز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها : فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرستقراطية ، فى ندوة مسيو دى لابوبلنيير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثالين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة — فانلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشا إضافيا ومسكنا فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان ، فوق كل شىء ، محبوبا .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الآنسة فل Mlle Fel التى ساعد غناؤها على نجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاترر من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شىء من العزاء

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره . ودفع ثمن الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد ، بما لقى من إذلال طال أمده فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته . وسمع النقاد يتحدثون عنها ، وكأنما أدركها الفناء .

وعند ما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كانتان ابنها السخى المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والهتافات الشعبية . وعمر فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمتم بشىء من فلسفة وحـــدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، والكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ، ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفارق الحياة قبل قيامها بعام واحد . وقبل أيدى خدمه وهو فى النزع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ ـ صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف فى أوربا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها فى الدبلوماسية العالميـة ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا فى التحدث إلى قواته . وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفى ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهـذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا فى عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم فى الأراضى الوطيئة وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسى فى القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسى بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعى ، تنهل منها النخبة الممتازة فى أوربا ، ثم الرغبة فى إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر فى العبارة ، ورشاقة ووضوح فى الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة فى هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسى ضحى بالصراحة البريئة عند مونتانى والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسى الوهن والضعف فى سجن القواعد التى وضعها بوالو ،

وانزلفت الأكاديمية نفسها — حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ — إلى شكليات غامضة وضآلة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية فى عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب فى كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان فى باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات فى كثير من المدن ، وكان فى بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجماهير ، نظير رسم دخول ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتبا لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » ، وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانونى الوحيد هو الترخيص الملكى بالنشر وكان فى هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه فى فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسئ إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة فى أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطبع هناك بالفرنسية ويوزع فى الخارج ، ويتداول سرا فى فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين فى باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثار ضعف الدولة فى عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية فى المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التى حدث من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التى كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بآذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما ، وانضمت الطبقة المتوسطه العليا إلى الأرستقراطية فى اصغائها لهذا النقد ، أملا فى تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفى هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقوبلوا بالترحيب فى الصالونات حيث تحدثوا وأيدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا فى قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفى بعض الأحيان يسكنونهم فى قصورهم ، مثل ما فعل بوبيلنيير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة فى الدولة . قال ديكلوس فى ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمرون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأى العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »[١] (وفى ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذى يتحقق به تشكيل الرأى العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مئات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيلاؤها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد فى الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية فى الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التى شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهوله عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نقح رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملا فى أن يطالعها أكثر من الشخص الذى أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئيها ، كذلك نجحوا أحيانا فى أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أى قطعا من الأدب . وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعى وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسه والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة فى الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت فى معظم الأحوال نقاشا فى السياسة والأدب والفن ، وكانت فى بعض الأحيان نثرا — لغة المجتمع — يزخر بالسجع الذى كثيراً ما يأتى عفو الخاطر فى الفرنسية ، مع أكبر الأمل فى إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التى يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ فى القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعقاب والأجيال القادمة . احتفظت بشىء من سحر المكاتبات وفتنتها ؛ وفى نهاية الحقبة ، فى ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دى ستال دى لونى التى كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دى سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها فى النثر (٢) .

٢ — المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التى احتلتها فى باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتى لصاحبها بالثروة والشهرة »(٣) . وكانت هناك فى الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحى خاص فى بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية فى فرساى . ولكن التحمس للروايات فى باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكوميدى فرنسيز » فى « المسرح الفرنسى » بأعلى الدرجات فى الموضوع والأداء ، ولكن الجماهير الغفيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبراكوميك » . .

وتألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا فى « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التى يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجا وثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التى نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حوارا طويلا ، فإن التمثيل المسرحى لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بدا سخيفاً(٤) وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحى أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطونى وهما يخطبان فى أهل روما بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين فى هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير فى مثل هذه الظروف(٥) وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التى أيده فيها ديدرو وغيره ، أثرها فما وافى عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح فى فرنسا قد أخليت من المتفرجين .

ولقى فولتير نجاحا أقل فى حملاته لتحسين الوضع الدينى للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرستقراطية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت فى اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والأعمال المخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم فى الأرض المخصصة للمؤمنين — وهى تشمل كل المقابر فى باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجورا من الملك ، فى الوقت الذى تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقا ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم فى السجن (كما حدث عند ما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) فى البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، ونرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم (٦) .

وكانت أدريين ليكوفرير أعظم الممثلات الفرنسيات فى زمانها مثلا واضحا لهذه المتناقضات فى حياتها ومماتها . إنها ولدت فى ١٦٩٢ قرب قرب ريمس وجاءت إلى باريس فى العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسى » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت فى البيت الممثلات اللاتى أعجبت بهن وهى واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفى سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاها الممثل « لى جراند » دروسا ، وهيأ لها مكاناً فى فرقة تمثل فى ستراسبورج . وقامت بالتمثيل فى الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منهما على التعاقب حاملا ، ورفضا الزواج منها . وفى سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفى الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى . وفى ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها لبعض الوقت أكثر من صديق[٧] . وفى ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى فى « المسرح الفرنسى » الذى كان مأواها ومبعث إلهامها فى شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت بدينة ، وكانت قسمات وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق الوصف فى جلستها ووقفتها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية فى صوتها ، وبريق من الشرر والإحساس فى عينيها السمراوين ، وتعبير متحرك كريم فى وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تتبع الأسلوب الخطابى الذى كان قد أصبح تقليدا سائدا فى التمثيل فى فرنسا فى المسرح الطويل المستطيل الشكل فى المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن تمثل دورها وتنطلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تتحدث فى الحيـــاة الواقعية ، اللهم إلا فى إخراج الحروف من مخارجها والإبانة فى اللفظ ، ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد فيه الجمهور . إنها فى فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا فى فن التمثيل المسرحى . وتحقق هذا أيضا فى عمق شعورها ، وقدرتها على نقل انفعالات الحب أو رقته ، وكل العطف أو الرعب فى أى مشهد مأساوى . وتفوقت فى الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا فى غرامها . وهام بحبها الشاب شارل أوجسطين دى فريول كونت أرجنتال الذى كان مقدرا أن يصبح « مموِلا ومدعماً بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدة شارل لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام دى فريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنها لن تشجع الشاب على الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأى شيء يرضيك . ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين فى ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث فى قلبك الرضا والارتياح ، ويضفى عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهى مواهبه وقدراته وتنمى فضائله لتؤتى ثمارها(٨) .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ، وفى سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر فى الأوراق التى تركتها والدته ، عثر على هذه الرسالة التى لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .

واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسونى كثيراً ما يتردد على المسرح الذى تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ، ولكنه كان وسيما عاطفيا خياليا حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء لها مدى حياته ظنته فارس أحلامها الذى طال انتظارها له ، وإذا وصل الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فانهم يحيون ويموتون عدة مرات مثل القطط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقا (١٧٢١) ، وعاشا لفترة من الزمن يرشفان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندى الشاب الذى أصبح لتوه « قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكا ، وقد رأيناه يسارع إلى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) طمعا فى الحصول على التاج فيها ، وكان نصف الأموال التى حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » فى بيتها . ولم يكن غير ذى عائد فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار موليير ، حتى أصبحت من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلما ، ولم يكن أصدقاؤها من المعجبين العابرين . ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتيل وفولتير ودارجنتال والكونت دى كايلوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد بعض السيدات الأنيقات من ذوات الألقاب والاحساب متعة فى الانضمام إلى هذه الجماعة المتألقة .

وفى ١٧٢٨ عاد الجندى الذى لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت فى السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركنه مضجعه ، وكان الدم الملكى يجرى فى عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهى لويز دى لورين دوقة بويون حفيدة بطل بولنده النبيل جان سوبيسكى ، وكانت تختال فى جرأة أمام موريس فى مقصورتها فى المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدريين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى فى شىء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللائى تعلمن ، وهن يلقين ظلالا من الجريمة على مظهر الوئام الهادىء الوادع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن »[٩] .

وفى يوليه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدريين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدريين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلىّ كثيراً لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب فى أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولا . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريئا فأرجو أن نفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالا إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلا أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبى ، وكم هى صادقة مخلصة ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا[١٠] .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفى فبراير ١٧٣٠ بدأت الآنسة ليكوفرير تعانى من إسهال يزداد سوءاً يوما بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن فى أوائل مارس حملوها من المسرح مغمى عليها . وفى ١٥ مارس مثلت ، وهى تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » فى رواية فولتير « أوديت » وفى يوم ١٧ مارس لزمت الفراش ، وصارت تنزف نزيفا مميتا من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرا على العناية بها فى هذه الخاتمة الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها فى ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدريين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها فى الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها فى عربة أجرة لدفنه سراً على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (فى نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدفيلد باحتفال عام فى كنيسة وستمنستر .) وفى ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الآنسة ليكوفرير يستنكر فيها المعاملة المهينة فى دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قلبى ، بالأسى والفجيعة . وإنى لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولى ، وهى تذرف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نحبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذى ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت فى اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحا فى الهيكل . لقد رأيتم يقدسونها ويزدحمون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت ألباب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفاتك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبدا جديدا لنا ، نمجده فى ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قدسية » .

فى ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارنست ليجوفيه فى باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة تماما « آدريين ليكوفرير » . . وفى ١٩٠٢ ألف فرانسسكو سيليا أوبرا فى نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحى فى ذالك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبرجولتون دى كربيون ؛ وهو معمر عجوز كان ينبغى له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كربيون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطا وبعض الغرابيب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتبا ولا يؤدى عملا) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساى ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، فلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاى ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا »[١٢] . وسر الملك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور فى حثه على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان (١٧٤٨) . واهتز كربيون طوبا من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيدا بحيواناته ؛

ولم يطب فولتير نفسا بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضا أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريفو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريفو أصبح هجاءا حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعا تطبق عمليا مفاتنها المغرية أمام المرآة . ودق قلبه مؤقتا فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود فى ريوم ، وكم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصانة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان ، وربما تعلم فيه الدعابة المرحة ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح إصابة ماريفو هو رواية « آرليكان يصقله الحب » التى عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه استرد ثروته بقلمه(١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (الكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكاتها البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعتزام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان) اعتزاما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا اخلاص الخطيب الذى لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخادم وسيدة وخادمة ، فى سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة (فى رواية عطيل) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التى يتورط فيها الحب فى هذه الروايه وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال فى قصر فرساى ، وفى الصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتخلت الملهاة الرجولية عند موليير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التى سيطرت على المسرح الفرنسى (معترضـــة الطريق) إلى أيام سكرايب وديماس الابن وساردو .

٣ — القصة الفرنسية

إن ماريفو هذا هو نفسه الذى أضفى على القصة فى فرنسا شكلا جديدا . وفى ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءاً ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة فى الحب . ولم يكن ثمة شىء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحى ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التى عاشت لتقص القصة فى شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة ، بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتحمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتنى ألا تبوح باسمى أبدا ، أنا أود ألا يعرفنى أحد إلا أنت . »(١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا ، فقد تولى تربيتها رجل برجوازى محسن كريم ، حتى أصبحت بائعة فى محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد أثار مسيو دى كليمال . وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جراء ما قدم . ولكنها رفضته ، وأعادت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريفو فى ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها فى نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخى كليمال ، وهو مسيو دى فالفيل ، الذى كان أقل من عمه مالا وأصغر سناً . ومهما يكن من أمر فإن فالفيل يترك ماريان معلقة ، لما يقرب من ألف صفحة ، وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا ختام قصة ماريفو .

تلك هى القصة النفسية فى فرنسا القرن الثامن عشر ، التى لم تنافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التى كتبها شودرلوس دى لا كلوس (١٧٨٢). إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دى لافاييت « الأميرة دى كليف (١٦٧٨) » ، ولو إنها تكاد لا تعادلها فى رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها فى تحليل الدافع والعاطفة . وهنا نجد امرأة ، مثل باميلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرفها لأهميته فى سوق الزواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية ، لتقدمها تأييدا لأحادية الزواج للرجل الذى يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة أكثر تهذيبا من الصورة التى أخرجها ريتشاردسن ، الذى بدأ قصة باميلا بعد تسع سنين من ماريان وربما تأثر بها . وفى مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاريسا (١٧٤٧)» ساعدت روسو فى « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريفو خلق الطبقة المتوسطة القرن الجديد ، على حين أولع كريبيون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كربيون المرح » تمييزا له عن أبيه « كربيون المكتئب » (الذى قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسبرجولبوت دى كربيون فى باريس فى عصر الوصاية الذى رجحت أخلاقه التعليم الجزويتى الذى تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلابه وقططه . وفى ١٧٣٤ وهو فى السابعة والعشرين اشتهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها — كما قال شامفورت — هو مجرد « ملامسة سطحين »[١٥] . ووقعت أحداث القصة فى اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءا صريحاً للكنيسة والدولة فى فرنسا ، والدوقة دى مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فلبرى أبعد الكاتب — كلود كربيون — عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر فى ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث فى « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزى ، فيروى كيف أنه تجسد فيا مضى من الزمان على هيئته أريكة ، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التى ابتلى بها زنبرك الأريكة . وتعاقبت أحداث الزنى فى تفصيل متزايد . ووجد كربيون متعة بالغة فى قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنبا فى التفاخر بعفتهما وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون فى الفعل إثم أكبر منه فى التفكير ، ومن ثم فانهما يوائمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كربيون يتطلبن عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ فى العملية الحسابية .[١١]

ولقى الكتاب ما كان مقدرا له من نجاح . ووجد قراء فى عدة لغات

أسرفت كلها فى تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كربيون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعيم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريفو وكربيون » (١٧) . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليلة كربيون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها (١٨) . وفى ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كوللى فى تأسيس « الكاف — الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد فى الوقار والمزاح . وفى ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقيبا ملكيا على الأدب . ولما توفى والده فى ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بخواتيمها » .

وفقدت كتب كربيون شعبيتها قبل وفاته بزمن طويل . ولكن فى الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المتقفين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التى أبدعها قلمه . إنه ولد فى أرتوا فى ١٦٩٧ ، وتعلم فى مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهبا مبتدئا فى طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع فى شراك الحب . وخاب فيه أمله وتحطم قلبه ، وأصبح راهبا بندكتيا (١٧١٩) ، ثم قسيسا ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد فى حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثية » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ فى باريس ، وبعد عام قضاه فى إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفى ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعى لكروامول » وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها فى ثمانية مجلدات فى السنوات التسع التالية . وفى ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سالفة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة فى باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيو د) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه فى باريس لقى رواجا كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار »[١٩]

وقصة مانون موضوعة فى قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا فى مركبة فى طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز — الرجل ذو الحيثية المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التى وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية »[٢٠] . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذى يحدق النظر باكيا فى خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاها ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنيهات ذهبا ؛ مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لويزيانا . ويراه المركيز فى كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهى رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المحتد ، مبرزا فى كل شىء فى الكلية فى اميان ، وكان فى عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان فى مالطة . وفى غمرة آمالهما العريضة « جعلانى أضع الصليب »[٢١] . ولكن مانون مرت أمامى ودخلت حياتى ، وتغير كل شىء . وكانت آنذاك فى الخامسة عشرة وهو فى السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنبهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج فى سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقا كافيا » ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلا

وزوجة ، دون أن نفكر فى هذا أو نتنبه له » ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خليلة للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جربيه أن يذهب ليقتل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تيبرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خليلة السيد « ب » ويحث دى جربيه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . « وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هى طريقها إليه ، وتعترف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جربيه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شيو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جربيه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . لقد عرفت مانون . . . . ومهما كانت مخلصة وفية مغرمة بى فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيراً بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلى »(٢٢) . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لاخوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إنى أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليها ، وتوضع هى فى الملجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفد رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليلة ، ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جريبه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول دى جريبه انقاذها فى الطريق ، فلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ، وهناك تعلمت أن تحتمل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصة كل الاخلاص لدى جريبه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بحبها . ولما كان مانون ودى جريبه قد أهملا أن يعقدا عقدا شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه فى أن يزوجها من أى فرد فى المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجا لها . واردى دى جريبه لابن قتيلا فى مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيافى والقفار سيرا على الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق الحياة ، «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاى وجه عزيزتى مانون ويديها » . وحفر بيديه جدثا لها ويواريها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى نحبه هو الآخر . ولكن صديقه الطيب تيبرج ، الذى قدم فى نفس الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركيز ليروى حكايته .

وأصبحت « مانون ليسكو » معينا لا ينضب لقصص حب مبللة بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن « محطمة القلب » تذرف الدمع على موت مانون وحزن دى جريبه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه الخسيسة . وضرب بريفوست على نغمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاءا كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل . وهى طراز عتيق للبطلة ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما بلغ الكتاب قدرا أكبر من القـــوة لو أن دى جريبه ترك ليموت على قبر مانون د

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا فى دى جريبه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشاردسن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشاردسن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفى امستردام فى ١٧٣٣ ، وقع فى غرام عشيقة رجل آخر . ولما نمى إليه أن البندكتيين استصدروا أمراً بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفى لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفى ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيها — وهى جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفى ١٧٥٣ عين فى دير سان جورج — دى جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترويها حفيدته بيف لسانت بيق وكأنها حقيقة ، تلك هى أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره فى غابات شانتيللى ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليقف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذى أودى بحياته(٢٣) . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة(٢٤) .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم فى تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير اتجاها مثاليا فى قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دى سانت بير . وبرز التأثير من جديد فى « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا فى الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفارى » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون تحيا وتموت فى الأوبرا .

٤ — حكماء أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغي علينا فى هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل ايرينى كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين فى أوترخت بكتابه « مذكرة فى حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهى التى أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، بعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاذاً للدولة (١٧٣١) . فلماذ كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من الثائرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت ليطرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكثلكة ، فإنه ألحق بها أذى ماكرا فى « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج — مثل فولتير فى كتابه « محمد » — يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التى قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون ، قصد به بالمثل التشكك فى المعجزات الكاثوليكية .

وفى ١٧١٧ ثم فى ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوربا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربى تكون له قوة فرض قبول القرارات التى يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التى يمكن اتباعها فى إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبة المالية التى تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للابقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تزعزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر ، فى عبرة دينية الإيمان بالتقدم ، وفى كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر فى العقل العالمى » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندورسيه بزمن طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل فى رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شىء قال وهو مستغرق فى التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقا لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون فى مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه فى شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفى الازدهار الرائع فى مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٩) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هى أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة فى طريق التقدم ، لم يحدث فى مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفى رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلا وحكمة فى البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء فى الدولة فى كل ما يتعلق بالاصلاح الاجتماعى والخلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيرا زيادة الايرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات(٢٦) . وفى ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التى آثرها على الصدقات التى تقترن بفكرة التنازل والتلطف فى النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التى تحققها ، وما ينتظر أن تحققها فى المستقبل ، لأكبر عدد من الناس (٢٧).
وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالا أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل فى ملك مستنير . كعامل من عوامل الاصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته واطنابه ، أحد الأذهان التى حملت بذور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالى واهم لا يتفق مع ذهن واقعى . ولد فى دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التى تميز بها البريتون . وكان ابنا لوالد برجوازى ميسور ووالدة ماتت فى السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش فى باريس فى عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس فى حماقات الشباب أيما انغماس .
وزاد من حدة ذكائه فى المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التى كادت أن تكون اتهاما لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنقذ حياة زوجها المتورط فى مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين .
وفى سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ (٢٨) » .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى بمبادور . واشترك بحيوية ونشاط فى أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطا بعث فيها الحياة . وفى ١٧٥١ خلف فولتير فى وظيفة مؤرخ الملك وفى ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفى ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لتهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبة من الملحدين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات فى الخير والشر فى هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلا هادئا دقيقاً مفصلا عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستهله بوقار حكيم تخرفْ « لقد عشت ، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكا بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفا للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد(٢٩) .

وفى رأيه أن « أكبر نقيصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخا متزنا ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة ..... فالرجل الفرنسى هو طفل أوربا(٣٠) — مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا يتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة تعصف حوله » « لست متأكداً من إنى أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمرا معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان (٣١) » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى بالأئمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة الخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الضوء على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذاكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفى) . فيقوضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع . . . والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هى أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين مخزين ، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جريم المراسل الباريسى للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة ، الصادر من رجل نهل من منابع كثيرة « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جريم كان يزاحم ديكلوس فى الظفر بالحظوة لدى مدام دى ابيناى ، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لتصور ديكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن ، شديد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جريم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فإن مدام ابيناى طردت من بيتها هذا العربيد الخائن . وهام رجل الأكاديمية العلامة على وجهه بحثا عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستين .

وكان لوك دى كلابيير مركيز دى فوفينارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملا بحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة الماريشال دى بل أيل المنكوبة فى حملة يوهيميا ١٧٤١ — ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسى ، وكاد أن يظفر ببغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده يضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أقعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت الكتابة عزاءه ، وشغله الشاغل . وكان يقول « فوق كل شىء . إن أحسن الأسماء هى أكثرها شيوعا ، فإنك تستطيع أن تشترى ن فولتير مقابل كرون واحد »(٣٤) وحذر من الحكم على الكتب بثقل ها ، فإن نخبة المؤلفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغى وكثير منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق » [٣٥] . وكان مؤلفه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية » ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى باريس ، قضى نحبه ، وهو فى الثانية والثلاثين . وهو يمثل موزار وكيتس فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها . مثل الملابس والموسيقى والعمارة [٣٦] » وقبل بضع سنين قليلة من اضفاء روسو المثالية على الطبيعة والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ، وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ، وهكذا يجرى كل شىء فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعيبه بشىء من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة[٣٧] .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار و ر مسساوين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الاخضاع والتبعية . . . . ومن ولد ليطيع ، فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش [٣٨] .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » . وإذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « إنى إذا اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى اللحظة التى تجول ب بخاطرى فيها[٣٩] . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية[٤٠] .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغى القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن فى القلب أى فى العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة[٤١] . . . . والأفكار العظيمة تنبع من القلب . . . وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل[٤٢] . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويغفل الآخر ، إنما يحرم نفسه فى حمق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا[٤٣] .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزه الأمم من تقدم ونجاح[٤٤] . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت [٤٥] . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن فى توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام[٤٦]. وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أولى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيلة فى الشباب [٤٧] .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر فى حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحتقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، ينزلى الناس بهما لا جريمة . وحلت الشفقة فى قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا فى حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فإنا ونحن نرى رباطة جأشه ، ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه [٤٨] .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً [٤٩] .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر . ذلك العطف السابغ والعون الودي اللذين حبا بهما فولتير « نبي العقل » فوفينارج نصير بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه » [٥٠] . وكتب إليه الرجل العجوز الأكبر منه سنا فى لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد رأيت النور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتى قيمة أكبر [٥١] إن أفصح قطعة فى مجلدات فولتير المائة هي ما قال فى تأبين فوفينارج عند تشييع جنازته [٥٢] .

مونتسكيو ١٦٨٩ — ١٧٥٥

١ — الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلى فى هذا العصر . وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عاما قضاها فى تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لابريد ودى مونتسكيو ، فى لابريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ . وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا وهناك فى كل مكان » [٥٣] إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته أمه قصر لابريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه فى العماد) ، زعما منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا [٥٤] . وتربى طوال السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحى القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأوراتوريين فى جويللى على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو فى سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفى سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية فى القانون .

وفى ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك فى الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشـــدة بالنظام الاقطاعى . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفى ١٧١٦ أوصى له عمه — الذى كان قد اشترى رياسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا فى الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها (٥٦) . وبينما كان يتولى رياسة البرلمان قضى معظم وقته فى الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا فى الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التى جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان فى الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس فى عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفنى مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذى نقل فيه جاسوس تركى وهمى للسلطان ، فى بذاءة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم فى أوربا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا فى تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون فى « سبكتاتور » . وكان شارل دفرسنى فى « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام فى باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يوليه ١٧٢١ لفت السفير التركى أنظار باريس بفتنة زيه وأساليبه الغريبة . من أجل ذلك كله كانت فرنسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان فى فرنسا . ومراسليهما فى اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مساً رقيقا . ومن ذا الذى يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسرارا أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك فى اصفهان . من ذلك أن زاكى أى محظيته ، تكتب لتبلغة بما تعانى من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن الجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملى الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان فى سرد التفاصيل فى أسلوب الطيش الذى اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم فى فترة خلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية فى الرسائل عين الرقيب والمؤاخذة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نحبه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصى رجل متسامح مرح مبتهج . وعند ذاك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردهم فى رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار . (٥٧)) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، وخمول النبلاء المبذرين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان وروما القديمة ، والجمهوريات الحديثة فى هولنـــده وسويسرا . يقول أوزبك « ان الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » (٥٨) (انظر فيما بعد رأيا مخالفاً) .

وفى الرسائل من ١١ — ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (*) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت (٥٩) وأرسطو (٦٠) بأنهم قبائل همجية عاشت فى أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكومى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا فى جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقى على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلتا العون ، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتا أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانهما دائماً تقريباً . (٦١) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية لحكمهم فاختاروا ملكا وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة فى الحاكم والمحكومين . .

وكانت الهرطقات الدينية فى الرسائل أكثر ترويعا وتنفيرا من الهرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(*) قصد بهذه الكلمة فى الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزا وأن الخمر ليس خمرا . وألف شيء من هذا الطراز . (٦٢) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان فى إحراق الناس كما يحرق القش » . (٦٣) ويسخر من المسابح وثياب الرهبان الفضفاضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية فى منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان فى فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن ايرلنده فى القرن العشرين) ويقدر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية فى أوربا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى(٦٤)(*). أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون انهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً « إنهم عصبة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبدا . إنهم باستمرار يكنزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل فى التجارة أو الصناعة أو المصانع » (٦٦) ويقلق أوزبك التفكير فى أن كفار أوربا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل فى أنهم فى النهاية سيعتنقون الإسلام ويُنقذون (٦٧) .

وفى تخيل رمزى جليل يتأمل أوزبك فى الالغاء (١٦٨٥) مرسوم هنرى الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن فى فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول فى الإسلام (الكثلكه) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو فى ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوربا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها فى عهد الامبراطورية الرومانية(٦٥) وأنه آخذ فى التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين لهؤلاء الكفار عبدة النار اضطرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشيط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار النزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذي أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذي يشجع الديانة التي تعتقد أنها في صعود(٦٨) .

إن الأفكار التي تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية في التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحريته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصي على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار وسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الافصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذي انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتي بها رجل ذكي بسهولة ، ولكن ينبغي على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ماريفو الحريص « يجدر أن يضن الإنسان بمجهوده في مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عندما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء »(٦٩)

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة فى المجتمع وفى الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دى تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه فى لابريد فلم يكن من العسير أن يقع فى شراك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتاقت نفسه إلى مارى آن دى بوربون أخت الدوق دى بوربون الذى أصبح رئيسا للوزارة فى ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منثورا « معبد الحب » (١٧٢٥) عامرا بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكى بطبعها . وبذل المساعى وبخاصة عن طريق مدام دى رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم فى باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلى عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفى أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلتره . التى قضى فيها ثمانية عشر شهرا (نوفمبر ١٧٢٩ – أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أواصر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضوا فى الجمعية الملكية فى لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثانى والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطانى . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الاعجاب – مثل فولتير – بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لابريد ، وحول منتزهه إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ – فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس – لأبحاثه وكتاباته التى شغلت بقية أيام حياته .

٢ – لماذا سقطت رومة

فى ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع . ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعى ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذى صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا فى سياسته ولاهوته . ولم يستسغ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقى سببا للاضمحلال القومى ، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير الحكمة الرائعة فى عبارات مثل « أن الذين لم يعودوا يرهبون القوة فى مقدورهم أن يظلوا على احترامهم للسلطة » . (٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة فى فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسى تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض فى نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية — وهى عملية الفناء أو الانحلال الذى يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور فى الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه فى أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت فى فترة طويلة من الاضمحلال فى الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو — لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكرى والعقلى فى القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت فى حقيقة أن مونتسكيو ، فى ايضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا فى هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التى نجدها فى كتاب بوسيويه « بحث فى تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها فى الفضاء : « ليس الحظ هو الذى يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها فى كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص بعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذى قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحــدة . وصفوه القول إن الحركة العامة تجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة(٧١) .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد فى التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبى فكرا مثل ما فكر كاتو (سعيا فى الابقاء على سلطة السناتو الرومانى) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذاك كانت الجمهورية التى كان مقدراً عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى »(٧٢) .

ولكن « القــدر » ليس توجيها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلسفيين ، فى رأى مونتسكيو ، هى الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (فى نظره) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم فى مدينة واحدة فى يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . وبمرور الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسى : انتشار الخنوع والخمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء فى أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكرى وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إيثار الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعهم عن حماية الحدود من هجمات المتبربرين . . . . ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية — لم يقم كبير وزن لتغيير الديانات ، الذى أكده جيبون سببا أساسيا لانهيار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسى فى اضمحلال رومه — وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن فى الوقت الذى حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت فى الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهى مخالفة لمبادئ الجمهورية [٧٣] . ومهما يكن من شىء فأننا إذا عدنا إلى الفصل السادس لنتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التى قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة منوعة غريبه : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجا ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم فى القضاء على أعدائهم ،وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء [٧٤] وواضح — أن مونتسكيو — ناسبا هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدردا مكيافللى فى جرعة واحدة — اعتبر فى الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلا أعلى للعظمة ، ورثى الامبراطورية منزلقا بهيجا للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة فى الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية فى ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونيين » [٧٥] وهنا وجه مونتسكيو كلا من جيبون ورينان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة فى تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضا أخلاق الرواقيين التى فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان فى عهـد الجمهوية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم فى تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون فى فرنسا .

ووقع فى الكتاب بعض أخطاء فى عمل علمى عجل به ضغط الوقت والرغبة فى إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو فى بعض الأحيان مدققا فى استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التى كتبها ليفى عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشى وقيصر ، ولكن فى مقابل مواطن الضعف هذه ، فأن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة فى أن يرسم فى صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهته ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين .

٣ — روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالى ١٧٢٩ ، وهو فى سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيله جانبية أو ثانوية اعتراضية . وفى ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقى من العمل نصبا وكأن به ميلا إلى تركه ، « كثيراً ما شرعت فى هذا الكتاب ، وكثيراً ما طرحته جانبا . وقذفت بالأوراق التى كتبتها ألف مرة . »[٧٦] وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضنانى الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبى البهجة والفتنة اللتين تدفعان بى إلى السير فى الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عنى أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادتنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »[٧٧] . ولا بد أن هؤلاء الربات استجبن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة فى خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزهوه : لقد سلكت طريقي نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عند ما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتاني كل ما كنت أفتش عنه ، وفي عضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فاني سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أني كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال في فرنسا وألمانيا طرقوا هذا الموضوع قبلي ، تملكتني الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتي ولم يزايلني الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام »[٧٨] .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهبنولت وفونتبيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسي . [٧٩] وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسيء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشركتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم[٨٠] . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ في مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبوه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله في فرنسا . وفي ١٧٥٠ تولى ما لشرب — منقذ دائرة المعارف فيما بعد — شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة في عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوربا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمي كتابه « في روح القوانين » أو « في العلاقات التي يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا في العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية ، وفي

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمى » : أى — على غرار البحث فى العلوم الطبيعية — التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقبل . وكان عسيرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأثنولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتأريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « — أى أصلها وطبيعتها ونزعتها — إنما يحددها أولا مناخ البلد وتربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميما هى العلاقات الضرورية التى تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتى « بالقوانين الطبيعية » فى العالم المادى ، والاطرادات القياسية فى التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ — القانون الطبيعى ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » (٨١) أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ — قانون الأمم فى علاقاتها بعضها ببعض . ٣ — قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ — القانون المدنى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه فى الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم فى القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزرعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل فى تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين فى القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل فى القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية في الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل المثال جرأة أكبر ، أي مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أي رغبة أقل في الإنتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أي مزيداً من الصراحة وقدراً أقل من الأرتياب ومن الدهاء السياسي والمكر . لقد شهدت الأوبرا في انجلترا وفي إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة في كل من الأمتين ، فإحداهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخـلاق ، حيث تؤدي أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واتته الظروف ، أن يحقق رغباته الجامحة . . . » .

وفي البلاد الحارة نجد الماء الموجود في الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذي يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما في البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التي بدونها قد يتخثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذي حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخي . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة في الجو (٨٢) . أو تأمل العـلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث في البلاد الحارة يكن صالحات للزواج في سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن في سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجمالهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هـذا المطلب . و إذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . ومن ثم ينبغي أن تكون

هؤلاء السيدات فى حالة من التبعية ، لأن العقل فى الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التى لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققاها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود فى هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفى المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن فى مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلاتهن فى الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب فى أن الإسلام (مع نظام تعدد الزواجات) دخل بسهولة واستقر فى آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوربا ، وأن المسيحية استقرت فى أوربا وتحطمت فى آسيا . وقصارى القول ، هذا هو للسبب فى أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم فى الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلا(٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراسا منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضـــعة للعلة الأسمى ، الله ، الذى يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شىء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الخجل .

وسرعان ما تابع تعمياته الطائشة . ففى « الشرق » ، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزواجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال فى (بلادنا فى الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفى لتوجيهه وقيادته)(٨٤) . إنها لمتعة أية متعة أن تعيش فى مثل هـــذه

الأجواء التى تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتى تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن فى إدخال السرور والبهجة على الجميع (٨٥)) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغى أن تحاول فى بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو القانونية — وينبغى لها أن تتحكم — فى العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجابها فى الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفة الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل فى حد ذاته . والعرف - فى الجملة خير قانون ، لأنه تكييف طبيعى بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأنى ونسير بخطى وئيدة فى تغيير العادة والعرف . وتأبى العادة أن تتبدل بالقانون عادة (٨٦) .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التى تحدد بدورها الخلق القومى فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثى . وهى تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، وخضعت للحكم الملكى . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغى لأن السلطة الاستبدادية وحدها هى التى تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها (٨٧) . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعنى أنه يجب تصنيف سكانها فى مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو ايثارهم بالحظوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده — أعنى حب المساواة (٨٨) .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها : هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية . ويمدن الدول القديمة على أنها ديمقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حماسة أكبر انشاء المناطق الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى[٨٩] . والحق يقال على أية حال إن الديمقراطية الأمينة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً ، وأن تنظم المواريث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات[٩٠] . أن خير تلك الديموقراطيات هى التى يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنتهجها بلدهم ، ومن ثم يقرون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمر بأمرهم . . . وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة فى الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام الحكام الذين لا يعود لهم أى توقير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه . ولا احترام لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترال لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامتثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم ... وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بادارة الأمور بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشىء من لهو الترف[٩١] .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين : تنقلب الديموقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك فى مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه خشى الاستبدادية التى ذهب إلى إمكان قيامها فى الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادى وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لويزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية (٩٢) » أى أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرات كفاية ومقدرة ليحمى قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التى أوردها لهذا شرقية بشكل يطمأن إليه . ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد . حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الارستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة (٩٣) » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلا فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد فى الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكى الأرض والحكام الوراثيين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعى بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، مضحياً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسيكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر الذى امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » ، تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفى الصراع الذى استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد فى « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحبيذه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً — ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى الحكومة (٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لـكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

فى مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم وثرواتهم وألقابهم ، فإذا تساووا وخلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية فى غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم فى الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة فى الدولة يكون لها الحق فى مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة فى الدولة ، كما يكون للشعب الحق فى مقاومة أى اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية فى أيدى النبلاء وأيدى الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) » .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهـذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرنو وسيدنى ولوك ، ومن الخبرة التى اكتسبها فى انجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، فى ملكية تكبح جماحها ديموقراطية فى مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية فى مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم فى انجلترا هى بمثابة كابح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ماكان قد رأى فى انجلترا رقابة نشتستر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالى حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الإستقلال عن البرلمان ، ولـكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر فى الأخذ بحق المتهمين فى انجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم فى هيئتهم . « إنهم كذلك لهم الحق فى محاكمتهم أمام نظرائهم (٩٦) » .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه فى السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والتزام فى الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة فى الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة فى أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور فى ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة ، بأنها » حق كل إنسان فى عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية (٩٧) » . واتفق مع زميليه جاسكون ومونتانى ، على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هى ، لأن الأسباب — هى غالباً معقدة أو غير معروفة — التى هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر فى فى الإبقاء عليها (أى على هذه الحكومة (٩٨)) .

ورفض فكرة المساواة فى الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جرانسى فى تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التى تكفى لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسره . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التى تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التى دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفى هذا الوضع يجدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغى أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها (٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة فى حماسة أخلاقية وتهكم لاذع [١٠٠] . واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة — المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضى : إن حق الدفاع الطبيعى قد ينطوى أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام [١٠١] .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل أوربا ، فأصاب أمراءها وأغراهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ، ويصبح بالضرورة معديا ، فإنه إذا شرع ملك فى زيادة قواته ، فإن الباقين بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لا نجنى من هذا إلا الدمار الشامل[١٠٢].

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده فى بعض الأحيان حلم مبادىء أخلاقية أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى ولكنه يضر بأسرتى ، فينبغى على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى . ولكنه يضر بأسرتى ، وليس لوطنى ، فيجدر بى أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت أن شيئاً ذا فائدة لوطنى ، ولكنه يضر بمصلحة أوربا والجنس البشرى فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية [١٠٣] » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادىء أخلاقية وديانة خفية هو مذهب الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادىء أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب الرواقيين محنة من بين المحن التى ابتلى بها الجنس البشرى . . . إن هذا المذهب وحده هو الذى صنع المواطنين . وهو وحده الذى صنع عظماء الرجال وهو وحده الذى صنع الأباطرة وإذا نحينا جانبا الحقائق التى

كشف عنها لحظة ، وفتشنا فى الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطراء انتزع منى أرجو ألا يجعلنى شريكاً فى جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشرى [١٠٤] ووواضح أن مونتسكيو حرص فى « روح القوانين » على مسالمة المسيحية إنه اعترف بوجود الله — فأى حمق أفظع من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية [١٠٥] . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين [١٠٦] » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقى لا يلتئم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيدا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية [١٠٧] » . وينبغى أن تكون الدولة والكنيسة رقيبة كل منهما على الأخرى ، كما ينبغى أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم [١٠٨] » . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل [١٠٩] . ولكنه أخضعه ، مثل أى شىء آخر لتأثير المناخ والخلق القومى : « إن حكومة معتدلة هى أصلح ما يكون للعالم المسيحى ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامى . وإذا اختبرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم فى هذا البلد الثانى ، وإذا أدخلت كان مآلها النبذ والرفض [١١٠] . . . . والمذهب الكاثوليكى أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية . . . . وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كثلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتنقون البروتستانتية ، على حين يظل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التى لا يكون لها رئيس بارز هى أكثر ملاءمة لهم [١١١] .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالا فإننا نراه يسهب فى نقده، واستنكر شراء رجال الدين فى فرنسا [١١٢] . ودون « أفظع احتجاج على محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه « إذا تجرأ أحد فى الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس فى أوربا فى عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين [١١٣] » وسخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح فى أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الدينى موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية فى اعتناق أو نبذ أى دين جــديد ، فينبغى أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه [١١٤] . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلانياً « فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا [١١٥] » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ — النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضخماً فى الأدب الفرنسى ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانســـنيون واليسوعيون ، وهم على طرفى نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهى لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعترضة التى يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحى تؤكد لنا توكيداً هزيلا أنه كاثوليكى ، وإن المؤلف ليسخر من سذاجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب [١١٦] . واتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافتراضه وجود قوانين فى التاريخ مثلما هى فى العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالا لحرية الإرادة . ودافع الأب برتييه فى صحيفة « تريفو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليسا نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن ترتكز على مبادىء عامة من الله . لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومى [١١٧]

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر فى ١٧٥٠ « دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين »

وكان الفلاسفة الناشئون فى ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً فى المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الدينى [١١٨] . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه [١١٩] . أما فولتير الذى كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ فى بحث « فى الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسى معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضوا فيها ، وسيكون العار عليه يوما ما ألا يكون عضواً فيها [١٢٠] » .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعترض بأن مونتسكيو كان مبالغاً فى تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت فى أرض اليهود الحارة ، وأنها لاتزال مزدهرة فى النرويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنرى الثامن كان فاترا [١٢١] . وإذا كانت روح الحرية نشأت — كما ذهب إليه مونتسكيو ، فى الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولنـدية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين (وفى القاموس الفلسفى) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير [١٢٢]) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان فى رسائله إن الذى سره فى الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير فى المناخ ، أطفالا لعوبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، فى نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، فى لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً (١٢٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكتئاب ، وهو عكس ما يرددونه فى كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس فى المناطق الحارة جبناء مثل العجائز ، أما فى المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان فى مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا فى ثمانين عاما من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٢٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة فى ، « روح القوانين . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذى اضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه فى المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا فى هـــذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأت إحدى السيدات (مدام دى ديفان) وهى تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء فى القوانين » ، وهو أصح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخرافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالما ، ولكنه كان دائما على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدى الرقيق . أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٢٥) .

وأضاف فى موضـــع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو (١٢٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض على

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التى تحكم الربط بين أجزائه . وفى تحمس مونتسكيو ليكون عالما ، يجمع الحقائق ويفسرها ، لم يعد فناناً . أنه ضيع الكل فى الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء فى كل منسق . وكان قد قضى فى جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه فى نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع فى الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها — مثال ذلك أيرلندة الكاثوليكية فى الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلى من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادىء الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لابد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعى ، وأن تاريخ كل الأمم ليس إلا نتائج لهذه المبادىء » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفى بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » فى حكومة انجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطى على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لابد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من من شظايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذى كتبه عن الحكم الاستبدادى المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاقم ضعف بصره مما إضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق فى عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراق والروعة فى الرسائل الفارسية . ويروى فولتير أن فى « روح القوانين من العبارات الساحرة أكثر مما يليق بكتاب فى القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس فى فينيسيا مقترون غاية التقتير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود [١٢٨] » .
وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو فى بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتشكيو متواضعا كما كان مصيبا فى أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعة وهدفه . أنك لكى تعثر على قوانين فى القوانين ، وعلى نظام فى تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولكى تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس — فهذا عمـــل جليل ضخم تقتضى ضخامته وجلاله الصـفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر فى نفس هـــذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من من المعاونين فى البحث ، وبسبب نفس الرغبة فى استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة فى الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان . أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (*) بالتأليف فى هذا الموضوع ، ولكنه عجل بوضع المنهج التاريخى بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق فولتير فى وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة فى الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر [١٣٠] واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزانا فى هذا العصر [١٣١] ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الاطلاق [١٣٢] وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر فى هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلنى . سأخلد إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن [١٣٣]

(*) أبقراط : الهواء والماء والأماكن . ارسطو : دساتير أثينا . ميكافيللى : المقالات . بودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لكل خيبة أمل فى الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة (١٣٤) .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التى كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اننا نجده فى مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شبابنا المتأنق (١٣٥) ورحبوا بالمؤلف من جديد فى الصالونات واستقبلوه فى البلاط الملكى ، ولكنه قضى معظم الوقت فى لابريد حيث قنع بأن يكون سيدا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفى سنيه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لى أن الأثر الخفيف من البصر الذى بقى لى ليس إلا فجر اليوم الذى تغلق فيه عيناى إلى الأبد (١٣٦) وفى ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوى وقضى نحبه فى ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو فى السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذى شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللا أدرية (١٣٧) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جيبون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحيق التى أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (١٣٨) » وكان جيبون وبلاكستون ويبرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثرين الكبرى أنه ينبغى أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (١٣٩) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الامريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك.

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين فى الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو [١٤١] وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله فى فرنسا .

الفصل الحادي عشر

فولتير فى فرنسا

١ — فى باريس : ١٧٢٩ — ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان — ان لى — على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندا مين حسب أن من يشترى كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشترى أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدبر الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجليز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفرير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخا ، ولم يكونوا بعد فى فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدا للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة فى أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة فى تلك الليلة ، ولم تكن مرثيته فى ليكوفرير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على المـلأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طنينها المزعج حول رأس فولتير .

وفى ١١ ديسمبر وكأنما كان فولتير ظمآنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذى أطاح طبقاً لرواية ليفى بعرش الملك تاركينيوس وأسهم فى إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرماتهم ، ونادت بحق الشعب فى تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خاليه من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاما أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفى نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكى بنشر « تاريخ شارل الثانى عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيء إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة فى الوقت الذى ألغى فيه الترخيص الملكى دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختتام فأبلغ أنه قد حدث تغيير فى السياسة الخارجية مما كان لزاما معه ارضاء غريم شارل الثانى عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذى ما زال ملكا على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وباشر طبع تاريخه سراً . وفى أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس فى حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماه بعض المؤرخين الواسعى الاطلاع رومانسية « فى أسلوب مشرق بارع فى السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق فى التفاصيل[٢] ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانسلاس ، ماريشال دى ساكس دوقة مالبرو ، بولنجبروك ، آكسل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى الحظوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلى للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون[٣] فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الاكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد[٤] وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوبا وعددها ، ومنها التبذير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلا شاذا استثنائيا لا رجلا عظيما[٥] » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملا ثقافيا فحسب ، بل عملا فنيا كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المتعلمين فى أوربا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفا مقيما

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشـــون » لرامو — وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدى بالتصفيق لى ، فأستحييت وخبأة نفسى . ولكنى أكون مرائياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً [٦] .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكننا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوها على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أوروزمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيما على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحـــديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا

وتعليمنا هى التى تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التى ينقحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة فى عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أوروزمان رجلا يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويذهلون إذ يرون مسلما وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم ، ويعد بالاقتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أبياتاً عامرة فى جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحى آخر هو نير ستام ، وقع فى الأسر فى طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أوروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام يحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ — ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أوروزمان أن يطلق سراح لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير فى منزلة ابنته ونيرستام فى منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أواه يا إبنتى ، فكرى فى الدم الزكى الذى يجرى فى عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلى ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه فى نفس اللحظة التى ولدت فيها ذبحها أولئك المتبربرون الذى تعتنقين دينهم البغيض على مرأى منى . إن إخوتك والشهداء الأعزاء يمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختا لهم . آه يا ابنتى ! تذكريهم ! إن الرب الذى خنث عهده ، لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجل البشر جميعاً . انظرى إلى الجبل المقدس الذى قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التى نهض منها ظافراً منتصراً . فى كل طريق تمشين فيه ستربن خطوات الرب ، هل

تنكرين خالقك ؟ زائير : . . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبي عنى العار والحزن بكلمة منك ، وقولى أنى مسيحية . زائير : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية . . . . .

لوسنيان : أقسمي بأنك ستحفظين هذا السر الخطير » .

زائير : اقسم لك على ذلك (٨) .

ولما علم نبرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير فى قتلها ، ولكن رق قلبه ، وألح فى قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان الذى لم يكن يدرى أن نبرستام أخوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجىء زائير فى الموعد المضروب ، ويطعنها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين ليسا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة ببراعة ، مبسوطة بطريقة مسرحية متماسكة وهى تمثل فى شعر سلس موسيقى . وإننا لندرك من خلال القطع العاطفية التى تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب فى أن باريس أغرمت بزائير وأوروزمان ، وفى أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل المسرحية للحاشية فى فونتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت بسرعة فى انجلترا وإيطاليا وألمانيا ، ونودى آنذاك بفولتير أعظم شاعر على قيد الحياة فى فرنسا ، وخلفاً صالحاً لكورنى وراسين . ولكن هذا لم يرق فى عينى جان بابتست روسو ، وهو شاعر فرنسى مقيم فى المنفى فى بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فاترة . . . مزيج كريه من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً فى معبد الذوق » يشهر فيه بروسو ويمجد موليير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وعانق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل . ففى شتاء ١٧٣٢ — ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع ضحيته مستقبلا موبرتوى Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile » ونقح زائير وشارل الثانى عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر » ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه « رسائل عن الإنجليز » وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغانى الحب — وكلها تتسم بالظرف فى نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دى فونتين مارتل ، انتقل إلى داره فى شارع (لونج بزان) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبرييل اميلى لى تونلييه دى برتيل مركيزة دى شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك فى السادسة والعشرين (وهو فى الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهى ابنة البارون دى برتييه ، ولذلك تلقت تعليما غير عادى . حتى أنها فى سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيما ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت فى سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدى موبرتوى . وفى التاسعة عشرة تزوجت المركيز فلورنت كلود دى شاتيليه لومونت ، وكان فى الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد مهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولا مع فرقته ، أما هى فبقيت قريبة من الحاشية وقامرت بمبـالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سماً ، وأنقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيىء ، واحتملت فى رباطة جأش جربتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دى ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة تقلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث فى الرياضيات والفلك والشـعر اللاتينى . ولم تـكن مفاتنها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، فى وصفها ، استمع إلى مدام دى دفان وهى تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صغير جداً ، وقسمات حادة ، وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء البشرة أسنانها رديئة [٩] » واتفقت معها المركيزة دى كريكى فقالت « إنها عملاقة — ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلا عن ذلك آية فى القبح والبشاعة ، وكان جلدها فى لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه فى جملتها جندياً طويل القامة قبيح الصورة . ومع ذلك تحدث فولتير عن جمالها [١٠] » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سراً عندما كانت فى الثانية والأربعين . وليس لنا أن نثق فى رأى السيدات بعضهن فى البعض الآخر . وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلى كانت طويلة القامة مسترجلة ، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ، وقد نشعر بشىء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدراً شهوانياً ولكنه راسخ [١١]) .

ويمكن أن تكون أميلى قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليكمل المرأة فى فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها — مستحضرات التجميل والعطور والمجوهرات والحلى والمخرمات . وسخر فولتير من ولعها بالتزين . ولكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة . فهنا سيدة استطاعت حتى فى غمرة الصخب والضوضاء فى باريس وفرساى أن تنسحب من مائدة القمار ، لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك وهى التى ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة فى وقت معاً . وفى ١٧٣٤ اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذى ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهى ! أية لذة ومتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التى أحبها [١٢] !

٢ — رسائل عن الإنجليز

فى عامى ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه فى عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من انجلترا إلى تيبريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت فى لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان فى طبع الأصول فى فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً فى روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن فى أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفى نفس الوقت كان فولتير ومدام دى شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجى بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو .

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية فى إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أو تخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتى » . وصحت فى وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب فى صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » « ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لا نرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح ؟) فرد قائلا : يا صاحبى ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق فى بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبته (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أنت مسيحي دون ختان ، وأنا مسيحي دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلاباً نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذى أمرنا نحب أعداءنا يقيناً لا يريد منا أن نعبر البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثياباً فى لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة باثنتين من العصى ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها فى الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى فى صمت للمذبحة التى أدت إلى مثل هــذا الابتهاج العام[١٣] .

لقد أوذيت فرنسا أيما إيذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير فى وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية فى إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزى ، باعتباره حرا يسلك إلى السماء الطريق الذى يختاره . »[١٤] ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليز وأقرانهم الفرنسيين ، وهنأ الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الانجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغانى الرقيقة ويقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل .[١٥] وفى الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة فى فرنسا : « إن الأمة الانجليزية وحدها هى التى عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها فى وجههم . . . وأخيرا أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة فى أن يفعل الخير ، على حين تغل يداه عن الإتيان بأى شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنيلون « تلياك » . ان إقرار الحرية فى إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق فى بحر من الدماء ؛ ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التى أريقت دفاعا عن قضية الحرية لم تكن إلا تثبيتاً لعبوديتها[٢١]

إن حق التحقيق فى قانونية حبس المتهم فى إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما فى فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاما ، رأى فولتير « فصل السلطات فى الحكومة الانجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعفى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »[١٧] وفى إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما فى فرنسا فإن التاجر غالبا ما يسمعهم يتحدثون عن مهنته فى ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزى والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدرى أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير فى لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم فى اسعاد العالم بأسره[١٨] وأخيرا فى قطعة تضمنت برنامجا لفرنسا ذهب فولتير إلى : "أن الدستور الإنجليزى بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرومون منها فى سائر الملكيات تقريبا . وهذه الحقوق هى الحرية الكاملة فى أشخاصهم وفى ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح فى القانون ، وحق كل إنسان فى اعتناق العقيدة التى يرتضيها دون إزعاج .[١٩]

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقا من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية ، وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأى العام فى إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثانى حكيما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستسغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهميا غامضا ، أو على الأقل مخدرا فى مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها [٢١] إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين فى الحكومة وفى ميدان العلوم لتشييع جنازته ترك فى نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الدينى فى فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا فى رسائله ، فليس لهذا علاقة بانجلترا : ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنيين — الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس — ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) فى استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان فى هذه المرحلة (اللهم إلا فى رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالا للوجدان فى فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسط محنه البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشرى ضد هذا المبغض للبشر المهيب » [٢٢] ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صبيانيا يجافى الحشمة والوقار . . . إن اهتمامى بالاعتقاد بشىء ليس برهاناً على أن هذا الشىء موجود » [٢٣] ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس فى مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام فى الدين وفى السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة فى إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة فى فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها فى البلدان المتحضرة يضفى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية فى أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجبروك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » (٢٠) ثم أردف يقول » إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للنهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدت بديدرو ودالمبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربى عن الإلهام الإلهى إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولا شيء غير هذا » .

• أشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسيين أن يتخلصوا من ديكارت

الإنسان ، ولـكنه ارتاب فى أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذى جاء به الرسل . كما أنه لم يحس فى هذا العصر المرح المفعم بالحيوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان (٢٤) » .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونه — على نضارة تفاؤله الفتى . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة فى الأدب الفرنسى والفكر الفرنسى . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميزا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسى من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فانها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات فى الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهى كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد فى تاريخ القرن الثامن عشر » (٢٥) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير فى إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو فى التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء » (٢٦)

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبراً على مثل هذه الجراح الكثيرة فى صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفى ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حذرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان فى ١٠ يونيه أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام فى فناء قصر العدل باعتباره عملا شائناً ينافى الدين والأخلاق القوميــة ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمى بأنه فى السجن وهو فى مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الأختام هذا أحد موظفى الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما فى الكتاب من مآخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلا عن أن الكتاب الذى برئ من تأليفــه وزع دون موافقته . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أتراجع . . . بكل سرور . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض ، وإن الرهبان ليسوا متغطرسين ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هى انتصار للإنسانية والتسامح [٢٧] .

وألغى أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتنقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين ، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة فى بلاط هولشتين مع معاش قدرة عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض[٢٨] وفى يوليه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه فى سيرى

فى شمبانيا . وهناك وهو الضيف الذى يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ أسعد سنى حياته .

٣ — أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ — ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً فى مقاطعة المارن الأعلى فى شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من العمران فى منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المزروعة [٢٩] وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها لدراسة العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته فإنه يستطيع الانطلاق منها هربا إلى اللورين فى ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طللا متهدما من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه آل شاتيليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركيز باصلاحه ، أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب المركيز قط بسداد هذا القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ، وأشرف على ترميم بقية القصر . وفى نوفمبر وصلت المركيزة ومعها مائتا حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها الخاص ، وأقامت هناك — وهى التى كانت قضت معظم سنى شبابها بين الحاشية الملكية أو قريباً منها — منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقها فى وقف معا . وأقام المركيز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين حتى ١٧٤٠ ، محتفظا لنفسه فى لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفى ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو فى معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة (٢ مارس ١٧٣٥) فقصد إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولكن ماضيه لاحقه . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » . وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف . فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها فى حيطة وحذر إلى سيرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقت به مدام دى شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيرا بدأ شهر عسل فلسفى .

وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبى القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ، مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران بنسيج من المخمل الأحمر المنقوش ، وازدانت باللوحات التى اقتنى منها فولتير مجموعة ثمنة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز . ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فردريك ولى عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافينى . كانت النظافة تامة فى هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣١) أما جناح المركيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقا : اللون الأصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو . وصورة السقف وارضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك فى حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتى الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملا للفيزياء والكيمياء . فيها منفخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار . لم تكن مؤثثه تأثيثاً جيدا . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسلل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك فى اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرحا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة فى رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية ، ويغنوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان صوتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفانوس السحرى ، قرنهـا فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين فى الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل فى نطاقه ، ولو أنهما تعاونا أحيانا فى العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر فى أثناء النهار إلا فى وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وإنا لنرى فيه بحق محدثا ممتاما ممتلئا بالحيوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة فى أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه فى الحديث يزعجنى كثيرا ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت [٣١] وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا فى الرياضة .

وجدير بنا ألا نصور الرفيقين الفلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشيء عنيفة مقترة مع خدمها وكانت تحتج إذا تقدم فولتير أجراً أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شيء فى جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا لخلع ملابسها جميعا أمام سكرتيرهما لو نجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى فى الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التى يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى [٣٣] أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التى ستتكشف فى الوقت المناسب . كان شاعرا مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب صيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته الهادئة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع فى فن محكم . وكانت إحدى هذه الدرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هذه القسمات ليقع عليها بصرك . أنظرى إليها لتقرى عينا بها . أما صورتك فهى منقوشة فى أعماق قلبى بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . [٣٤] » .

أما هى فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقنى الألم [٣٥] .

ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هى أكثر انصرافا إلى العلم وانكبابا عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور فى إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذى لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دى جرانيني ، وكانت ضيفاً عليها فى ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضى معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل فى مكتبها . وفى بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً . [٣٦] وكان موبرتوى يأتى من حين لآخر إلى سيرى ليتابع دووسه لها فى الرياضيات والفزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالاضافة إلى إعجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هى التى أثارت الغيرة فى قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملاكمة والشجار بينهما فى برلين .

وهل كانت دى شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم سبيلا للأناقة ومجاراة مقتضيات العصر . ورأت مدام دى ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكى « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلاها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفته(٣٧) ولكن استمع إلى مدام دى جرافينى وهى تصف لنا جلسة فى سيرى .

« فى هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزى حالم . . . وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأنى بها تتفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، إنها ترجمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف فى شىء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ (٣٨) .

وأكد فولتير لتيبريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الانجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا (٣٩). وذات مرة بزت العالم الفيزيائى وعضو الأكاديمية دى ميران فى مناقشة عن الطاقة الحركية(٤٠) وقرأت شيشرون وفرجيل فى الأصل اللاتينى وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالانجليزية ، وعندما زار الجاروتى سيرى تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الانجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة فى الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلا عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هى الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتى العقلانى ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضا موجزا لنظام العالم لنشر فى ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادىء فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) (٤١) وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هى سرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته فى الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أنى فى بحثى عارضت كل آرائه تقريبا (٤٢)) ولم يفز أى منهما بالجائزة التى حصل

أولر . ولكن الأكاديمية طبعت مقاليهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر فى نشوة الحب العقلى .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها فى معمله وبعضها فى مسبك فى شومون المجاورة [٤٣] ودرس فولتير التكلس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين [٤٤] . ونراه فى مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو فى باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيرى لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولكن كان على هذا الكيميائى أيضا أن يتلو القداس فى أيام الآحاد والعطلات فى كنيسة القصر [٤٥] . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب فى ١٧٤١ ينبغى أن نعتقد فى صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجلس أن أن نكتفى بالقول بأننا لا نعرف [٤٦] . فالفلسفة كانت تعنى عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح فى مؤلفه « مبادىء فلسفة نيوتن أملا فى الترخيص الملكى بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة فى أستردام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك فى عام ١٧٤١ ، وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم ٤٤٠ صفحة ، نموذجا رائعا لما يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاص من قدره» تبسيطا ، أى محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنوانا فرعيا وضع ليكون فى متناول الجميع . وغير الراهب ديفونتين هذا العنوان الفرعى فى نقد غير ودى إلى « عويص على كل الناس» وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن فى صحيفة تريفو [٤٧] . وهنا طردت الجاذبية الكونية التى كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضا لبصريات نيوتن ، وتحقق من التجارب فى معمله الخاص ، وحاول إجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلا ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمـــان بالله . وفى نفس الوقت أكـد شمولية القانون فى العالم المـادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لفولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق فى أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والأنهما كانت الانسانية فى الشئون الأساسية فى عصره «يجب أن نهيء الطريق فى حياتنا لـكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفـذ إلى نفوسنا ، فإذا لم تتبدد هذه شذر مذر فإن هناك مكانا فسيحا لـكل شيء [٤٨]» وهكذا كتب فى ذاك الوقت (١٧٣٤) بحث فى الانسان ردد فيه إلى حـد كبير آراء بوب فى نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شيء صواب [٤٩]» . ونظم فى هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته فى رسالة فى الميتافيزيقا ، وقد رأى من الحـكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين آرائه وبين ما جاء به الـكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوى شعر سبط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد [٥٠] ويحكم من مظاهر النظام فى العالم ومن التركيب الهادف ذى المعنى فى أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

فى الانسان ، ولكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل هيوم وآدم سميث بزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع [٥١] وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذى نظمة فولتير فى تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسى والأدب الفرنسى كانا أكثر تحررا آنذاك منهما فى النصف الأول من القرن الشرين . رلقد رأينا نموذجا فى الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا فى الجواهر المنظومة فحسب ، بل فى جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيرا فولتير فى ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذى جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كوندرسيه الوقور الرزين عن القصيدة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفى الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب [٥٢] ، ووجد فى القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة فى فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين فى زمانه يرى فى جان دارك بنتا فلاحة بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنه غير شرعية استسلمت للخرافات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب فى أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزى حتى ولو لم تولد هى قط . وفيما عدا هذا ومع التسامح فى بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعابه ومال الملك برأسه نحوجان الباسلة التى لا تهاب شيئا ، وقال فى صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هى وحدها ، أنصتى إلى ياجان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمى اليمين ، فأجابت : مولاى العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم ، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل فى الأمر ، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا ، وأنها تتمتع بنعمة العذوية المقدسة المباركة ، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء ، ما دمت تعرفين كل شىء فأخبرينى ماذا حدث بينى وبين زوجتى فى الفراش فى الليلة الماضية؟ أتوسل إليك تحدثى بصراحة . فقالت جان لا لم يحدث شىء . فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال : أنها معجزة ، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا ٥٣) .

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة فى تسليتهم ، وليبعث الدفء فى أمسيات الشتاء الباردة . وكانت مدام دى شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة فى خرز أمين ، وسمح فولتير فى استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون . وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع فى بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التى أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته .

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا فى الزير Alzire « التى بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسى فى ٢٧ يناير ١٧٣٦ . وحققت التاريخ المسرحى بارتداء الممثلين الثياب التى كانت سائدة فى الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الغزو الأسبانى لدولة بيرو وسلبها ونهبها . ويتوسل الفاريت الحاكم الأسبانى للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذى انصب على هذه الدنيا الجديدة . نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبربرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء ، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولـكنهم يفوقوننا فى الميل إلى الخير وطيبة النفس [٥٤] . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٦٤٠ جنيها ، وتنازل فولتير عن نصيبه من دخـــل الرواية للممثلين .

وفى ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقه فاجعة . وفى نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدنيوى » وكأنما كانت رداً مسبقاً على رسالة روسو « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالحالمين الواهمين الذين يضفون المثالية على الإنسان البدائى غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هربا من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع فى الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعانى من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة فى المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة فى الفقر ، أو أى انسجام بين الجرائم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور « وأنا من جانبى أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتى أنجبتنى فى هذا العصر الذى يحط من قدره نقادنا الذين تعروهم الكآبة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كل الملاءمة لحياتى فأنا أحب الترف والبذخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلا لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبى العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لـكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقذار ، وان شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما . . . . وعبثا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هى التى أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق فى أعين رجال الدين الصورة التى رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالت الأصوات مطالبة بالقبض على شيطان سيرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل . وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سيرى واميلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من غرفتى إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها » وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧) وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المركيزة . ثم قصد هو وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح الكوميدى فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة ليبنتز . وفى سبتمبر عادوا إلى سيرى ، ثم قصدوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر ١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان قد أصبح ملكا ، ورفض أن يدعو إميلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة ١٥٠ ميلا مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فلبرى ، وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت اميلى فى نفس الوقت إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة فى باريس ، وواضح أن سيرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبت إلى دارجنتال : لقد لقيت جزاء سنمار على كل ما فعلت فى فونتنبلو ، لقد ذللت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله فى الأكاديمية ، وصفوة القول أنى فى ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقده فى ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافأنى على مثل هذا الاخلاص والغيرة ؟ أنه أبلغنى فى رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبى ويعذبنى عذابا لا يوصف ... لقد انتابتنى الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التى تستبد بعقلى حين أحس بأن الحزن سيقتلنى ، هى فكرة الأمى العميق الذى ينتاب فولتير لموتى ؟... أنى لا أطيق أن أفكر فى أن ذكراى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجدر بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكى ليلحق بعشيقته ، وفى طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره فى الموضوع :

« إنى أترك ملكا عظيما يكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فيزيقا وولف المسيحى (شارح ليبنتز) . أنى أنتزع نفسى من أعظم حاشية أمتاعا وإيناسا فى أوربا من أجل قضية قانونية . أنى لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتنهد واتأوه مثل أحمق معتوه بين يدى امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاى هجرت من أجلى كل شىء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أننى أسير فضلها فى كل شىء أن الحب غالبا ما يكون سخيفا مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافى لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك (٥٦) .

والتقى ثانية باميلى فى بروكسل التى أصبحت بلدهما الثانى بسبب طول الاجراءات فى قضيتها . وفى مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد فى ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ، ولكن عكر صفوهما شعور بأن جذوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبها

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة فى التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفى يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التى أخذت تذوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تغيدى إلى مسافات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان فى مقدورك ، فجر الحياة ، وهى فى غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا الحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفى أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه . وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدرور المسيحين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استثارة هممهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعند ما يتردد سعيد يؤبه محمد فى عبارات بدت

لبعض المستمعين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحيين : فهو يقول :
«وأنت أيضنا تتردد ؟ أنها الشباب الحرئ ، إنه لمما يتنافى مع الدين أن تتردد : إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك ن تمتثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلى عن ولده العزيز ! ! أن الله العلى القدير نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ، ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم فى الدار لآخرة [58] (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير . وفى رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر أن المشرحية هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادىء المسيحية الحقة .

وفى سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فلبرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته لزيارة الملك فى آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية . وفى ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدى فرانسيز أعظم رواياته ميروب حيث لاقت نجاحا أخرس ألسنة أعدائه بعض الوقت .

---

(١) أثبتنا هنا ما ورد فى الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكننا حرصنا على الأمانة فى النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل فى نفس الموضوع ، منها مسرحية يوريبيدس التى لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفى خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو سيبيون دى مافى (وهو من فيرونا) الذى كان قد أخرج ميروب فى ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسى ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم فى المشهد الأخير . ولأول مرة فى تاريخ المسرح الفرنسى تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس فى مقصورتهما ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً فى مكانه لحظة رداً على التحية(٥٩) ، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من أحسن ما كتب من مسرحيات(٦٠) . وذهب جيبون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل فى مسرحيات راسين(٦١) .

وقلل من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير فى الفوز بمقعد فى الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعيا متواصلا إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكيا حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة ٦٢ . وأيده لويس الخامس عشر فى بداية الأمر ولكن وقف فى طريقه وزيره الجديد موريباس الذى احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريرة دنسة المقعد الذى خلا بوفاة الكاردينال فليرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذى لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقيم معه فى بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس فى برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكبا عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى فى هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس — ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى اميلى

فى بروكسل . وفى أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما فى سيرى محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفى «رسالة السعادة» كانت المركيزة ترى أن الرغبة فى المعرفة هى إحدى الرغبات التى تسهم أكبر اسهام فى سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التى هى فى متناول أيدينا ، وهى الشىء الوحيد الذى نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى فى هذا المجال شخصان يفتتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل فى مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شىء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالمحبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان (٦٣) .

وفى رسالة مؤثرة لخصت تخليها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذى غزا قلبى . وقضيت هذه الأعوام العشرة فى ارتباط وثيق به . . . وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بى لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنى أحببته لسببين ، قضيت حياتى كلها معه واستمتع قلبى الواثق بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهمى أننى أيضا جديرة بالحب ، وأفلت من يدى هذا الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا فى التذرع باعتلال صحته . ولكننا سنجده فى بحر عام واحد يتأوه ويتنهد كالمعتوه بين يدى امرأة » والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دى شاتيليه والعلم . إن العزلة فى سيرى ربما أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ؛ وعندما كان يدعوه العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تذوق ثانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا فى السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دى ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولأن جانبه . وفى ١٧٤٥ كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا ، ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر فى العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفى سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ ـ رجل البلاط : ١٧٤٥ ـ ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحتضر فى كل عام مرة . وكتب إلى تيبريو فى ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أمامى إلا سنوات قليلة أعيشها (٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عندما انتابته علة خطيرة فى شالون فى أعالى المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه فى أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفى مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاى الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هى الطريقة التى عالج بها فولتير نفسه فبرىء من سقمة الذى ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هى القصد فى الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال فى كل شىء ، والتمرينات والرياضية البسيطة . ففى كل الأمراض التى لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أساسى فى أعضاء الجسم الداخلية ، يكفى أن تساعد الطبيعة التى

تسعى جاهدة فى شفائنا ، وأن نلتزم فى الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما ، فنتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيته دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودى معه[٦٦] .

وكان بارعا مثل رجال المصارف فى إدارة أمواله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكاتبا مسرحيا ورأسماليا وفيلسوفا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارحنسون على جمع ثروة من تموين الجيش[٦٧] ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقية أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دى فلبار والأمير دى جيز وسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا فى استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح [٦٨]. وفى ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ر٤٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠[٦٩] جنيه » وفى حالة مسيودى بريزى غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ / ، واستثمر فولتير أكثر أمواله فى سندات مدينة باريس التى تدر ربحا قدره ٥ ٪ أو ٦ ٪ ، وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضرورى يا صديقى أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف فى الطلب — ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى [٧٠] » فى ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه[٧١] . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولا أو فعلا إلى فوفينارج ومارمونتل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر فى هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التى تعلمها فى صغره «أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتى مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو اكتنز لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعماً بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصداقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبرياءه ، ولكنه لم يكن يحتمل فى صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أنى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها[٧٢]) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا أراءه فى عنف أشد من عنف رجال الدين فى مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم ، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة فى منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر فى مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان فى فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير فى رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما فى العمل امتحانا قاسيا لكل منهما ؛ ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . وفى ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عُرضت « أميرة نافار » — ولقيت ما كان مقدرا لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة فى فرساى تقارب ما وصفه فى رسائله الخاصة بأنها « أقذر حجره فى فرساى » وتبوأت مركيزة شاتيليه من جديد فى الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس فى حضرة الملكة . وكان فى صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها فى دارها ، وكتب فى مديحها شعرا تافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك براتب قدره ألفى جنيه فى العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه فى ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز فى فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر فى ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير الفترة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة فى تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد المعظم » أى تراجان — أى لويس الخامس عشر — عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير فى تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو فى لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشىء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وثمل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد فى تحقيق مأربه . وفى ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفى ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التى قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وأنى لأكبر كل الأكبار نبلك واخلاصك ... وإنى هنا أمنحك بركتى الرسولية (٧٣) » .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (٧٤) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكى وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب فى مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا فى ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء فى هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة فى تكريمه وتدعيم مركزه عين فى ٢٢ ديسبر موظفا فى الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له فى أيام النجاح والعيش الرغيد هذه أن يكتب رواية « بابوك أو الدنيا كما هى » وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم فى جنوب شرقى أوربا وجنوب غربى آسيا) يجول ليرى الدنيا ، وبخاصة كيف تسير الأمور فى فارس (أى فرنسا) وأصابه الذهول والفزع لما رأى من الحروب والفساد السياسى وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين . ولكن ترحب به سيدة (مدام دى بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى « المدنية » ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة . ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليرى) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والمزائم ، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم ، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد ، وأن الاصلاح خير من الثورة ، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم فى عزلة وهدوء(٧٥) . فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلا ؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً ليعمل فى البلاط . فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين فى برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور ، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها ، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر ، وفى الوقت عينه كانت دى شاتيليه قد انغمست فى لعب الميسر ، وفى ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك ، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش فى اللعب . وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية ، فلم تترك للشاعر صديقاً فى فرساى أو فونتنبلو ، وهرب فولتير واميلى إلى سكو (١٧٤٧) ليقيما لدى الدوقة دى مين التى ما زالت على قيد الحياة ، وهناك بقى لمدة شهرين فى جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس ، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرحة التى ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية فى الأدب الفرنسى . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة . ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التى كتبت فيما بين عامى ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هى « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلى لطيف غنى تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلديين . فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف فى أى عصر ، أى القليل منها أو لا شيء على الاطلاق(٧٦). وكان على وشك أن يتزوج من سميرا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج فى عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه فى العين اليمنى لأمكن علاجه بسهوله ، ولكن الجروح فى العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سميرا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفى ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع فى شراك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفى الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب فى شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديج فى طريقه ويؤخذ ويباع بيع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كما هم فى حقيقة أمرهم . . . . . . حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه (٧٧) .

أما رحلات سكارمنتادو فهى تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له فى كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففى فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفى إنجلترا تحرق الملكة مارى خمسمائة من البروتستانت ، وفى اسبانيا ينشق الشعب فى لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم فى النار ، وفى تركيا ينجو سكارمنتادو من الختان بأعجوبة ، وفى فارس يتورط فى الصراع بين طائفتى السنة والشيعة من المسلمين ، وفى الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى فى المستقبل شيئاً غير بلدى ، وتزوجت وسرعان ما داخلنى الشك فى خيانة زوجتى ، ولكنى على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هى أسعد ظروف الحياة (٧٨) » .

وتوسع ميكرو ميجاس فى أفكار النسبية التى استخدمها سويفت فى رحلات جلليفر . والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للاقامة فى نجم الشعرى اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من التعليم .

وبينما هو يحوم فى الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأقزام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أى حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهى بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت فى اللحظة التى نولد فيها . . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا[٧٩] . ويدعو ساكن الشعرى اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعثر أقدامهما على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعرى ، ويكاد ساكن زحل يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا من الأهالى صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك فى اهتياج شـديد ، وعند ما يتضح لساكن الشعرى اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمائم ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس بعض فى صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين) لا يكاد يعلو على عقبيه يصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . . قلبى يحدثنى أن أتقدم خطوتين أو ثلاثا لأسحق تحت قدمى وكر السفاحين الحمقى بأمره [٨٠] .

وكل هذا كان عاما سارا بهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك أحد ساكنا . ولـكن فولتير فى ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة « صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا فى نقطة حساسة ، تلك هى « أملاك الـكنيسة فى فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالـكنيسة أن تسهم فى نفقات الأمة بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التى نصبت نفسها لتلقين مبادىء العدالة يجدر بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع أقوات الشعب وموارد الأرض فى نحول عقيم ، واتهم « الخرافة » بقتل الحـكام واراقة بحور من الدماء فى الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على مليكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل وجردوا أنفسهم من الخرافة فـكم يكون الناس أسعد وأهنأ بالا [٨١] . وقل أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحـكماء وصوت الشعب » التى لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير فى فصل الشتاء فى سكو سددت مدام دى شاتيليه

ديون القمار . وهدأت من روع الراجين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانسلاس لزكزنسكى لزيارة بلاطه فى لونفيل — على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لونفيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجنتال ينبئ فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدى فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشيء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كربيون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبل النجاح . وكان ماريفو قد تجاسر فا عتبر مسروحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكأن الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كربيون قد طرقها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا اميلى فى حرية مهلكة فى لونفيل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكراً إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها ، تقبلها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجمتها . وقد آلمته هذه أيما ايلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لونفيل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فردريك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشيء الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك »[٨٢] ولكن فولتير آثر المقام مع إميلى .

٥ — موت الحبيبة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفى ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحى » الذى كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته فى استياء حزين . وحذرته من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هى المركيزة دى بوفلرز) فإنه لم يجد تناقضا فى أن يتخذ من الشاعر محظيا له فى بلاطه . كما عين . فوق ذلك ، زوج اميلى المتحرر الواسع الأفق كبير مديرى قصره براتب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف أخر فى بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دى سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دى شاتيليه قد التقت به لأول مرة فى ١٧٤٧ ، وكان هو فى الحادية والثلاثين وهى « فى الحادية والأربعين . وكانت تلك سن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفى ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تتسم بحماسة البنات الصغيرات وخلاعتهن : « تعال إلى بمجرد أن ترتدى ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « وأستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة فى أكتوبر فاجأهما فولتير فى خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذى يتقبل هذه الفعلة المكراء ، الخيانة . فى هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنبهما فى شىء من الهذر والمزاح ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه — أى يقتله عند الفجر . وقصدت اميلى إلى فولتير فى الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد . ولكنها ذكرته فى رفق « بأنك لزمن طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل يسئ إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودللته بأسماء الدلال التى كانت تناديه بها ، فخفت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائماً ياسيدتى . ولكن طالما كان لزاما أن تجرى الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى » وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شىء . إنى أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التاليـــة تناول ثلاثتهم العشاء معا(٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سيرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فردريك دعوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلبيتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سيرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت أنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فردريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سيرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سيرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة . وشرب وثمل حتى كان ما كان (ممـــا لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت أتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة »(٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تلمنى على نيوتن . ويكفينى

عذابى بسببه . وما ضحيت قط بشىء قدر تضحيتى للعقل ببقائى هنا لانجازه . . أنا استيقظ فى التاسعة . وأحيانا فى الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ، واستأنف العمل فى الرابعة ، وأتوقف عنه فى العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معى العشاء . وفى منتصف الليـل أعود إلى العمل فى نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إنى أنجز هذا الكتاب من أجل العقل والشرف ولـكنى أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفى ١٠ يونيه جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات أخرى يلتزم بها تجاه دى شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر نفسه لا يستطيع أن يحول بينى وبين القيام بواجب لا يمكن أن يحلنى منـه أى شىء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية فى سبتمبر . والأرجح أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولـكن إذا كتبت لها النجاة ، فإنى أعدك يا مولاى أنى أحضر فى أكتوبر وأقدم ولائى لجلالتكم (٨٦) » .

وفى يوليه صحبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف الموت أزعجها كل الازعاج — يختطفها الموت فى الوقت الذى وجدت فيه الحب من جديد ، وفى الوقت الذى كانت فيه سنى دراستها وبحثها على وشك أن تتوج بنشر كتابها . وفى ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفى اليوم العاشر من سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعى فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال فولتير عندئذ : « آه يا صديقى أنت الذى قتلتها . . . . يا إلهى ! ما الذى أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير من لونجشامب الخاتم الذى خلعوه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته منقوشة عليه يوما ماووجده السكرتير فى يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلا : « هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت لامبرت فطردنى . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينزع مكان آخر .

وهكذا تدبر الأمور فى هذه الدنيا [٨٧] » . وووريت مدام دى شاتيليه التراب فى لونفيل فى أروع مظاهر المهابة والجلال فى بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعتها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيرى ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التى تلقاها من باريس : « أنتم عزائى ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلوننى أحب بقية أيامى التعسة . إننى أعترف لكم أن البيت الذى أظلها على الرغم مما يثير فى نفسى من أشجان ، ليس كريها عندى . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . إنى أحب سيرى . . . والأماكن التى زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتها فى طفولتها . إن أكثر الآباء عطفا وحنانا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد فى كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها [٨٨] .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقى مترملا فى سيرى الموحشة المنعزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنيـــة إلى باريس ، وسافر فى أثرها فى ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفى ١٢ أكتوبر استقر به المقام فى العيصمة ، فى قصر واسع الأرجاء فى شارع ترافرسيير .

٦ — مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت مارى لويز مجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعندما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفى ١٧٣٧ ، عندما بلغت مارى السادسة والعشرين ، دفع لهـــا خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً فى الحكومة .

وتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها . وواضح أن حب الخال سرعان ما تحول إلى شيء غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »[٨٩](*) وقد تكون هذه عبارة حب برئ ؛ ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرمله الطروب رسالة يجدر اقتباسها حرفيا حتى يمكن تصديقها : « اقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبل كل شيء فيك »[٩٠] .

وحذفت مدام دنيس بعض الألفاظ تواضعا وخجلا ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساى فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماما . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهبت مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات»[٩٢] . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إنى أقبلك ألف قبلة »[٩٣] . بودى أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعيك . .[٩٤] « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأسره ؟ »[٩٥] وفى ٢٧

(*) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيير بونت مورجان فى نيويوك من أعقاب السيدة دنيس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير "ق لى دليس فى جنيف ، النص الأصلى ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنه أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعا من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالايطالية التى كانت مدام دنيس ملمة بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ — ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكدا . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفى السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفى نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع فى جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعده من بين الفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصبيانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحا أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حبا متزايدا . إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما جاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركيز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحا فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربت مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاما . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطريننى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أتخلى عن المركيز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة . . . . سأحضر من سيرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التى قضاها فى العاصمـــة ، تلقى فولتير من فردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فردريك أن يشغل وظيفة كبيرة فى البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر فى العام . (١٠١) ولكن فولتير الذى كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك فى تأنيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذى رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول (١٠٢) . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقربين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون فى بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل فى فرساى (١٠٣) » . وفى ١٠ يونيه ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 52, Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 269.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 79.
32. Taine, 62, Michelet, *Histoire de France*, V, 288
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 270
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 23-24, Ducros, 256-57.
43. Herbert, 37.
44. See, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 305 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 182.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Mornet, *Origines intellectuelles de la Revolution française*, 28.
60. Parton, II, 184
61. Lacroix, 228
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 213.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206
72. *Ibid.*

73. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres, III, 241
75. Grimm, *Correspondance*, VIII, 731-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 209.
78. Ducros, 53.
79. Stryienski, *Eighteenth Century*, 57
80. Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes au xviii^e siecle*, 129
81. Michelet, V, 277, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 445
82. Voltaire, *Works*, XVIa, 157
83. Stryienski, 79
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 256n.
86. Stryienski, 85
87. Desnoiresterres, II, 336
88. Martin, H., XV, 251.
89. Saint-Simon, *Memoirs*, III, 283.
90. *Michelet*, V, 248
91. Martin, H., XV, 116n., Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearne, *Court Painter*, 85
93. Guizot, *History of France*, V, 78
94. Goncourts, *Pompadour*, 9.
95. Michelet, V, 325
96. Ercole, 167
97. Lewis, D B Wyndham, *Four Favorites*, 42
98. Stryienski, 140-41
99. *Webster's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 224
101. Voltaire, *Works*, XVIb, 224.
102. Carlyle, Thos., *History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryienski, 148
104. Voltaire, XVIb, 239
105. Stryienski, 149.
106. Martin, H., XV 431n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky, *England*, V, 327.
110. Goncourts, *Pompadour*, 12
111. Michelet, V, 349.
112. Ercole, 197
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis, *Four Favorites*, 48
116. Taine, *Ancient Regime*, 82
117. Goncourts, 71
118. *Ibid.*, 348.
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451
121. Michelet, V, 354
122. Martin, H., XV, 436
123. Goncourts, 131
124. Lewis, 50.
125. Ercole, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 249

CHAPTER VIII

1. See, *Economic and Social Conditions*, 48 f
2. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422
3. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
5. *Ibid.*, 151
6. 242.
7. 244.
8. Desnoiresterres, III, 133
9. Crequi, *Souvenirs*, 57, 121.
10. Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
12. Brandes, I, 147.
13. *Ibid.*, 141.
14. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 187.
15. *Ibid.*, 188.
16. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53
17. Funck-Brentano, 50.
18. Ducros, 61
19. Quoted in Funck-Brentano, 60
20. Taine, *Ancient Regime*, 134
21. Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752)
22. Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Memoires*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 92.
27. Kohler, Carl, *History of Costume*, 340.
28. Créqui, 123.
29. Lacroix, 370
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 441
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
36. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d
37. Burney, II, 970.
38. Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
39. Duclos, C, *Considérations sur les moeurs*, 13

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Memoirs*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46. Batiffol, 208.
47. Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168
48. Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196

CHAPTER IX

1. Famel, S., *French Art of the 18th Century*, 36
2. *Ibid.*, 91.
3. Funck-Brentano, 180
4. Louvre
5. See the great commode in the Wallace Collection
6. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77
7. *Ibid.*, 81
8. Louvre.
9. Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181
10. Dijon Museum.
11. Versailles Museum.
12. Louvre
13. Bearne, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18. Turner, 197
19. Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. , Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif
23. *Ibid.*
24. Wallace Collection.
25. Goncourts, *French Painters*, 91
26. *Ibid.* 84.
27. Block, 22.
28. Ridder, *Chardin* 8, Goncourts, *French Painters*, 127
29. Louvre
30. Louvre.
31. Louvre
32. Goncourts, 141-42, Havens, *Age of Ideas*, 321.
33. Diderot, *Salons*, III, 4.
34. Goncourts, 177n.
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*
37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considérations*, 217
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73
3. Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5. "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7. Brandes, I, 72.
8. Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10. Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12. Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126
13. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14. Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15. Crebillon *fils*, *Le Sopha*, introd.
16. *Le Sopha*, 65
17. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18. Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, xliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57
23. Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24. Saintsbury, introd to *Manon Lescaut*, ix-xii
25. Bury, J., *History of the Idea of Progress*, 135-36 Martin, K., 280.
26. Lichtenberger, A., *Le Socialisme et la Révolution française*, 73, Martin, H., XV, 335; Martin, K., 62, Hazard, 197.
27. In Martin, K., 61
28. In Crocker *Age of Crisis*, 426-29
29. Duclos, *Considérations*, 11-12.
30. *Ibid.*, 17, 21
31. 27.
32. 25.
33. Torh, 38
34. La Bruyere and Vauvenargues, *Selections* 189
35. Vauvenargues *Oeuvres choisies*, cxv iv.
36. La Bruyere and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, CLXXXVII
38. *Ibid.*, CLXXXII.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40 *Ibid*, 30.
41. Vauvenargues, CLXIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues. CL
44. *Ibid*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa. 43
53. Sorel, A., *Montesquieu*, 125
54. *Ibid*, 9.
55. 23
56 Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, XXIV.
58 In Sorel, 43
59 Herodotus, *History*, IV, 183.
60 Aristotle, *Historia animalium*, VIII, 12
61 *Persian Letters*, XII
62. Letter XXIV
63 XXIX.
64 CXVIII.
65. CXIII
66 CXVIII.
67. XXXV.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49
70 *Grandeur et décadence des Romains*, introd., *vi*.
71 *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73 Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75 Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81 *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82 *Ibid*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, x
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au xviii*[e] *siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92 V, xiii.
93. V, x.
94 XI, vi
95 *Ibid.*
96 *Ibid.*
97. XI, iii.
98 *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxviii.
00. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104 Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105 *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106 I, i.
107 XII, xxix
108 In Havens, *Age of Ideas*, 121
109 *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111 XXIV, v.
112 XXV, v
113. *Ibid.*, xiii.
114 *Ibid.*, x.
115 Quoted in Faguet, 195.
116 Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux, 78 f., Martin, K., 153
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel,
121 Voltau XIXa, 238-39
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127 *Cf.* Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 226, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76, Brunetière, 301, Stephen, L., *English Thought in the 18th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109.
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750)
133 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137 Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
151. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

1 Desnoiresterres, I, 410.
2 Bain, R. N., in **Voltaire, *Charles XII***, introd. xxii.
3. E.g., Buckle, I, 577
4. Voltaire, *Charles XII*, p. 11
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug. 25, 1732, in *Works*, XXIa, 216
7. *Zaire*, I, i, in *Works*, Xa, 27
8 *Zaire*, II, iii
9. Desnoiresterres, II, 2
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11 Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 347.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14 Letter v.
15 *Ibid.*
16 Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17 *Ibid.*, 169.
18 Letter x.
19. Letter viii, Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203
22 Voltaire, XIb, 212
23. *Ibid.*, 219.
24 235
25. Buckle, I, 517.
26 Parton, I, 225
27. *Ibid.*, 303.
28 343.
29 Desnoiresterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35 Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190
36 Parton, I, 391
37 Créqui, 35.
38 Parton, I, 389.
39 Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14
40 *Ibid.*
41 37.
42 Brandes, I, 388.
43 Voltaire, XXIa, 197-201.
44 Desnoiresterres, III, 330.
45 Voltaire, XXIa, 193, 209.
46 Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47 Brandes, I, 365, Desnoiresterres, II, 53
48 Voltaire, XXIb, 107.
49. Ia, 299
50 Voltaire, *Traité de métaphysique* (*Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p. 187.
52 Taine, *Ancient Regime*, 258.
53 *La Pucelle*, Canto ii, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, i
55. Brandes, I, 361
56 Parton, I, 445.
57 Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474
58 *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIIb, 55
59 Brandes, II, 8
60 Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p. 101
61 Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 462.
63 Brandes, I, 405.
64 *Ibid.*
65. Mitford, N., ***Voltaire in Love***, 75.
66. Parton, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98
69. XXIa, 190, 193.
70 *Ibid.*, 195.
71 Parton, I, 575.
72 *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282
76. Ib, 6.
77 IIb, 41
78 IIa, 63.
79. IIa, 26.
80 IIa, 44-45
81 Parton, I 581-82.
82 Voltaire and Frederick, *Letters*, 138, 191
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84 Longchamp in Desnoiresterres, III 246 and Parton, I, 556.
85 Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 191
87 Desnoiresterres, III, 390.
88 Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90 Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53
91 Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46 Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92 *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54
94 *Letters d'amour*, 77 *Love Letters* 57
95 *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters* 58
96 *Lettres d'amour*, 146
97. *Love Letters*, 103
98 *Lettres d'amour*, 15.
99 Marmontel, *Memoirs*, I, 121
100 Mitford, N., *Voltaire in Love*, 303

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326, de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27, Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Régime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Láng, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov 21, 1716).
7. Tietze *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid*., 298
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Baroekmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Láng, 450
32. Spitta, *Bach*, II, 46, *Enc Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid*., 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E g, Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158 On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid*., 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid*., 404.
57. 292.
58. Láng, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid*., 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid*., 242
74. 234

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264, *New Camb Mod History* VII, 402.
6. In 1714-34.
7. 1726-33.

8. 1715–56
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; *cf.* Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II. 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288.
25. *Camb. Mod. History*, VI. 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 212.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid*, 164.
38. Carlyle, II, 327.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51 Dec. 25, 1737.
52. Mar 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P, *Life and Times of Niccolo Machiavelli*, II, 201.
56 In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68 *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93 Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94 Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid*, 146.
101 Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 213.
113. 214. Strachey. *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 264.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 284.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les moeurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 553.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361. 516
22. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwein, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI.

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 660n
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics* 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91
8. Bell, 170
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164, Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290.
23. 295, Wolf, 232
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358
27. *Ibid.*, 350.
28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62h.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
40. *Ibid.*, in Willey, 197
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187
42. French, S. J., 215
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 49.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225
46. *Ibid.*, 293
47. 325.
48. 319.
49. 412 f
50. 404.
51. 407.
52. French, 267
53. Williams, III, 11
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 281
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

69 In Bell, 182.
70 Berry, 307.
71. Wolf, 299.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
73 *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269
76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
77 Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34.
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130
85 Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272
86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87 Gourlie, 270
88 Wolf, 455
89 *Ibid.*, 456
90 457.
91 *Enc Brit*, XVIII 32.
92 Locy, 399
93 Wolf, 349
94 *Ibid*, 450
95 Jardine, Wm, *The Naturalist's Library*, 24
96 *Ibid.*, 321
97 Sainte-Beuve II, 264
98 Osborn 136
99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175
100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H, XVI, 37.
101 Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145
102 Osborn, H F., *Men of the Old Stone Age* 3.
103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104 In Smith, P, II, 518.
105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd xii.
106. Rousseau, letter of Nov 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108 Buffon, I, introd, xviii.
109. *Ibid.*, XII, 324-30
110. *Ibid* 324n
111. Hazard, 144
112. Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740
113. Sainte-Beuve, II, 254
114 Jardine, 32.
115. *Ibid*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid*, 122.
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
126. Turberville, A. S., ed, *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146
130. *Ibid.*
131 149.
132 Brett, G. S, *History of Psychology* 423.
133. Condillac, *Traité des sensations*, 38
134. *Ibid.*.
135. *Ibid.*, 70.
136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187
2. Sigerist, *Great Doctors*, 235.
3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602
4. Williams, H S., *History of Science* IV, 78.
5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid*
7 Vartanian, *Diderot and Descartes*, 270.
8 Wolf, 263.
9 Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
13 Besant, *London*, 380.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191
16 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
18 Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
19. Goncourts, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. Sée, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.

